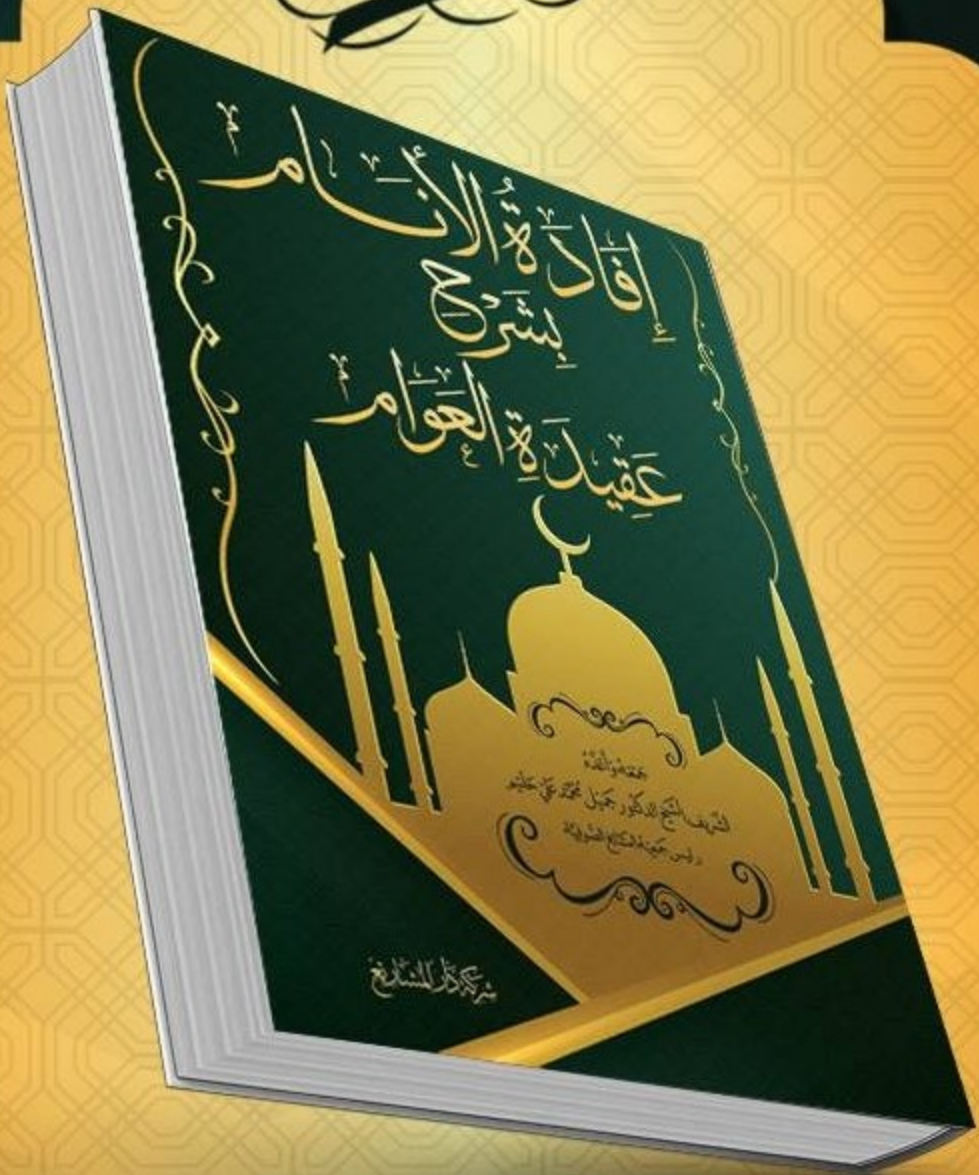

جديد
إفادة الأنام بشرح عقيدة العوام

التَّوطِئَة:

المِيزان في بَيان عَقِيدَة أهلِ الإيمان

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلى الله وسلَّم وشرَّف وكرَّم على سيِّدنا محمَّد، الحبيبِ المحبوبِ، العظيم الجاهِ، العالي القَدرِ طه الأمينِ، وإمامِ المرسلينَ وقائدِ الغُرِّ المحَجَّلِينَ، وعلى ذُرِّيَّته وأهلِ بَيتِه المَيامِين المكرَّمين، وعلى زوجاتِه أمَّهات المؤمنِين البارّاتِ التَّقِيَّات النَّقِيَّات الطاهراتِ الصَّفِيَّات، وصحابَتِه الطيِّبِين الطَّاهرِين، ومَن تَبِعَهُم بإحسانٍ إلى يَومِ الدِّين.

أما بعدُ، فهذه عقيدةُ كلّ الأمّة الإسلاميةِ سلَفًا وخلفًا، وهي المرجع الذي تُعْرض عليه عقائدُ الناس، فمن خالفها أو كذبها لا يكونُ من المسلمينَ، وهي ميزان الحقِّ الذي يَكْشِفُ زيْفَ الباطلِ وزيغَهُ، فكان لا بُدَّ من هذا البيان المهمِّ لخصوصِ الغَرضِ وعمومِ النَّفْعِ؛ وعليه:

اعلم أرشدَنا اللهُ وإياكَ أنهُ يجبُ على كلِّ مكلفٍ أن يعلمَ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ واحدٌ في ملكِهِ، خلقَ العالمَ بأسرِهِ العلويَّ والسفليَّ والعرشَ والكرسيَّ، والسماواتِ والأرضَ وما فيهمَا وما بينهُمَا. جميعُ الخلائِقِ مقهورونَ بقدرتِهِ، لا تتحرَكُ ذرةٌ إلا بإذنِهِ، ليس معهُ مُدَبّرٌ في الخلقِ ولا شريكٌ في الملكِ، حي قيومٌ لا تأخذُهُ سِنَةٌ ولا نومٌ، عالمُ الغيبِ والشهادةِ لا يخفى عليه شيء في الأرضِ ولا في السماءِ، يعلمُ ما في البرّ والبحرِ، وما تسقطُ من ورقةٍ إلا يعلمُهَا، ولا حبةٍ في ظلماتِ الأرضِ ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلا في كتابٍ مبينٍ.

أحاطَ بكلِ شيء علمًا وأحصَى كلّ شيءٍ عددًا، فعالٌ لما يريدُ، قادرٌ على ما يشاءُ، له الملكُ وله الغِنى، وله العِزُّ والبقاءُ، وله الحكمُ والقضاءُ، وله الأسماءُ الحسنى، لا دافعَ لما قضَى، ولا مانعَ لما أعطَى، يَفْعَلُ في ملكِهِ ما يريدُ، ويَحْكُمُ في خَلْقِهِ بما يشاءُ، لا يَرجُو ثوابًا ولا يخافُ عقابًا، ليس عليهِ حقٌّ يلزَمُهُ ولا عليهِ حُكْمٌ، وكلُّ نِعْمةٍ منْهُ فَضْلٌ وكل نِقْمةٍ منه عَدْلٌ، لا يُسألُ عمّا يَفْعَلُ وهم يُسْألونَ. مَوجودٌ قبلَ الخَلْقِ، ليسَ لهُ قبلٌ ولا بعدٌ، ولا فوقٌ ولا تحتٌ، ولا

يمينٌ ولا شمالٌ، ولا أمامٌ ولا خلفٌ، ولا كلٌّ ولا بعضٌ، ولا يقالُ متَى كانَ ولا أينَ كانَ ولا كيفَ، كانَ ولا مكانَ، كوَّنَ الأكوانَ، ودبَّرَ الزمانَ، لا يتقَيَّدُ بالزمانِ، ولا يتخصَّصُ بالمكانِ، ولا يشغَلُهُ شأْنٌ عن شأْنٍ، ولا يلحقُهُ وهمٌ ولا يكتنِفُهُ عقلٌ، ولا يتخصَّصُ بالذّهنِ، ولا يتمثَّلُ في النفسِ، ولا يُتَصَورُ في الوهمِ، ولا يتكيفُ في العقلِ، لا تَلْحَقُهُ الأوهامُ والأفكارُ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

تنزَّه ربّي عن الجلوسِ والقعودِ والاستقرارِ والمحاذاةِ، الرّحمٰنُ على العرشِ استوى استواءً منزهًا عن المماسةِ والاعوجاجِ، خلقَ العرشَ إظهارًا لقدرتِهِ ولم يتَّخِذه مكانًا لذاتِهِ، ومن اعتقدَ أنَّ اللهَ جالسٌ على العرشِ فهو كافرٌ، الرّحمٰنُ على العرشِ استوى كما أخبرَ لا كما يخطرُ للبشرِ، فهو قاهرٌ للعرشِ مُتَصرِّفٌ فيه كيف يشاءُ، تنزَّهَ وتقدَّسَ ربّي عن الحركةِ والسكونِ، وعن الاتصالِ والانفصالِ والقُربِ والبُعدِ بالحِسّ والمسافةِ، وعن التَّحوُّلِ والزّوالِ والانتقالِ، جلَّ ربّي لا تُحيطُ به الأَوهامُ ولا الظُّنونُ ولا الأفهامُ، لا فِكرةَ في الرَّبِّ، خلق الخلق بقُدرته، وأحكمَهم بعِلْمه، وخَصَّهم بمشيئته، ودَبَّرَهم بحِكمَته، لم يكن له في خَلْقِهم مُعِين، ولا في تَدبِيرهم مُشِير ولا ظَهِير.

لا يلزمه (لِمَ)، ولا يُجاوِرُه (أين)، ولا يُلاصِقُه (حَيث)، ولا يَحُلُّه (ما)، ولا يَعُدُّه (كَم)، ولا يَحصُره (متَى)، ولا يُحِيطُ به (كَيف)، ولا يَنالُه (أيٌّ)، ولا يُظِلُّه (فَوق) ولا يُقِلُّه (تَحت)، ولا يُقابِلُه (حَدّ)، ولا يُزاحِمُه (عِند)، ولا يأخُذه (خَلْف)، ولا يَحُدُّه (أمام)، ولم يَتقدَّمُه (قَبْل)، ولم يَفُتْه (بَعد)، ولم يَجْمَعْه (كُلّ)، ولم يُوجِدْه (كان)، ولم يَفْقِدْه (لَيس).

لا إلٰه إلا هو، تقدَّسَ عن كلِّ صفاتِ المخلوقينَ وسِمَاتِ المحدَثينَ، لا يَمَسُّ ولا يُمَسُّ ولا يُحَسُّ ولا يُجَسُّ، لا يُعرَفُ بالحواسِّ ولا يُقاسُ بالناس، نُوَحِّدُه ولا نُبَعِّضُه، ليس جسمًا ولا يتَّصِفُ بصفاتِ الأجسام، فالمجسِّم كافر بالإجماع وإن قال: «الله جسمٌ لا كالأجسام» وإن صام وصلَّى صورةً، فالله ليس شبحًا، وليس شخصًا، وليس جوهرًا، وليس عَرَضًا، لا تَحُلُّ فيه الأعراضُ، ليس مؤلَّفًا ولا مُرَكَّبًا، ليس بذي أبعاضٍ ولا أجزاءٍ، ليس ضوءًا وليس ظلامًا، ليس ماءً وليس غَيمًا وليس هواءً وليس نارًا، وليس روحًا ولا له روحٌ، لا اجتماعَ له ولا افتراقَ.

لا تجري عليه الآفاتُ ولا تأخذُه السِّنَاتُ، منزّهٌ عن الطُّولِ والعَرْضِ والعُمْقِ والسَّمْكِ والتركيبِ والتأليفِ والألوانِ، لا يَحُلُّ فيه شيء، ولا يَنْحَلُّ منه شيء، ولا يَحُلُّ هو في شيء، لأنه ليس كمثله شيء، فمَن زعَم أنّ الله في شيء أو مِن شيء أو على شيء فقَد أشرَك، إذ لو كان في شيء لكان محصورًا، ولو كان من شيء لكان مُحدَثًا أي مخلوقًا، ولو كان على شيء لكان محمولًا، وهو معكم بعلمه أينما كنتم لا تخفى عليه خافية، وهو أعلم بكم منكم، وليس كالهواء مخالطًا لكم.

وكلَّم الله موسى تكليمًا، وكلامُه كلامٌ واحدٌ لا يتبعض ولا يتعدد ليس حرفًا ولا صوتًا ولا لغةً، ليس مُبتَدَأً ولا مُختَتَمًا، ولا يتخلله انقطاع، أزليٌّ أبديٌّ ليس ككلام المخلوقين، فهو ليس بفم ولا لسان ولا شفاه ولا مخارج حروف ولا انسلال هواء ولا اصطكاك أجرام. كلامُه صفةٌ من صفاتِه، وصفاتُه أزليةٌ أبديةٌ كذاتِه، وصفاته لا تتغيَّر لأنَّ التغيُّرَ أكبرُ علاماتِ الحدوثِ، وحدوثُ الصفةِ يستلزمُ حدوثَ الذاتِ، والله منزَّهٌ عن كل ذلك، مهما تصورت ببالك فالله لا يشبه ذلك، فصونوا عقائدَكم من التَّمَسُّكِ بظاهِرِ ما تشابَه من الكتابِ والسنَّةِ فإنَّ ذلك من أصولِ الكفر ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾، ومن زعم أن إلٰهنا محدودٌ فقد جَهِلَ الخالقَ المعبودَ، فالله تعالى ليس بقدر العرش ولا أوسع منه ولا أصغر، ولا تصِحُّ العبادة إلا بعد معرفة المعبود، وتعالى ربّنا عن الحدود والغايات والأركان والأعضاء والأدوات، ولا تحويه الجهات السِتّ كسائر المبتدَعات، ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر فقد خرج من الإسلام وكفر.

﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾، ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾، ما شاء الله كان وما لم يشأْ لم يكن، وكلّ ما دخل في الوجود من أجسامٍ وأجرامٍ وأعمالٍ وحركاتٍ وسكناتٍ ونوايا وخواطر وحياة وموت وصحة ومَرَضٍ ولذّة وألم وفَرَح وحزن وانزعاج وانبساط وحرارة وبُرودة ولُيونة وخشونة وحلاوة ومرارة وإيمانٍ وكفر وطاعة ومعصية وفوز وخسران وتوفيق وخذلان وتحركات وسكنات الإنس والجن والملائكة والبهائم وقطرات المياه والبحار والأنهار والآبار وأوراق الشجر وحبات الرمال والحصى في

السهول والجبال والقفار فهو بخلق الله، بتقديره وعلمه الأزلي، فالإنس والجن والملائكة والبهائم لا يخلقون شيئًا من أعمالهم، وهم وأعمالهم خَلْق لله، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾، ومَن كذَّبَ بالقدر فقد كفَر.

ونشهد أن سَيِّدَنا ونبيَّنا وعظيمنا وقائدَنا وقُرَّة أعيننِا وغوثنا ووسِيلتنا ومعلّمنا وهادينا ومرشدنا وشفيعنا محمَّدًا عبدُه ورسولُه، وصفيُّه وحبيبُه وخليلُه، مَن أرسَلَه اللهُ رحمةً للعالمين، جاءنا بدين الإسلام ككُلِّ الأنبياء والمرسلين، هاديًا ومُبَشِّرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه قمرًا وهَّاجًا وسِراجًا مُنيرًا، فبلَّغ الرسالة وأدَّى الأمانة ونَصح الأُمّة وجاهَد في الله حَقّ جِهاده حتّى أتاه اليَقِين، فعَلَّمَ وأرشدَ ونَصحَ وهَدى إلى طريق الحقِّ والجنَّة، ﷺ وعلى كلِّ رسولٍ أرسَلَه، ورضي الله عن ساداتنا وأئمتنا وقدوتنا وملاذنا أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسائر العشرة المبشَّرين بالجنة الأتقياء البررة وعن أمهات المؤمنين زوجات النبي الطاهرات النقيات المبرآت، وعن أهل البيت الأصفياء الأجلاء وعن سائر الأولياء وعباد الله الصالحين.

ولله الفَضلُ والمِنَّةُ أنْ هدانا لهذا الحقّ الذي عليه الأشاعِرة والماتريدية وكلِّ الأمة الإسلامية، والحمد لله ربّ العالمين.

نُبْذَة تعريفِيَّة
بالشّيخ الدُّكتور جَمِيل حَلِيم

بقلم النّاشِر

هو السيّد الشريف رئيس جمعية المشايخ الصوفية الشيخ الدكتور عماد الدين أبو الفضل جميل بن محمد علي حليم، الحسينيُّ الأشعري الشافعي الرفاعي القادريّ.

تلقَّى العلوم والطرق عند علَّامة العصر وقدوة المحققين الحافظ الشيخ عبد الله بن محمد الهرري الشيبي العبدري ولزمه وصحبه واستفاد منه زمانًا طويلًا وكان يعيد دروسه وإملاءاته في كثير من مجالسه العامة والخاصة بطلبٍ منه رضي الله عنه، وقرأ وسمع وحضر في علومٍ شتّى على كثيرٍ من العلماء والفقهاء والمحدّثين من مشاهير البلاد كمكة والمدينة وجدة ولبنان وسوريا والعراق ومصر وأندنوسيا وتركيا والمغرب واليمن والحبشة وغيرها، وأجازه كثيرٌ من العلماءِ والمحدِّثين والمشايخ في مختلف البلاد إجازةً عامةً مطلقةً وخاصَّة بكل ما تجوز لهم روايته وفي الطرق والإرشاد والتسليك وإقامة الختم والحضرة وتلقِين الأوراد.

وقد حاز الشيخ جميل على شهادتي دكتوراه، الأولى من الجامعة العالمية في لبنان تحت عنوان «السُّقوط الكبير المُدَوِّي للمُجَسِّم ابن تَيمِيةَ الحرَّاني» بتقديرٍ ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى، والأخرى من جامعة مولاي إسماعيل بالمغرب تحت عنوان «التأويل في علم الكلام وضوابطه عند أهل السنة والجماعة» وذلك بتقدير مشَرِّف جدًّا.

وقد أولَى الشيخ جميل اهتمامه العلم والمطالعة وتأليفِ الكتب وتحقيق مصنَّفات العلماء في مكتبته «المكتبة الأشعرية العبدرية» في بيروت وقد حَوَت

ءالاف الكتب المطبوعة والمخطوطة النادرة في علوم وفنون شتى بالإضافة إلى نشاطاته الواسعة وممارسته الخطابة في المساجد وإلقاء المحاضرات والمشاركة في المؤتمرات في لبنان والخارج والمحاضرات في بعض الجامعات ومشاركة الناس في أفراحهم وأتراحهم، واستقباله المشايخ وطلبة العلم وعموم الناس. ولم ينكفئ عن خدمة الناس ومخالطتهم لنشر الدين والدعوة والعلم. وقد بلغت مؤلفاته ومصنَّفاته وتحقيقاته لبعض الكتب فوق المائتي كتابٍ إلى الآن.

وقد قرأ وسمع على العلماء والمشايخ وحصَّل تلقّيًا أكثر من ثلاثمائة كتاب في كل الفنون والعلوم ولله الفضل والحمد والمِنّة ولا زال إلى اليوم بعونٍ من الله وتوفيقٍ وتسديدٍ قائمًا على الخطابة في المساجد والتدريس وإلقاء محاضرات في المساجد والجامعات والمعاهد وفي مناسبات الناس العامة كالجنائز والتعازي والأعراس جوَّالًا على المحافظات والبلاد بذلك، كما وأنه شارك وحضر في كثيرٍ من المؤتمرات والمهرجانات والاحتفالات في كثيرٍ من الدول والبلاد بطلب ودعوة من أهلها، وله العديد من المقابلات واللقاءات في عدد من وسائل الإعلام كالتلفزيون والإذاعة والمجلَّات والصحف، وهو دكتور أستاذ محاضر في الجامعة العالمية في لبنان، كما وأنه يعقد مجالس الإقراء والإسماع في الأحاديث المسلسلة وكتب الحديث الشريف كالكتب السبعة وغيرها من أمَّهات الكتب من العقائد والأحكام والفقه والتَّصوف وهو أوَّل من أقْرَأَ صحيحي البخاري ومسلم في لبنان من تلاميذ الحافظ الهرري، وقد أقْرَأَ إلى الآن العشرات من الكتب والمؤلَّفات الّتي حضر فيها الجمّ الغفير من المشايخ والدُّعاة والأساتذة والدَّكاترة ومعلِّمي ومعلماتِ المعاهد والمدارس وخطباء المساجد وطلَّاب الكليَّات والمعاهد الشرعيَّة، وبعض هذه المجالس تبث مباشرة على مواقع التواصل وصفحات الفايسبوك وبعض هذه المجالس والمحاضرات شاهدَها قريبٌ مِن ثلاثةِ ملايين مشاهِد.

كما وقد راسَله وهاتفه وكاتبه وشافهه عدد كبير من المشايخ والدكاترة والدّعاة والأساتذة والفقهاء والمحدثين لطلب وأخذ الإجازة منه، وإجازاته من كل بقاع الدنيا قاربت الألف إجازة بعضها مذكور ومفصَّلٌ في ثبته الموسوم بـ«جمع اليواقيت الغوالي من أسانيد الشيخ جميل حليم العوالي»، وقد طبع مرات ومعظم إجازاته وأكثرها التي جاءت بالمئات في ثبته الكبير المسمَّى بـ«المجد والمعالي من أسانيد الشيخ جميل حليم الغوالي».

هذا وقد خصَّهُ بعض العلماء وأحفاد رسول الله ﷺ من الأُسَر الشريفة المشهورة وأصحاب الطرق من بلادٍ عدة بآثارٍ من ءاثار رسول الله محمَّد، فحفظها في «الخزينة الحليمية». وفي كل عام يتبرك عشرات الآلاف من المسلمين في مختلف البلاد ببعض هذه الآثار الزكيّة المباركة العطرة، وقد حصل بذلك خيرٌ عظيم جسيمٌ كبير من دخول بعض النَّاس في الإسلام وظهرت حالات شفائيَّة سريعة وظاهرة جدًا حتى جُمِع بعضُها في كتابٍ طبع مرات وهو «أسرار الآثار النبويَّة أدِلّة شرعِيّة وحالات شِفائيّة» ولله الحمد والفضل والثناء والمنة والشكر الجزيل على ما أسدَى من الفضل العميم وصلى الله وسلَّم على سيدنا محمَّد وعلى كل النبيّين والمرسَلين وءالِ كلٍّ وصَحب كلٍّ وسائر عباد الله الصالحين[1].

بيروت، الخميس ٢٩ المحرَّم ١٤٤٢هـ
الموافِق ١٧ أيلول ٢٠٢٠ر

(١) للتواصل مع المؤلف راجع ما يلي: +٩٦١٣٦٧٣٩٤٦ / +٩٦١٣٠٠٨٠٧٨
: info@sheikhjamilhalim.com
sheikhjamilhalim@gmail.com

نَسَبُ الشّيخ الدُّكتور جَمِيل حَلِيم إِلَى رَسُولِ الله ﷺ

هو السيد الشريف الحسيب النسيب الشيخ الدكتور عماد الدين أبو محمد جميل بن محمد الأشعري الشافعي الحسيني الرفاعي القادري ابن السيد محمد ابن السيد عبد الحليم ابن السيد قاسم ابن السيد أحمد ابن السيد قاسم ابن السيد عبد الكريم ابن السيد عبد القادر ابن السيد علي ابن السيد محمد ابن السيد ياسين ابن السيد إسماعيل ابن السيد حسين ابن السيد محمد ابن السيد إبراهيم ابن السيد عمر ابن السيد حسن ابن السيد حسين ابن السيد بلال ابن السيد هارون ابن السيد علي ابن السيد علي أبي شجاع ابن السيد عيسى ابن السيد محمد ابن أبي طالب ابن السيد محمد ابن السيد جعفر ابن السيد الحسن أبي محمد ابن السيد عيسى الرومي ابن السيد محمد الأزرق ابن السيد أبي الحسن الأكبر عيسى النقيب ابن السيد محمد ابن السيد علي العريضي ابن الإمام جعفر الصادق ابن الإمام محمد الباقر بن الإمام السجاد علي زين العابدين ابن الإمام السبط السعيد الشهيد الحسين ابن السيدة الجليلة الزكية الطاهرة فاطمة البتول زوجة أمير المؤمنين أسد الله الغالب علي ابن أبي طالب عليه السلام وابنة رسول رب العالمين خاتم النبيين والمرسلين محمد صلوات الله وسلامه عليه إلى يوم الدين[1].

(١) وهذا نسبٌ شريفٌ صحيحٌ بلا مِرْيَةٍ مضبوط في كتاب جامع الدّرر البهيّة بأنساب القرشيّين في البلاد الشّاميّة، جمع الدكتور الشّريف كمال الحوت الحسيني، شركة دار المشاريع الطبعة الثانية (ص٣٣٢، ٣٣٣) تاريخ ٢٠٠٦ر - ١٤٢٧هـ، وفي كتاب غاية الاختصار في أنساب السادة الأطهار، ويليه المستدرك الطبعة الثالثة (ص١) ١٤٣٤هـ - ٢٠١٠م، وفي كتاب الحقائق الجليّة في نسب السّادة العريضية (ص٤٣٣، ٤٣٤) كلاهما للدكتور الوليد العريضي الحسيني البغدادي.

ترجمة الناظم رحمه الله

اسمه ونسَبه:

هو شيخ قراء مكة السيّد الشريف الشيخ أبو الفوز أحمد بن محمد ابن السيد رمضان بن منصور بن السيّد محمد بن شمس الدين ابن السيّد رئيس بن السيّد زين الدين بن ناصب الدين بن ناصر الدين ابن محمد بن قاسم بن محمد بن رئيس إبراهيم بن محمد بن السيّد مرزوق الكفافي بن السيّد موسى بن عبد الله المحض[1] بن الإمام حسن المثنّى ابن الإمام الحسن بن الإمام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه[2].

والشيخ أحمد المرزوقي هو شريف منسوب حَسَنِيّ مِن جهة أبيه حُسَينِيّ مِن جهة أُمِّه، مالِكِيّ المذهب ومفتي المالكيّة بمكّة المكرّمة. والمرزوقي نسبة إلى العارف بالله مرزوق الكفافي، الذي ورَدَ في باطِن النَّسَب ءانِفًا.

حياته:

ولد الشيخ أحمد المرزوقي بسنباط في مصر سنة **١٢٠٥**هـ، وكنّاه الشيخ أبو الإقبال محمد بن وفا بإبي الفوز ولقّبه بالمرزوقي نِسبة إلى جَدِّه الإمام مرزوق الكفافي دَفِين كفافة على شاطئ البحر المالح بأرض الحجاز.

قرأ المرزوقي القرءان وحفظه كعادة أبناء زمانه، ثم قرأ القراءات العشر على كبار قرّاء ذلك الوقت، ورَحَل إلى مكّة المكرّمة فعُيِّن مُفْتِيًّا للمالكية بها بعد وفاة أخيه السيّد محمد سنة **١٢٦١**هـ، وقد نشط في

(١) سُمِّيَ المحضَ لأنّ أباه الحسَنُ بنُ الحسَنِ وأُمّه فاطمةُ بنتُ الحُسَين.
(٢) المختصر من كتاب نشر النُّور والزُّهَر، عبد الله مرداد، (ص/ ١١٤).

تدريس تلاوة القرءان الكريم والتفسير والعلوم الشرعية في المسجد الحرام بجوار مقام المالكية، حتّى إنه كان يُقرِئ في تفسير البيضاوي في أواخر أيّام حياته.

شيوخه:

كان للشيخ أحمد المرزقي مشايخ في مصر، ومشايخ بمكّة المكرّمة كما هي عادة الذين يقصِدونها ويُجاوِرون بها، ومِن أشهر هؤلاء:

- الشيخ القارئ إبراهيم بن بدوي العبيدي شيخ القراء المصريين في زمانه والمتوفّى بعد سنة **١٢٣٧**هـ، وكان الشيخ أحمد المرزوقي قد تلقَّى عليه القراءات والتلاوة.

- الشيخ أبو الأنوار شمس الدين محمد بن عبد الرحمن الوفائيّ المغربي الأصل المصري الدار المالكي المذهب، شيخ السادة الوفائية بمصر في وقته، المتوفى سنة **١٢٢٨**هـ.

تلاميذه:

كان للشيخ أحمد المرزوقي عِدّة مِن التلاميذ الذين برَعوا في العلم وذاع صيتُهم في علم القراءات والنحو والفقه والسيرة وغير ذلك، شُهِرَ منهم:

- الشيخ القارئ أحمد بن محمد بن الطاهر المراكشي دفين المدينة المنورة سنة **١٢٨٧**هـ.

- الشيخ أحمد بن علي بن محمد الحلواني الكبير الشافعيّ الرفاعيّ الأشعريّ المتوفّى سنة **١٣٠٧**هـ، شيخ قراء بلاد الشام وعليه مدار إسناد أهلها.

- الشيخ القارئ المتقِن أحمد بن خالد دهمان الشافعي الدمشقيّ دفين دمشق سنة **١٣٤٥**هـ.

- الشيخ أحمد زَيْني بن أحمد دَحْلان الحسنيّ الأشعريّ، إمام

الحرمين ومفتي الشافعية وفقيههم في عصره أواخِرَ عهد الدولة العثمانية. وقد عُرِف بفضحه للوهابيّة في كتاب «فتنة الوهابية» وكتاب «الدرر السَنِيّة في الرد على الوهابية". توفّي رحمه الله سنة **١٣٠٤**هـ في المدينة المنوّرة ودُفِن بها.

مصنّفاته:

تَرَك السيّد أحمد المرزوقي مؤلَّفات نافعة في علوم شَتّى، وقد عُرِف مِنها:

١- «**عقيدة العوامّ**»: وهي أرجوزة نافعة في علم العقيدة يَسهل على العوامّ فهمها وعلى الراغبين حِفظها، تتألف من سبعة وخمسين بيتًا، وهي متن هذا الكتاب الذي نحن بصَدَد شرحِه.

٢- «**تحصيل نَيل المرام بشرح عقيدة العوام**»: وهو شرح عَمِله على منظومة «عقيدة العوامّ» له.

٣- «**بلوغ المرام لبيان ألفاظ مولد سيد الأنام**»: وهو شرح على قصة المولد النبويّ الشريف للشيخ أحمد بن قاسم المالكي الشهير بالحريري[١].

٤- «**بيان الأصل في لفظة بافضل**»: وهي رسالة ألَّفها لبيان ما يتعلَّق بلفظة «بافضل».

٥- «**تسهيل الأذهان على متن تقويم اللسان**»: وهو شرح على متن «تقويم اللسان» في النحو للخوارزميّ البقالي.

٦- «**الفوائد المرزوقية في شرح الآجُرُّوميّة**»: وهو شرح وضعه على

(١) وقد طُبِع هذا الشرح للسيّد المرزوقي بمطبعة بولاق / الأميرية بمصر سنة ١٢٨٦هـ و١٢٩١هـ.

«متن الآجُرُّوميّة» في النحو للإمام ابن ءاجُرُّوم.

٧- «**منظومة في قواعد الصرف والنحو**»: ولم يُترَجم لها باسم خاصّ ولا وجدتُ شيئًا عنها إلا أنّه ثبت عنه وجود منظومة له في هذا الفنّ[١].

٨- «**منظومة في علم الفلك**»: وقد شرَحَه أخوه السيّد محمَّد مفتي المالكيّة بمكّة قبل تعيين السيّد أحمد، فأتى الشرح لطِيفًا يسيرًا.

٩- «**منظومة في عصمة الأنبياء**»: وقد ذكرت بعض المصادر أنّها طُبِعَت[٢]، وقد فَرَغ السيّد أحمد مِن نَظْمها سنة **١٢٥٨**هـ[٣].

وفاتُه:

لم يُعَقِّب السيّد أحمد المرزوقيّ إلا ابنة واحدةً هي جَدّةٌ لبعض جماعات بيت السيّد الكتبي[٤]، وقد اختلَفَت المصادر في تاريخ وفاة السيّد أحمد، فذهب جماعة إلى أنّه كان حيًّا سنة **١٢٨١**هـ، وذهب صاحب «مختصر نشر النُّور والزُّهَر» إلى أنّ السيّد أحمد المرزوقي توفّي سنة **١٢٦٢**هـ، وأنّه دُفِن بمكّة بالْمَعَلاّة رحمه الله تعالَى، وأمّا ما يقال من أنّه دُفِن في لبنان في بلدة «مجدل معوش» في قضاء الشوف فلا يصحّ، لِمَا نُقِل من الاتّفاق على وفاته بمكّة ودَفْنِه بالْمَعَلاّة، وأمّا الذي قبرُه في «مجدل معوش» ويُقصَد للزيارة فهو قبر السيّد عليّ بن مَيمُون المغربيّ الأندلسيّ المتوفَّى سنة **٩١٧** هـ[٥].

(١) انظر: المختصر من كتاب نشر النُّور والزُّهَر، عبد الله مرداد، (ص/ ١١٤).
(٢) انظر: الأعلام، الزركلي، (١/ ٢٤٧).
(٣) انظر: معجم المطبوعات العربية والمعَرَّبة، يوسف سركيس، (٢/ ١٧٣٢).
(٤) انظر: المختصر من كتاب نشر النُّور والزُّهَر، عبد الله مرداد، (ص/ ١١٤).
(٥) انظر: الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، نجم الدين محمد الغَزّي، (١/ ٢٧٧).

مقدَّمة النّظم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال الشيخ السيّد الشريف أبو الفوز أحمد بن محمد بن السيد رمضان المرزوقي المالكي رحمه الله:

١- أَبْدَأُ بِاسْمِ اللهِ وَالرَّحْمنِ وَبِالرَّحِيمِ دَائِمِ الإِحْسَانِ

الكلام على البسملة

(أَبْدَأُ) نظمي هذا متبركًا **(بِسْمِ اللهِ)** ومتأسِّيًا بالقرءان العظيم، فأول ءاية من الفاتحة البسملة، والفاتحة أول سورة في القرءان ترتيبًا لا نزولًا، وحكم البسملة هذا - أي كونها ءايةً من كتاب الله العظيم- هو كذلك عند الشافعي وأحمد وإسحاق وأبي عبيد وجماعة أهل الكوفة ومكة وأكثر العراقيين، وحكاه الخطابي عن أبي هريرة وسعيد بن جُبَير، ورواه البيهقي في الخلافيات بإسناده عن عليّ بن أبي طالب والزهري وسفيان الثوري، وذهب ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وطاووسٌ وعطاء ومكحول وابن المبارك وغيرهم إلى أنّ البسملة ءاية من الفاتحة ومن أوّل كل سورة غير براءة، وذهب أبو حنيفة ومالك والأوزاعي وداود الظاهري إلى أنها ليست ءاية في الفاتحة ولا في أوائل غيرها من السور ويحكى ذلك رواية عن أحمد أيضًا، فمَن نفَى كون البسملة ءاية من أوّل الفاتحة لا يُبَدَّع ولا يُفَسَّق إن لم يكن عن فتوى بغير علم، وأما البسملة التي في أثناء سورة النمل في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ فهي جزء من ءاية، وكان النبي ﷺ في أول الأمر قبل نزول البسملة يُصَدِّر كتابه: «باسمك اللهمَّ»، حتى نزلت ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا﴾ فكتب «بسم الله»، حتى نزلت: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟

ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ فكتب «بسم الله الرحمن»، حتى نزلت: فكتبها.

ولفظ الجلالة «الله» علمٌ للذات المقدس الموصوف بالإلهية وهي القدرة على الاختراع أي إبراز المعدوم إلى الوجود وهذا معنى الخلق الذي هو خاصٌ بالله، ولفظ الجلالة هو اسم الله الأعظمُ المفرد بالإجماع، وهو مرتجَلٌ ليس مشتقًا من فعل ماض ولا من مصدر كما نقل ذلك الفيروزءابادي في القاموس وابن يعيشَ النحوي وعزاه إلى سيبويه، ولفظ الجلالة لا شك أجمل وأحلى لفظ في العربية. قال مُحِبُّ الدين الحلبي المعروف بناظِر الجيش في كتابه «تمهيد القواعد بتسهيل الفوائد» ما نصُّه: «ومِن الأعلام التي قارن وضعها وجود الألف واللام «الله» تعالى المنفرد به، وليس أصله الإله كما زعم الأكثرون» اهـ.

واختُلِف في الباء من «بسم الله» فقيل: زائدة فلا تتعلق بشيء، وعليه يكون «اسم» مبتدأ مرفوع تقديرًا وخبره محذوف تقديره «اسم الله مُبتَدَأٌ به» أو «مُسْتَعَانٌ به» أو نحو ذلك، وذهب ءاخَرون إلى أنّ الباء أصلية متعلقة بمحذوف يصح كونه اسمًا أو فعلًا، خاصًّا أو عامًّا، مُقَدَّمًا أو مُؤَخَّرًا.

من أسماء الله: الرحمن والرحيم

(وَ)أبتدِئُ متبركًا بذِكر (**الرَّحْمنِ وَبِالرَّحِيم**) وهما اسمان مِن أسماء الله الدالّة على الكمال اللائق بذاته عزّ وجلّ، ولفظ «الرحمن» أبلغ من «الرحيم» لأن فيه زيادة بناء، وزيادة البِنية في الكلمة تدل على زيادة المعنى غالبًا، كما في قَطَعَ وقَطَّعَ، وقد يقع في غير الغالب أن يفيد ناقص البناء معنًى أكثر مما يفيده زائده كحاذِر وحَذِر، فإنَّ حَذِر أبلغ من حَاذِر. ومعنى الرحمن ذو الرحمة الشاملة التي وسعت الخلق في أرزاقهم وأسباب معايشهم ومصالحهم، قاله الخطابي. ومعنى الرحيم الكثير الرحمة للمؤمنين، أي خص المؤمنين بالرحمة في الدنيا والآخرة، وهو تعالى المنعم بدقائق النعم.

والرحمن من أسماء الله الخاصة التي لا يجوز إطلاقها على غيره سواء كان معرفا بـ«أل» أو لا. وأما لفظ «الرحيم» فيجوز استعماله معرفًا ومُنْكَرًا في حقّ مخلوق لا على أن لله اسمًا يشترك فيه معه خلقه، حاشا لله، وإنما ذلك اتفاق لفظي، فإذا أطلق «الرحيم» على الله كان له المعنى المذكور سابقًا، وإذا أطلق على مخلوق فهم من ذلك الانفعال والإحساس وغيرهما من الأعراض التي تحصل للبشر وغيرهم عند الداعية لذلك، والله تعالى منزه عن ذلك كله. فوصف الله تعالى بأنه ذو الرحمة محمول على ما ورد في نصوص الشرع موافقا لعقائد المسلمين في الله فيما يجوز على الله ويستحيل عليه، فإذا سمع أهل الإيمان أو أطلقوا وَصْفَيِ الرحمن والرحيم على الله لم يَفهموا منه حصول الانفعال المعهود عندهم في تراحم البشر لأن تلك هي عقيدة المسلمين وأدلة تنزيه الله تعالى عن الأعراض كثيرة عقلًا وشرعًا كذلك. وأما الدليل على جواز استعمال «الرحيم» في حق المخلوق

قوله تعالى في حق أشرف خلقه محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، وصدق الله العظيم.

وأستَعِين على شرحي هذا، كما استعان الناظم مِن قبلي، بالله الرَّحمن الرحيم **(دَائِمِ الإِحْسَانِ)** الذي عَمَّ إحسانه الخلائق كلهم. وقد فسَّر بعضهم اسم الله الرَّحيم بأنّه العظيم الرحمة الدائم الإِحسان.

٢- فَالحَمْدُ للهِ القَدِيْمِ الأَوَّلِ الآخِرِ البَاقِيْ بِلا تَحَوُّلِ

الحمد والشكر ومعانيهما

(فالحمد) لغة الثناء والمدح باللسان على الجميل الاختياري على جهة التبجيل والتعظيم، والحمد **(لله)** هو عرفا فعل ينبئ عن تعظيم الله المنعم المستحق لنهاية التعظيم وغاية الإجلال. وخرج باللسان الثناء بغيره كالحمد النفسي، وبالجميل الثناء باللسان على غير الجميل. ثم إنه بَيْنَ الشكر اللغوي والحمد العرفي ترادف، وبين الحمد والشكر اللغويين عمومٌ وخصوصٌ، فهما يجتمعان في ثناء بلسان في مقابلة إحسان، وينفرد الحمد اللغوي في ثناء بلسان لا في مقابلة إحسان، وينفرد الشكر اللغوي في ثناء بغير لسان في مقابلة إحسان، كذا نقله الشرواني في حاشيته على شرح المنهاج.

وقد روى أبو نعيم في الحلية والطبراني في الدعاء من الحديث الموقوف على ابن عباس رضي الله عنه قال: «**وَمَنْ قَالَ الحَمْدُ للهِ فَقَدْ شَكَرَ اللهَ**» أي الشُكرَ المندوب، لأن الشكر قسمان: شكر واجب وشكر مندوب.

فالواجب هو ما على العبد من العمل الذي يدل على تعظيم المنعم الذي أنعم عليه وعلى غيره بترك العصيان لله تبارك وتعالى في ذلك، وبعبارة أخرى: الشكر لله على النعم هو بمعنى عدم استعمال هذه النعمة في معصية الله. فمن حفظ قلبه وجوارحه وما أنعم الله به عليه

من استعمال شيء من ذلك في معصية الله فهو العبد الشاكر، ثم إذا بالغ في ذلك وتمكن من استعمال نعم الله تعالى فيما أحل الله دون عصيان فصار تقيًّا سمي عبدًا شكورًا، قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ معناه أغلب الناس ليسوا أتقياء.

وأمّا الشّكر المندوب فهو الثّناء على الله تعالى الدّالّ على أنّه هو المتفضل على العباد بالنعم الّتي أنعم بها عليهم ممّا لا يدخل تحت إحصائهم لها.

وأمّا التلفُّظ بالحمد لله فمنه ما هو واجب في حال، ومثال ذلك في حقّ خطيب الجمعة إذْ حمد الله من أركان خطبة الجمعة التي لا تصح الخطبة بدونه، ومنه ما هو مندوب كما سَبَق في الشكر، ومنه ما هو مكروه في حالة مخصوصة كمن عطس أثناء خروج الخارِج منه، فإنَّ ذِكْرَ اسمِ الله باللِّسان مكروه في هذه الحالة لأجل كراهة ذِكر اسم الله عند خروج البول أو الغائط، أمّا عند خروج الريح من الماشي مثلًا فلا بأس ولا يُكرَه ذِكر الله عندئذ، ومن الحمد اللفظي ما هو حرام كأن كان شخص يلعب بالأوراق المزوَّقة المعروفة بأوراق الشَدَّة (Cards) فلما ربح بزعمه قال: «الحمد لله» فهذا عليه ذنب كبير.

وقد قال العلماء: يُستحبّ البداءة بالحمد للَّه لكل مصنف، ودارس، ومدرِّس، وخطيب، وخاطب، وبين يدي سائر الأمور المهمة.

وقال الشافعي رضي الله عنه: «أُحِبّ أن يقدّم المرء بين يدي خطبته وكل أمر طلبه: حمد الله تعالى، والثناء عليه سبحانه وتعالى، والصلاة على رسول الله ﷺ» اهـ.

وقال الحافظ النوويّ: «اعلم أن الحمدَ مستحبٌّ في ابتداء كل أمر ذي بال كما سبق، كما يستحب بعد الفراغ من الطعام والشراب، والعطاس، وعند خطبة المرأة - وهو طلب زواجها - وكذا عند عَقْدِ النِّكَاح، وبعد الخروج من الخلاء، وسيأتي بيان هذه المواضع في

أبوابها بدلائلها، وتفريع مسائلها إن شاء الله تعالى، وقد سبق بيان ما يُقال بعد الخروج من الخلاء في بابه، ويُستحبّ في ابتداء الكتب المصنفة كما سبق، وكذا في ابتداء دروس المدرّسين، وقراءة الطالبين، سواء قرأ حديثًا أو فقهًا أو غيرهما، وأحسنُ العبارات في ذلك: الحمد لله رب العالمين. ويُستحبّ حمدُ الله تعالى عند حصول نعمة، أو اندفاع مكروه، سواء حصل ذلك لنفسه، أو لصاحبه، أو للمسلمين» اهـ.

جوازُ إطلاقِ القديمِ على الله بمعنى أنَّه لا أَوَّلَ له

تَسْمِية اللهِ بـ(**القَدِيم**) جائز شرعًا كما دلّ عليه نصّ الحديث النبويّ وإجماع الأمّة المحمَّديّة وسأبيّنُه إن شاء الله فيما يأتي. والقِدم وصفٌ لله أزليٌّ أبديٌّ، وإطلاق «القديم» على الله هو على معنى أنّه لم يسبق وجودَه عدم ولا يراد بذلك التقادم الزماني، كما أنّه لا يجوز إطلاق القديم بمعنى الأزليّ الذي لا ابتداء له على العالم جِنْسًا وأفرَادًا، وقد خالف في ذلك كثير من الفلاسفة وتبعهم ابن تيمية الحراني وقد شذ عن هذا الحق بعض الفلاسفة القدامى كإِرَسْطُو القائل بقدم العالم نوعًا وأفرادًا، والمحْدَثين منهم كابن سينا والفارابي القائلين بأزلية نوع العالم ومادته لا أفراده.

وقد تبعهم بعض من يدعي الحِذْق في المعقولات كابن تيمية الحرّاني شيخ المجسِّمة المشبِّهة، فالنَّاظر إلى فهرست كتابه المسمى منهاج السنة النبوية يَظُنُّ أنه من أشد المخاصمين للقائلين بأزليّة العالم، وتراه في طيّات هذا الكتاب وغيره عاكفًا على نقد مذاهبهم والرد على شبهاتهم ودحض أوهام ابن سينا وكشف ضعف حجج ديمقريطس والرازي الفلسفيّ، مع أنه هو نفسه له في كتبه في مواضع متعددة القولُ بأزلية العالم جِنسًا، وقد طَبَع هذه الكتب أتباعه وأحبابه ولم يزيلوا منها زيغه

وضلاله، وها أنا أذكر منها تسعة:

١- قال في كتابه المسمى «منهاج السنة النبوية» ما نصه: «وامتناع حوادث لا أول لها طريقة مبتدعة في الشرع باتفاق أهل العلم بالسنة، وطريقة مخطرة مخوفة في العقل بل مذمومة عند طوائف كثيرة» اهـ.

٢- وقال في نفس الكتاب أيضًا ما نصه: «فإن قلتم لنا: قد قلتم بقيام الحوادث بالرب، قلنا لكم: نعم، وهذا قولنا الذي دل عليه الشرع والعقل» اهـ.

٣- وقال فيه أيضا: «وإن جاز أن يكون نوع الحوادث دائمًا لم يزل، فإن الأزل ليس هو عبارة عن شيء محدد، بل ما من وقت يقدر إلا وقبله وقت ءاخر، فلا يلزم من دوام النوع قدم شيء بعينه» اهـ.

٤- وقال فيه أيضا: «ومنهم من يقول: هو (أي الخلق) يقع بمشيئته وقدرته شيئًا فشيئًا لكنه لم يزل متصِفًا به، فهو (أي الخلق) حادث الآحاد قديم النوع، كما يقول ذلك من يقوله من أئمة أصحاب الحديث وغيرهم من أصحاب الشافعي وأحمد وسائر الطوائف» اهـ.

فانظروا كيف افترى كعادته هذه المقولة الخبيثة على أئمة الحديث، وما قوله هذا إلا شيء وافق به متأخري الفلاسفة الملحدين، لكنه تقول على أئمة الحديث والفقهاء من أصحاب الشافعي وأحمد وغيرهم ترويجًا لعقيدته على ضعاف الأفهام.

٥- وقال في كتابه المسمى «موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول» (أو درء تعارض العقل والنقل) ما نصه: «وأما أكثر أهل الحديث ومن وافقهم فإنهم لا يجعلون النوع حادثًا بل قديمًا، ويفرقون بين حدوث النوع وحدوث الفرد من أفراده» اهـ.

٦- وقال فيه أيضا: «قلت: هذه من نمط الذي قبله، فإن الأزلي هو

نوع الحادث لا عين الحادث» اهـ.

٧- وقال فيه أيضا: «فمن أين في القرءان ما يدل دلالة ظاهرة على أن كل متحرك محدث أو ممكن، وأن الحركة لا تقوم إلا بحادث أو ممكن، وأن ما قامت به الحوادث لم يخل منها، وأن ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث، وأين في القرءان امتناع حوادث لا أول لها» اهـ.

٨- وفي كتابه المسمى نقد مراتب الإجماع (الذي انتقد فيه كتاب ابن حزم المسمى «مراتب الإجماع») قال ما نصه: «وأعجب من ذلك حكايته (أي ابن حزم) الإجماع على كفر من نازع أنه سبحانه لم يزل وحده ولا شيء غيره معه، ثم خلق الأشياء كما شاء» اهـ.

٩- وقال في مجموع فتاويه عند شرح حديث عمران بن حصين ما نصه: «وإن قدر أن نوعها لم يزل معه فهذه المعية لم ينفها شرع ولا عقل بل هي من كماله قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ والخلق لا يزالون معه» اهـ.

ثم إنّ إطلاق القِدَم على الله عزّ وجلّ بمعنى أنّه لا بداية له ولا أوّل لنا عليه استدلالات كثيرة، منها:

١٠- **من الحديث النبوي الثابت**: ما رواه ابن عساكر عن سيدنا علي رضي الله عنه أن الحسن والحسين أصيبا بالعين فمرضا فاكتأب رسول الله ﷺ مما أصابهما فجاءه جبريل فقال له: يا محمد إني أراك مكتئبًا، فقال: «**إن الحسن والحسين مصابان**»، وفي رواية: «**الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ أَصَابَتْهُمَا عَيْنٌ**» فقال له: عَوِّذْهما، فقال له رسول الله ﷺ: «**بِمَ أعوذهما**» فقال له: قل «اللهم ذا السلطان العظيم والمن القديم، ذا الرحمة الكريم، وَلِيَّ الكلمات التامات والدعوات المستجابات عافِ حسنًا وحسينًا من أنفس الجن وأعين الإنس»، وفي رواية: «ذَا السُّلْطَانِ

الْعَظِيم، ذَا الْمَنِّ الْقَدِيمِ» الخ، فرقاهما رسول الله بما علمه جبريل من هذا التعويذ فقاما يلعبان ما بهما شيء. ومعنى «المنّ القديم» أي الإحسان القديم لأن إحسان الله تعالى قديم أزلي فهو صفة من صفاته عند الماتريدية، فالله تعالى محسن أزلًا وأبدًا ولو لم يكن في الأزل مخلوق يصيبه أثر الإحسان بعد وجوده هذا على مذهب الماتريدية، أما عند الأشاعرة فإحسان الله أثر إرادة الإنعام.

٢- **من إجماع الأمّة**: فقد قال خاتمة اللغويين الحافظ الفقيه السيد محمد مرتضى الزبيدي الحنفي في كتاب الإتحاف ما نصه: «قد أجمعت الأمة على وصفه تعالى به - أي بالقديم - وورد ذكره في بعض الأخبار التي ذكرت فيها الأسماء الحسنى ودل عليه من القرءان قوله عز وجل: والخبر الذي ورد فيه ذكره هو ما أخبر به الشيخ المسند الجليل عمر بن أحمد بن عقيل» ثم ذكر السند بطوله موصولًا إلى «محمد بن سيرين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها كلها دخل الجنة**» فساقها وذكر فيها بعد الفتاح القديم» اهـ.

وقد طعن بعض الباحثين العصريين في كلام الزبيدي كما طعنوا في إسناد هذا الحديث ورواته بهذا اللفظ من هذا الطريق. فأما الطعن في قول الزبيدي ونقله الإجماع فلا عبرة به لأن الزبيدي أعلم من أولئك العصريين الذين لا يبلغ علمهم مبلغًا إلا ما في الكتب المطبوعة، لا يميز لهم التحريف من التصحيف والدس، والحافظ الزبيدي هو لغوي نحوي محدث أصولي أديب ناظم ناثر مؤرخ نسابة علامة بالرجال مشارك في عدة علوم، جزاه الله عنا وعن المسلمين خيرًا.

وقد سبقه إلى نقل الإجماع شهاب الدين بن قاوان الكيلاني الشافعي (ت ٨٨٩هـ) في شرحه على العضدية فقال ما نصه: «فإن قيل كيف يصح إطلاق الموجود والواجب الوجود والقديم ونحو ذلك مما لم يرد

به الشرع؟ قلنا: بالإجماع، وهو من الأدلة الشرعية» اهـ. ونقل الإجماع أيضًا الحافظ ابن القطان الفاسي في كتابه «الإقناع في مسائل الإجماع».

وأما الحديث الذي طعنوا فيه فقد أسنده الحافظ الزبيدي بتمامه إلى منتهاه ولم يتفرد بروايته هو وحده، بل رواه الحاكم في المستدرك والبيهقي في الاعتقاد والإمام الصوفي أبو سعيد بن الأعرابي المكي - صاحب الجنيد البغدادي - في معجمه وأبو الشيخ الأصبهاني وابن مردويه في تفسيريهما وأبو نعيم في الأسماء الحسنى عن أبي هريرة والأمير الصنعاني في التنوير، والحافظ ابن حجر العسقلاني في الأمالي المطلقة والضياء المقدسي في المنتقى من مسموعات مَرْو والسيوطي في الفتح الكبير وزين الدين العراقي في طرح التثريب وغيرهم. فإن أَبَوْا بعد ذلك إلا الطعن بسند هذا الحديث، فالحديث الآخر الذي ذكر فيه لفظ «**الْمَنّ القَدِيم**» إسناده حسن حتى عند المعاندين منهم، فأين الْمَفَرّ.

فائدة: قال شمس الدِّين القرطبي (ت ٦٧١هـ) في كتاب «الإعلام» ما نصُّه: «معنى القديم: الذي لا أوَّلَ لوجوده، والحادث هو الذي لوجوده أوَّل، والجمع بين نَفْي الأولية وإثبات الأولية محال» اهـ.

مِن أسماء الله تعالى «الأوّلُ»

قد عُلِم جواز إطلاق اسم (**الأَوَّلِ**) على الله تعالَى، بمعنَى أنّه لا بداية لوجوده، مِن النُّصوص الشرعية الثابتة ومن الإجماع.

١- **فمن القرءان الكريم**: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ ومعناه الذي لا بداية لوجوده.

٢- **ومِن الحديث الثابت المرفوع**: ما رواه البخاري وغيره من حديث عِمران بن حصين عن النبيّ ﷺ قال: «**كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ**»، فالمراد بـ«كان» هنا أي في الأزل وليس معه شيء.

وسبب ورود هذا الحديث أن أناسًا من اليمن جاءوا إلى النبي ﷺ

فقالوا: جئناك لنسألك «عن أول هذا الأمر» أي أمر الخلق ومبدأ العالم «ما كان»؟ أي أي شيء كان أول؟ فقال ﷺ: «**كان الله**» أي في الأزل كما هو كائن إلى الأبد، بلا وصف التغير والحدوث على ما هو نعت العباد، فإن ما ثبت قدمه استحال عدمه، وقال: «**ولم يكن شيء غيره**» أي وليس معه غيره، وفي روايةٍ: «**ولم يكن شيء قبله**» أي لأنه خالق كل شيءٍ وموجده، فلا يُتَصَوَّر وجود موجودٍ ممكنٍ قبل الموجد الواجب الوجود، وحاصله أنه تعالى الأول الذي هو قبل كل شيء ولا شيء قبله، وكرر الجواب على طريق السؤال مطابقة في الاهتمام بالحال، وخلاصته أنه أول قديم بلا ابتداءٍ، كما أنه ءاخر دائم بلا انتهاءٍ. قال الطِّيبي رحمه الله: قوله «**ولم يكن شيء قبله**» حال، وعلى مذهب الكوفي خبر، والمعنى يساعده، إذ التقدير: كان الله في الأزل منفردًا، وليس في هذه الرواية حجة لابن تيمية وأتباعه بأن العرش أزلي كائن مع الله وأنه مَقعَد الرحمٰن والعياذ بالله تعالى من الكفر.

وقال الملا علي القاري في «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح»: «ولما كان السؤال عن الأول، فبين لهم الأولية الأزلية ونفى لغيره القبلية ولم يتعرض لمعنى المعية، ولهذا وقع في عبارة السادة الصوفية: «كان الله ولم يكن معه شيء» ثم قالوا: والآن على ما عليه كان» اهـ. فرواية البخاري في أواخر الجامع «**وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ**» تُرَدُّ إلى روايته في كتاب بدء الخلق في الجامع أيضًا وذلك مُتَعَيِّن، ولا يجوز ترجيح رواية «كان الله ولم يكن شيء قبله» على رواية «كان الله ولم يكن شيء غيره» لأجل إثبات أزلية حادثاتٍ كالعرش وغيره كما أَوْمَأ إلى ذلك ابن تيمية، لأن ظاهر رواية «**وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ**» يوافق مذهبه، وهو ثابت عنه كما قال الجلال الدواني في شرح العضدية: «وقد رأيت في بعض تصانيف ابن تيمية القول به - أي بالقدم الجنسي - في العرش» اهـ، أي أنه كان يعتقد أن جنس العرش أزلي لم يزل مع الله ولكن عينه القائم الآن حادث، سبحانك هذا بهتان عظيم. وقال بدر الدين بن جماعة في

إيضاح الدليل: «ومَن تَوَهَّم مِن قوله في الحديث: «**وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**» أن العرش لم يزل مع الله تعالى وهذا باطل، وكذا من زعم من الفلاسفة أن العرش هو الخالق الصانع» اهـ.

قال الفخر الرازي في تفسيره ما نصُّه: «أمّا اللهُ تعالى فليس قبله بالزَّمَان إذ كان الله ولا زمان، والزمان وُجِد مع المتجدد الأول. فإن قيل: فما معنى وجود الله قبل كل شيء غيرِه؟ نقول: معناه كان الله ولم يكن شيء غيره» اهـ.

وقد جاء في الحديث الآخَر المرفوع الذي رواه مسلم في صحيحه وغيرُه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «**أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ**»، وقوله: «**أَنْتَ الأَوَّلُ**» مفيد للحصر لتعريف الخبر باللام، فكأنه قيل: «أنت مختص بالأَوَّلِيَّة المطْلَقَة فليس قَبْلك شيء»، ويفيد أيضًا أنّ ما كان من الحادثات الماء الأوّل ومَا تَبِعه من العرش وغير ذلك ليس له موجِدٌ إلا الله تعالَى.

٣- والإجماع: فقد نقله غير واحد، منهم عضد الدين الإيجي في المواقف حيث قال ما نَصُّه: «وقد أجمعوا على حدوث العالم ووجود البارئ تعالى وأنه لا خالق سواه وأنه قديم» اهـ.

فائدة: قال أبو القاسم الأَصبهانيُّ: «الأَوّل» يُستعمل على أَوجُهٍ:

الأَوّل: المتقدِّم بالزمان، كقولك: عبد الملك أَوّلًا ثم منصورٌ.

الثَّاني: المتقدّم بالرّئاسة في الشيء وكونُ غَيْرِه مُحْتَذِيًا به، نحو الأَمير أَوَّلًا ثُمَّ الوزير.

الثالث: المتقدّم بالوضع والنِسبة، كقولك للخارج من العراق إِلى مكة: القادِسيّة أَوّلًا ثمّ فَيْد[1]، وتقول للخارج من مكَّة: فَيْدٌ أَوّلًا ثمّ القادِسِيّةُ.

(١) مدينة تقع في نصف الطريق بين مكة وبغداد، وهي اليوم واقعة في الجنوب الشرقي من منطقة «**حائل**».

الرّابع: المتقدّم بالنظام الصّناعِيّ، نحو أَن يقال: الأَساس أَوّلًا ثمّ البِناء.

وإذا قيل في صفة الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ فمعناه الَّذي لم يَسْبِقْه في الوجود شيءٌ، وإِلى هذا يَرجع مَن قال: «هو الَّذي لا يحتاج إِلى غيره»، ومَن قال: «هو المستَغْنِي بِنَفْسِه. وقوله: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ و﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ معناه أَنا المقتدَى بي في الإِسلام والإِيمان، ﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ أَي مِّمَن يُقتَدَى بكم في الكُفر، والله أَعلم» اهـ.

مِن أسماء الله تعالى «الآخِر»

قد عُلِم جواز إِطلاق اسم **(الآخِرِ)** على الله تعالَى، بمعنَى أنّه لا نِهاية لذاته ولا لصفاته، مِن النُّصوص الشرعية الثابتة ومن الإِجماع.

١- فمن القرءان الكريم: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ ومعنى «الآخِر» الذي لا بداية لوجوده.

٢- ومِن الحديث الثابت المرفوع: ما رواه مسلم في صحيحه وغيرُه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «**وَأَنْتَ الآخِرُ فليس بَعْدَكَ شيءٌ**» أي لا نهاية لوجود الله عزَّ وجلَّ. ولا مساواة ولا اشتراك ولا مناسبة بين أبديّة الله وأبديّة الجنّة والنّار، لأنّ أبديّة الله ليس غيرُه خصَّصَهُ بها، وأمّا الجنّة والنّار وغيرُهما مِمّا لا يفنى من الحادثات فما ذلك إلا بتخصيص الله وإبقائه لتلك الحادثات إلى ما لا نهاية له.

٣- والإِجماع: قال أبو بكر الكلاباذي في «التَّعَرُّفِ لمذهَب أهل التصوُّف» ما نصُّه: «وأجمعوا على أنه لا تدركه العيون ولا تهجُم عليه الظنون ولا تتغير صفاته ولا تتبدل أسماؤه، لم يزل كذلك ولا يزال كذلك هو الأول والآخر» اهـ.

مِن أسماء الله تعالى «الباقِي»

قد عُلِم مِن النُّصوص الشرعية الثابتة ومن الإجماع جواز إطلاق اسم **(الباقِي)** على الله تعالَى، بمعنَى أنّه المتَّصِف بالبقاء الأبديّ الذي لا ينتهي، وقال الإمام أحمد البيهقي رحمه الله: «الباقي هو الذي دام وجوده، والبقاء له صفة قائمة بذاته، وفي معناه الوارث» اهـ.

قال الآمِديّ في الأبكار: «وقد اتَّفق المتكلِّمُون على جواز إطلاق الباقي على الخالق والمخلوق المستمِرّ الوجود حقيقةً، خلافًا لأبي هاشم فإنه قال: الباقي على الحقيقة إنما هو الله تعالى، وتسمية المخلوق باقيًا مجاز» اهـ. قلتُ: ولا يقال إن تسمية الله الباقي ووصف الجنّة بكونها باقية هو «اشتراك لفظيّ» بل هو اتفاقٌ لفظيّ، فالتعبير بالاشتراك قبيح، فليُتَنَبَّه.

وأمّا الأدلة الشرعية على تسمية الله تعالى بالباقي كثيرة، منها:

١- **من القرءان الكريم**: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ أي ويبقى ذات الله تعالَى ولا يفنى، فالوجه هنا بمعنى الذات. قال الفخر الرازي في «أساس التقديس» ما نصُّه: «فالمراد منه الذات والمقصود من ذِكْرِه التأكيدُ والمبالغة، فإنه يقال: وجه هذا الأمر كذا وكذا، ووجه هذا الدليل هو كذا وكذا، والمراد منه هو نفس ذلك الشيء ونفس ذلك الدليل فكذا» اهـ.

٢- **ومِن الحديث الثابت المرفوع**: فقد روى الترمذي في جامعه وابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن لله تسعةً وتسعين اسمًا مائة إلا واحدًا**» إلى أن قال: «**الباقي**».

٣- **والإجماع**: قد سبق ذِكره في قول أبي بكر الكلاباذي.

الله تعالى لا يطرأ عليه تغيُّر في ذاته ولا صفاته

والله تعالى منزَّه عن التغيّر فهو ذات أزلي أبديّ متّصف بصفات أزليّة أبديّة، فهو سبحانه الباقي (**بِلا تَحَوُّلٍ**) أي بلا تغيُّر ولا تبدُّل، لأنّ التغيّر والتبدُّل مِن علامات الحدوث، والحدوث يدلُّ على العجز والافتقار، ومن كان كذلك لا يكون إلهًا خالقًا، والله تعالَى منزَّه عن ذلك كُلِّه.

وقد قال الباقلّاني في ذلك كلامًا نفيسًا في «الإنصاف» ونصُّه: «إنّه تعالى متقدِّس عن الاختصاص بالجهات، والاتصاف بصفات المحدثات، وكذلك لا يوصف بالتَّحَوُّل والانتقال، ولا القيام والقعود، لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾، ولأنّ هذه الصفات تدل على الحدوث، والله تعالى يَتقدس عن ذلك.

فإن قيل: أليس قد قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾؟ قلنا: بلى، قد قال ذلك، ونحن نطلق ذلك وأمثاله على ما جاء في الكتاب والسنة، لكن ننفي عنه أمارة الحدوث ونقول: استواؤه لا يشبه استواء الخلق، ولا نقول إن العرش له قرار ولا مكان، لأن الله تعالى كان ولا مكان، فلما خلق المكان لم يتغير عمّا كان».

وقال أبو عثمان المغربي يومًا لخادمه محمد المحبوب: لو قال لك قائل: أين معبودك، ماذا كنت تقول له؟ فقال: أقول حيث لم يزل ولا يزول[1]. قال: فإن قال: فأين كان في الأزل، ماذا تقول؟ فقال: أقول حيث هو الآن[2]، يعني: إنه كما كان ولا مكان. وقال أبو عثمان:

(١) أي بلا مكان.

(٢) أي لم يتغيَّر فهو بلا مكان.

كنت أعتقد شيئًا من حديث الجهة، فلما قَدِمْتُ بغداد وزال ذلك عن قلبي كتبت إلى أصحابنا: إني قد أسلمت جديدًا.

وقد سئل الشِّبْلِيُّ عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾، فقال: «الرحمن لم يزل ولا يزول، والعرشُ مُحْدَث، والعَرْشُ بالرحمن استَوَى»[1].

وقال جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «من زعم أن الله تعالى في شيء أو من شيء أو على شيء فقد أشرك، لأنه لو كان على شيء لكان محمولًا، ولو كان في شيء لكان محصورًا، ولو كان من شيء لكان مُحْدَثًا»، والله يتعالى عن جميع ذلك.

وقال بعض أهل التحقيق: «أَلْزِم الكُلَّ[2] الحَدَث، لأن القِدَم له[3]، فهو سبحانه لا يُظِلُّه فوقٌ، ولا يُقِلُّهُ تحتٌ، ولا يقابله حَدٌّ، ولا يُزَاحمه عَدٌّ، ولا يأخذه خَلْفٌ، ولا يَحُده أمامٌ، ولا يُظْهِرُه قَبْلٌ، ولا يُفْنِيه بَعْدٌ، ولا يَجمعه كُلٌّ، ولا يُوجِدُهُ كانَ، ولا يُفْقِدُه لَيْسَ، بَايَنَهُم[4] بِقِدَمِهِ كما بايَنُوه[5] بحدوثهم[6].

إن قُلْتَ متى، فقد سبق الوقتَ كونُه[7]، وإن قلت: أين، فقد تَقَدَّم

(١) أي العرش محفوظ في مكانه ومستقره بقدرة الله تعالى ولم يتَّخِذْهُ مكانًا له لأنّ الله لا يحتاج إلى المكان ولا إلى شيء من خلقه. فمن قال: «**إن الله جالس على العرش**» فهو كافر كالذي يقول: «**لولا العرش لهوى الله تعالى إلى أسفل**»، والعياذ بالله تعالى من هذا الكفر والضلال المبين.

(٢) أي كلَّ ما سوى الله من الموجودات.

(٣) أي الأزليّة لله تعالَى لا غيره، وهي الأزلية التي بمعنى أنّه لا بداية لوجوده.

(٤) أي خالَفَ الحوادثَ.

(٥) أي لم يُشَابِهُوه.

(٦) أي خالَفَ اللهُ الحوادِثَ بأنّه قديم لا بداية لوجوده وأنهم حوادثُ لهم بداية.

(٧) أي كان قبل وجود الزَّمان.

المكانَ وجودُه[١]، فوجوده إثباتُه[٢]، ومعرفته توحيده[٣]، أن تُمَيِّزَه مِن خلقه[٤]، ما تُصُوِّرَ في الأوهام فهو بِخِلاف ذلك[٥]. كيف يَحُلُّ به ما مِنْهُ بَدْؤُه أو يَتَّصِفُ بما هو إِنْشَاؤُه[٦]، لا تَمْقله العيون[٧]، ولا تُقَابِلُه الظُّنُون[٨]. قُرْبُهُ كَرَامَتُه[٩]، وبُعْدُهُ إِهانَتُهُ[١٠]، عُلُوُّه منِ غَيْرِ تَرَقٍّ[١١]، ومجيئه من غير تَنَقُّل[١٢]، هو الأوَّل، والآخِرُ، والظاهر[١٣]، والباطن[١٤]، والقريب البعيد[١٥]، الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾».

---

(١) أي كان قبل وجود المكان أيضًا.

(٢) أي اعتقاد وجوده هو اعتقاد أنّه موجود لا كالموجودات لا يَلْحقه التغيُّر ولا الفناء.

(٣) أي لا يَبلغ العبدُ معرفة حقيقة الله إنما غاية ما يَصِل العبد إليه هو التوحيد كما قال الإمام السيّد أحمد الرفاعي الكبير رضي الله عنه: «**غاية المعرفةِ بالله الإيقانُ بوجودِه تعالَى بلا كَيفٍ ولا مكانٍ**».

(٤) أي أنّ تعتقد أنّه لا يشبه المخلوقات.

(٥) أي لا يشبه شيئًا مِن تصوُّرات العقول لأنّه ليس له صورة.

(٦) أي مستحيل أن يَحُلَّ في الله صفاتٌ وأعيانٌ حادثةٌ هو بدأ خَلْقَها وأوجَدها على ما هي عليه، فهو غنيٌّ عن العالمين.

(٧) أي لا تراهُ عيون الناظرين وهم في الدُّنيا.

(٨) أي لا تُدْرِكُهُ الظنون ولا تَصِل إلى معرفة حقيقته.

(٩) أي قُربُ العبد المؤمن من الله وقُربُ الله مِن العبد المؤمن معنويٌّ ليس مسافِيًّا، ومعناه رضا اللهِ عن العَبْد.

(١٠) أي بُعْدُ العبد المخذول من الله معنويٌّ ليس مسافِيًّا، ومعناه البُعْدُ مِن رضا الله واستحقاقه عذابَه.

(١١) أي ليس علوُّه علُوَّ مكانٍ أعلى فوق مكانٍ أسفَل، بل عُلُوُّه عُلُوّ القَدْر والشأن والعَظَمة.

(١٢) أي المجيء الوارد في الآية: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ ونحو ذلك إنما معناه: جاء أمرُ رَبِّك، وليس معناه أنّ الله يتحرَّك أو يَسْكُن أو يتنقَّل أو يستقِرُّ.

(١٣) أي المعروف بياته.

(١٤) أي الذي حَجَب خلقه عن إدراك ذاته لتعاليه عن التشبيه.

(١٥) أي معنًى لا حِسًّا.

لطيفة: روي أنّ التابعي الجليل الزاهد الوليَّ أبا مسلمٍ الخولانيَّ اليمني الأصل الدارانيَّ الموطِن، واسمه عبد الله ابن ثُوَبٍ، كان بيده سبحة يسبح بها فنام والسبحة في يده، فاستدارت السبحة فالْتَفَّتْ على ذراعه وجعلت تسبح، فالْتَفَت أبو مسلم والسبحة تدور في ذراعه وهي تقول: «سبحانك يا منبت النبات ويا دائم الثبات»، فقال: هَلُمِّي يا أم مسلم فانظري إلى أعجب الأعاجيب، فجاءت أم مسلم والسبحة تدور وتسبح، فلما جلست سكنت.

ومعنى «دائم الثبات» دائم الوجود الذي لا يموت، فهو الله الباقي المتصف بالبقاء الأزلي الأبدي وليس معنى دائم الثبات أنه ساكن، لأن السكون من أوصاف الجرم، والله متعال عن معاني الخلق، ويؤيد هذا التفسير لمعنى الباقي قول الباقلاني في «الإنصاف»: «ويجب أن يعلم أن الله سبحانه باقٍ، ومعنى ذلك أنه دائم الوجود» اهـ.

٣- ثُـمَّ الـصَّـلاةُ وَالـسَّـلامُ سَـرْمَـدَا عـلَـى الـنَّـبِـيِّ خَـيْـرِ مَـنْ قَـدْ وَحَّـدا

الصلاة والسلام على رسول الله

(**ثُـمَّ**) عطفٌ على ما تَقَدَّم (**الـصَّـلاةُ**) مِن الله أي رحمته المقرونة بالتعظيم (**وَالسَّلامُ**) أي زيادة الإكرام من الله، أرجوهُما وأطلبهما مِن الله أن تدومَا (**سَرْمَدَا**) أي أبدًا (**عـلَـى الـنَّـبِـيِّ**) محمَّد ﷺ.

وقد أمر الله تعالَى عباده في القرءان الكريم بالصلاة والسلام على نبيّه محمَّد فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾، وليس معنى ذلك أنّ الشخص يجب عليه أن يصلِّي على النبيّ كُلَّمَا ذُكِرَ النبيّ، كما قال بذلك بعضهم وهو قول شاذ، وقد نقل ابن مازَة الحنفي الاتفاق على المذهب الصواب في هذه المسألة فقال في «المحيط البرهاني» ما نصُّه: «فعامّة العلماء قالوا: إن الصلاة على النبي كُلَّمَا ذُكِر مستحبة وليست بواجبة» اهـ.

لكن يجب الصلاة على النبيّ في الصلوات الخمس المفروضات، وهذا عند الشافعي، أما في غير الصلوات الخمس فتكون الصلاة على النبيّ سنة مؤكدة ولا سيما عند سماع ذكره.

فمن سَمِعَ ذِكْر النبي ﷺ فهذا يتأكد عليه مسنونية الصلاة عليه، حتى قال بعض الفقهاء: إنه يجب الصلاة عليه في المجلس الذي ذُكِر فيه، فإذا لم يُصَلِّ الشخص عليه في ذلك المجلس وفارق المجلس ولم يصل عليه فإنه مذنب، لكن القول المعتمد القَوِيَّ هو أنّ الذي يجب هو في الصلاة في التشهد الأخير بعد التحيات، فإنَّ ذلك يكفي، وكذا السلام عليه في أول التحيات يكفي، أليس يقول المصلي: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فهذا يكون تطبيقًا لقول الله تعالى: .

وتتأكد الصلاة عليه ﷺ والسلام يوم الجمعة أكثر، فالرسول عليه الصلاة والسلام أَكَّدَ أمر الصلاة عليه يوم الجمعة حيث أمرنا بالإكثار من الصلاة عليه لأن يوم الجمعة يوم عظيم، فهو يوم فيه خلق الله ءادم وأُهبِطَ مِن الجنة، وكذا القيامة تقوم يوم الجمعة، وكذلك الصلاة عليه ﷺ في يوم الجمعة أكثر ثوابًا منها في سائر الأيام. قال عليه الصلاة والسلام: «**فأكثروا مِن الصلاة علَيَّ فيه**» أي في الجمعة، ليلتها ويومها.

ثم إنّ الصلاة على النبي عند تلاقي المسلمَين والسلام والاستغفار سُنَّةٌ. قال الحافظ أبو موسى المديني: أنشدنا أبو سعد بن الهيثم السُّلَمِي لنفسه بأصبهان:

أَمَّا الصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ فَقُرْبَةٌ وَوَسِيلَةٌ تُمْحَى بِهَا الآثَامُ
وَبِهَا يَنَالُ الْمَرْءُ عِزَّ شَفَاعَةٍ تَلْقَاهُ مِنْهَا جَنَّةٌ وَسَلَامٌ
كُنْ لِلصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ مُلَازِمًا فَصَلَاتُهَا الإِعْزَازُ وَالإِكْرَامُ

ومن أسرار الصلاة على النبي ﷺ ما رواه البيهقي في كتاب الاعتقاد على مذهب السلف أهل السنة والجماعة قال ﷺ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكْتَالَ**

بِالْمِكْيَالِ الأَوْفَى إِذَا صَلَّى عَلَيْنَا أَهْلَ البَيْتِ فَلْيَقُل: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ وَأَزْوَاجِهِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ وَذُرِّيَّتِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى ءَالِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ».

وكذلك إذا ذُكِر أنبياء الله ينبغي أن يصلى عليهم ويسلَّم، فإذا ذكر سيدنا محمد فصُلِّيَ عليه وسُلِّمَ عليه فينبغي أن يتبع الصلاة على النبي بالصلاة على إخوانه الأنبياء، لأنه ﷺ نفسَه قال: «**إذا سَلَّمْتُم علَيَّ فسلموا على أنبياء الله فإنهم بُعِثُوا كما بُعِثْتُ**» رواه الديلمي، وفي لفظ: «**صلوا على النبيين إذا ذكرتموني فإنهم قد بعثوا كما بعثت**» رواه ابن عساكر.

وأمّا معنى الصلاة على النبي فهو: طلب التعظيم من الله لنبيِّنا محمد، فإذا قال المسلم: «اللهم صَلِّ على محمد» فمعناه اللهم عَظِّم مُحَمَّدًا أي زده تعظيمًا، وأما السلام فمعناه طلب السلامة له مما يتخوفه على أمته لأنه ﷺ رؤوف رحيم يُهِمُّه أَمْرُ أمته.

ويحكى أن سفيان الثوري بينما هو يطوف، إذ رأى رجلًا لا يرفع قدمًا ولا يضع قدمًا إلا وهو يصلي على النبيّ ﷺ قال: قلت له: يا هذا إنكَ قد تركت التسبيح والتهليل وأقبلت بالصلاة على النبي ﷺ هل عندك في هذا شيء؟ قال: من أنت عافاك الله؟ فقلت: أنا سفيان الثوري. قال: لولا أنَّك غريبٌ في أهل زمانك ما أخبرتُك عن حالي ولا أطلعتك على سِرّي. ثم قال له: خرجت ووالدي حاجًّا إلى بيت الله الحرام، حتى إذا كنت في بعض المنازل، مرض والدي فقُمت لأعالجه، فبينما أنا ذاتَ ليلة عند رأسه إذ مات والدي فاسودّ وجهه، فقلت إنا لله وإنا إليه راجعون، فجذبتُ الإزار على وجهه فغطيتُه، فغلبتْني عيني فنِمتُ، فإذا أنا برجل لم أرَ أحسن منه وجهًا، ولا أنظف منه ثوبًا، ولا أطيب منه ريحًا، يرفع قدَمًا ويضع أخرى، حتى دنَا من والدي فكشف الإزار عن وجهه، فابيضَّ ثم ولَّى راجعًا، فتعلقت بثوبه

فقلت: يا عبد الله من أنت الذي مَنَّ الله بك على والدي في أرض الغربة؟ قال: «أَوَمَا تَعْرِفُني؟ أنا محمد بن عبدُ الله صاحبُ القرءان، أمَا إنَّ والدك كان مُسْرِفًا على نفسه، ولكن كان يُكْثِر الصلاة عَلَيَّ، فلَمَّا نزَل ما نزل استغاثَ بي، وأنا غِياثٌ لِمَن أَكْثَرَ الصَّلَاة علي»، فانتبَهْتُ مِن نَومِي فإذا وَجْهُ أبي أَبْيَض. ذكرها تقي الدين الحصني في «دفع شبه من شبَّه وتمرد».

وروي عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ، قال: «**مَنْ صَلَّى عَلَيَّ فِي اليَوْمِ مائَةَ مَرَّةٍ، قَضَى اللهُ لَهُ مائَةً حَاجَةٍ، سَبْعِينَ مِنْهَا فِي الآخِرَةِ وَثَلَاثِينَ فِي الدُّنْيَا**».

وقد أنشد بعض العاشقين للنبيّ محمد ﷺ:

امْدَحْ نَبِيَّ الْهُدَى يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ وَاذْكُرْ فَضَائِلَهُ وَالدَّمْعُ مُنْهَمِلُ
وَصَلِّ دَهْرًا عَلَى الْمُخْتَارِ مُجْتَهِدًا تَحْتَ الظَّلَامِ وَدَاجِيْ اللَّيْلِ مُنْسَبِلُ
عَسَاكَ تَحْظَى بِدَارٍ لَا نَفَاذَ لَهَا نَعِيمُهَا دَائِمٌ وَالظِلُّ وَالْأُكُلُ

فَاللهَ اللهَ عِبادَ الله لَا تمَلُّوا من الصَّلَاة على مُحَمَّد صلى الله عَلَيْهِ وَسلم زَينِ الْعباد.

وليُعْلَم أن الصلاة على النبي ﷺ جهرًا بعد الأذان بدعة حسنة. ويكفي في إثبات كون الجهر بالصلاة على النبي بدعة مستحبة عقب الأذان قوله ﷺ: «**إِذَا سَمِعْتُم المُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَمَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ**» رواه مسلم، وقوله ﷺ: «**مَنْ ذَكَرَنِي فَلْيُصَلِّ عَلَيَّ**» رواه أبو يعلى والسخاوي. فيؤخذ من ذلك أن المؤذن والمستمع كلاهما مطلوب منه الصلاة على النبي ﷺ، وهذا يحصل بالسر والجهر.

فإن قال قائل: لم ينقل عن مؤذني رسول الله أنهم جهروا بالصلاة عليه، قلنا: لم يقل الرسول لا تصلوا علي إلا سرًّا، وليس كل ما لم يفعل عند رسول الله حرامًا أو مكروهًا، إنما الأمر في ذلك يتوقف على

ورود نهيٍ بنصٍّ أو استنباطٍ من مجتهدٍ من المجتهدين كمالك وأحمد والشافعي وأبي حنيفة وغيرهم ممن جاء بعدهم من المجتهدين الذين استوفوا الشروط كالحافظ ابن المنذر وابن جرير ممن لهم القياس، أي قياس ما لم يرد فيه نص على ما ورد فيه نص، والجهر بالصلاة على النبي عقب الأذان توارد عليه المسلمون منذ قرون فاعتبره العلماء من محدثين وفقهاء بدعة مستحبة، ومن هؤلاء:

قال الحافظ السيوطي في كتابه «الوسائل إلى مسامرة الأوائل» ما نصه: «أول ما زِيدَ الصلاة والسلام بعد كل أذان في المنارة في زمن السلطان حاجي بن الأشرف شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون بأمر المحتسب نجم الدين الطنبدي وذلك في شعبان سنة إحدى وتسعين وسبعمائة وكان حدث قبل ذلك في أيام السلطان صلاح الدين بن أيوب أن يقال في كل ليلة قبل أذان الفجر بمصر والشام «السلام على رسول الله» واستمر ذلك إلى سنة سبع وستين وسبعمائة فزيد بأمر المحتسب صلاح الدين البرلسي أن يقال «الصلاة والسلام عليك يا رسول الله»، ثم جعل عقب كل أذان سنة إحدى وتسعين» اهـ.

وقال الشيخ محمد علاء الدين الحصكفي الحنفي في كتابه «الدر المختار» ما نصه: «فائدة: [حدث] التسليم بعد الأذان في ربيع الآخر سنة سبعمائة وإحدى وثمانين في عشاء ليلة الاثنين، ثم يوم الجمعة، ثم بعد عشر سنين حدث في الكل إلا المغرب، ثم فيها مرتين، وهو بدعة حسنة» اهـ.

وقال الشيخ شمس الدين محمد عرفة الدسوقي المالكي في «حاشيته على الشرح الكبير» ما نصه: «وأما الصلاة على النبي ﷺ بعد الأذان فبدعة حسنة» اهـ.

وقال الحافظ السخاوي في كتابه «القول البديع في الصلاة على

الحبيب الشفيع» ما نصه: «قد أحدث الـمُؤَذِّنون الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ عقب الأذان للفرائض الخمس إلا الصبح والجمعة، فإنهم يقدمون ذلك فيها على الأذان وإلا المغرب فإنهم لا يفعلونه أصلًا لضيق وقتها»، إلى أن قال: «وقد اختلف في ذلك هل هو مستحب أو مكروه أو بدعة أو مشروع، واستدل للأول (أي الاستحباب) بقوله تعالى: ﴿وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ﴾، ومعلوم أن الصلاة والسلام من أَجَلِّ القرب لا سيما وقد تواردت الأخبار على الحث على ذلك مع ما جاء في فضل الدعاء عقب الأذان والثلث الأخير من الليل وقرب الفجر، والصواب أنه بدعة حسنة يؤجر فاعله بحسن نيته» اهـ، ونقل ذلك عنه الحطاب المالكي أيضًا في كتابه مواهب الجليل وأقَرَّه عليه.

وجاء في كتاب «منتهى الإرادات» لابن النجّار من الحنابلة ما نصه: «وسُنّ لمؤذن وسامع أن يصلي على النبي ﷺ» اهـ.

صلَّى الله وسلَّم علَى سَيِّد الأنبياء والمرسَلين وقائد الغُرِّ المحَجَّلين يوم القِيامة خير مَن وَطِئَ الثَّرَى والجنَّةِ و(**خَيْرِ مَنْ قَدْ وَحَّدا**) أي اللهَ مِن بين الموَحِّدين وَسَيِّدِ العابِدِين والزاهِدِين والعارِفِينَ بالله.

وقد ذهب بعض العلماء إلى القول بكراهية إفراد الصلاة على النبي ﷺ عن السلام وعكسه، فينبغي الجمع بينهما للتأكيد في قوله تعالى: ﴿صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾، لكن ليس المراد بالجمع بينهما أن يكونا مقرونين بل أن لا يخلو الكلام والمجلس عنهما.

٤- وءَالِـهِ وَصَـحْـبِـهِ وَمَـنْ تَـبِـعْ سَـبِـيـلَ دِيْـنِ الْـحَـقِّ غَـيْـرَ مُـبْـتَـدِعْ

ءال رسول الله محمَّد ﷺ

اللّهمّ صلّ على محمّدٍ (وءَالِهِ) وصحبه الطيّبين الطاهرين، وءال النبيّ معيّنون على حسب الإطلاق:

١- فإن كان في مقام الزّكاة: فالمقصود مؤمِنُوْ بني هاشمٍ وبني المطّلب.

٢- وإن كان في مقام المدح والثّناء: فهم أقاربُه المؤمنون، ويدلّ عليه ما جاء في قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، فهذه الآية تعني أزواج النّبيّ وعليّا وفاطمة والحسن والحسين، وقد ثبت أنّه بعد نزول هذه الآية غطّى الرّسول عليًّا وفاطمة والحسن والحسين برداءٍ وقال: «**اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي**».

٣- وإن كان في مقام الدّعاء: فالمراد بهم أتقياء أمّته، وعليه فيدخل فيهم الصّحابة وغيرهم ممّن كان تقيًّا من أمّته ﷺ.

وَقَوْلُ النّاظم «**وَءَالِهِ**» معطوف على «**النَبِيّ**» أي ثمّ الصلاة والسلام من الله على ءاله أيضا الخ، فالصّلاة على الآل هنا تَبَعًا وإضافة إلى الصلاة على النبيّ لا استقلالًا على وجه التخصيص والانفراد عنه، وقد قال النّوويّ في ذلك في شرحه على مسلم ما نصّه: «وهذا ممّا اختلف العلماء فيه فقال مالك والشّافعيّ رحمهما اللّه تعالى والأكثرون: لا يصلّي على غير الأنبياء استقلالًا، فلا يقال: اللّهمّ صلّ على أبي بكرٍ أو عمر أو عليٍّ أو غيرهم، ولكن يصلّي عليهم تبَعًا فيقال: اللّهمّ صلّ على محمّدٍ وءال محمّدٍ وأصحابه وأزواجه وذرّيّته كما جاءت به الأحاديث. وقال أحمد وجماعة: يصلّى على كلّ واحدٍ من المؤمنين

مستقلًّا، واحتجّوا بأحاديث الباب وبقوله ﷺ: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى ءَالِ أَبِي أَوْفَى**»، وكان إذا أتاه قوم بصدقتهم صلّى عليهم، قالوا وهو موافق لقول اللّه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾، واحتجّ الأكثرون بأنّ هذا النّوع مأخوذ من التّوقيف واستعمال السّلف ولم ينقل استعمالهم ذلك بل خصّوا به الأنبياء» اهـ.

ومثل ذلك ما جاء صيغة الصلاة الإبراهيمية الواردة عن النبي فيها: «وعلى ءال محمد كما صليت على إبراهيم» فلا يلزم من ذلك أن يكون الآل مساوين لإبراهيم منزلة ورفعة وقدرًا وفضلًا.

وقد تكلّم على هذه المسألة أهل الفقه والأصول واللغة وغيرهم، قديمًا وحديثًا، ومن أجمع ما قيل فيها ما ذكره الإمام ابن دقيق العيد في الإحكام ونصّه: «اشتَهَر بين المتأخّرين سؤالٌ وهو أنّ المشبَّه دون المشبَّه به، فكيف يُطلَب صلاة على النّبيّ ﷺ تَشَبُّهًا بالصّلاة على إبراهيم؟ والّذي يقال فيه وجوه:

أحدها: أنّه تشبيه لأصل الصّلاة بأصل الصّلاة، لا القَدْرِ بالقَدْر، وهذا كما اختاروا في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أنّ المراد: أصل الصّيام، لا عينه ووقته، وليس هذا بالقويّ.

الثّاني: أنّ التّشبيه وقع في الصّلاة على الآل، لا على النّبيّ ﷺ فكأنّ قوله: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ» مقطوع عن التّشبيه، وقوله «وَعَلَى ءالِ مُحَمَّدٍ» مُتَّصِلٌ بِقَوْلِه: «كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إبْرَاهِيمَ وَءَالِ إبْرَاهِيمَ»، وفي هذا من السّؤال أنّ غير الأنبياء لا يمكن أن يساويهم، فكيف يطلب وقوع ما لا يمكن وقوعه؟ وههنا يمكن أن يردّ إلى أصل الصّلاة، ولا يردّ ما يردّ على تقدير أن يكون المشبّه الصّلاة على النّبيّ ﷺ وءاله» اهـ، ثم ذكر وجوها أخرى.

وقد رُوِي عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال:

يَـا أَهْـلَ بَـيْـتِ رَسُـولِ اللهِ حُـبُّـكُـمُ فَرْضٌ عَلَى النَّاسِ فِي القُرْءَانِ أَنْزَلَهُ
يَكْفِيكُمُ مِنْ عَظِيمِ الفَضْلِ أَنَّكُمُ مَنْ لَمْ يُصَلِّ عَلَيْكُمْ لَا صَلَاةَ لَهُ

معناه أنه لا تكون الصلاة كاملة خالية من النقص إلا بالصلاة عليه مع الآل وليس المعنى أنه لا صلاة بالمرة لمن لم يُصَلِّ على النّبيّ وءاله في صلاته.

صحابة رسول الله محمَّد ﷺ

اللَّهُمَّ صَلِّ على محمَّدٍ وءالِه (**وَصَحْبِهِ**) الطيّبين الطاهرين.

فالصحابيّ اسم جمعٍ لصاحبٍ كرَكْبٍ جمع راكبٍ، والصّاحب لغة: هو مَن بَينَك وبينَه مواصَلة ومُداخَلة، والمراد به هنا في مَقام الدّعاء الصّحابيّ، وهو مَن لَقِيَ النّبيَّ على سبيل العادة بعد النّبوّة وقبل وفاته ﷺ مُؤمِنًا به ومات على ذلك، فخَرَج بذلك مَن ارتَدَّ ومات كافِرًا كابن خَطَلٍ.

ويدخل على المعتمد مَن كان دون التّمييز ومَن طالت مُجالسَتُه له أو قَصُرت أو لم يُجالِسْهُ، ومَن روى عنه أو لم يَرْوِ، ومن غَزَا معه أو لم يَغْزُ، ومَن رَءاهُ رؤيةً ومَن لم يَرَهُ لِعارضٍ كالعَمَى. وفي ذلك قال الحافظ السّيوطيّ في ألفيّته في مُصطلَح الحديث:

حَدُّ الصَّحَابِيْ مُسْلِمًا لَاقَى الرَّسُولْ وَإِنْ بِلَا رِوَايَةٍ عَنْهُ وَطُولْ

ولا يُشترَط البلوغُ وإلّا لَخَرَج مَن أُجْمِعَ على عَدِّه في الصّحابة، كالحسَن والحُسَين وابن الزّبير ونحوهم، كما لا يُشْتَرَط أن يكون قد بَلَغ سِنَّ التَمييز، وإن كان قد نحى بعض العلماء إلى اشتراطه.

ويدخل فِي تعريف الصحابيّ من رَءاهُ وءامَنَ بِهِ من الْجِنّ وماتَ على ذلك، لِأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاة السَّلَام بُعِثَ إِلَيْهِم قطعًا بدليل قول الله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾، ثم الجِنُّ مُكَلَّفون فِيهِمْ العصاة وفيهم

الطائعون، وقد أعلمنَا الله عزّ وجلَّ أنّ نَفرًا من الْجِنّ ءَامنُوا وَاسْتَمعُوا إلى قراءة الْقُرْءان مِن النَّبِي عَلَيْهِ وَالصَّلَاة وَالسَّلَام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾، وقال أيضًا: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ أي لَمّا قام ﷺ يقرأ القرءان كاد الجِنُّ يكونون عليه جماعات لِمَا رأوا من عبادته واقتداءِ أصحابه به وإعجابًا منهم بما تلاه من القرءان، وَبناءً على ما تقدَّم فلَا الْتِفَات لإنكار ابْن الْأَثِير على أبي مُوسَى الْمَديني تَخْرِيجه فِي الصَّحَابَة لبَعضِ من عَرَفه مِنَ الجِنّ. وقد ذكر العلماء أنّ مِنَ الصحابة الذين استمعوا لقراءة النبيّ ﷺ: سليط، وشاطر، وخاضر، وحسا، ومسا، ولحقم، والأرقم، والأدرس، ذكره ابن حجر في الإصابة نقلًا عن ابن مغلطاي. وقد عُرِفَ من جِنّ الصحابة غير هؤلاء، مثل: حاصر، وحسّان مِن وفد نَصِيبين، وسَمْحَج وشصار وعُثَيم من غيرهم.

وأمّا حصرُ الصحابةِ بالعدِّ والإحصاءِ على التحديد فَقد تعذَّر بسبب تَفَرُّقِهِم في البلدانِ، ولكنْ جاءَ ضبطُهم على التقريب حيث حضروا بعضَ المشاهد في ءاخر حياة النبيّ ﷺ كغزوة تبوكَ، وحجَّةِ الوداعِ، فَرُوِي أنّ رسولُ اللهِ ﷺ مات وعِدَّةُ الصحابة مائةُ ألفٍ وأربعةَ عشرَ ألفًا، كذا نُقِل عن الصحابيّ كعب بن مالك رضي الله عنه.

فَائِدَةٌ: إنّ صُحْبة أبي بكرٍ للنّبيّ ﷺ ثابتة لا شكَّ فيها ولا رَيْبَ، ونصوصُ العلماء والمفسّرين شاهدة على نقل الإجماع على هذا، فقد قال الملّا عليّ القاري الحنفيّ في شرحه على صحيح البخاريّ ما نصّه: «قال تعالى: ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ فالمعنى أنت صاحبي المخصوص حينئذٍ أو أنت صاحِبي بشهادة الله، إذ أجمع المفسّرون على أنّ المراد بصاحبه في الآية هو أبو بكرٍ، وقد قالوا: مَن أَنكَرَ صُحبة أبي بكرٍ كَفَر، لأنّه

أنكر النّصّ الجَلِيَّ، بخلاف إنكار صُحبةِ غيرِه مِن عُمَرَ أو عثمانَ أو عَلِيٍّ رضوانُ الله عليهم أجمعين» اهـ.

أتباع صحابة رسول الله ﷺ

اللَّهُمَّ صَلِّ على محمَّدٍ وءالِه وَصَحْبِهِ الطيّبين الطاهِرين **(وَمَنْ تَبِعْ)** أي التَّابِعِ لأولئك على النهج القويم والصراط المستقيم وَسَلَكَ **(سَبِيلَ)** أي طَرِيق **(دِيْنِ الْحَقِّ)** وهو دِين الإسلام حال كونِ ذلك التابِعِ **(غَيْرَ مُبْتَدِعْ)** بدعةً سيِّئةً، اعتقاديَّةً كانت أو غيرها، وكثيرًا ما يُطْلَق المبتدِع ويُراد به المبتدِعُ في العقيدة أي القائم على خلاف ما عليه أهل السنّة والجماعة في الاعتقاد.

وفي كلام الناظم عموم يشمل كلَّ مَن اتَّبع النبيَّ وأصحابه على الحقّ المبين، وأمّا التابعيّ في اصطلاح أهل الحديث والسيرة وغيرهما فهو فردٌ مخصوصٌ بتعريفٍ معلوم، وَقَد اخْتُلِفَ في حدِّهِ، فقال الخطيب البغدادي: «التَّابِعِيُّ مَنْ صَحِبَ صَحَابِيًّا»، ولم يَكْتَفِ الخطيب بمجرد الالْتِقَاء، ولكن قال أكثر المحَدِّثِين: «إِنَّ التَّابِعِيَّ مَنْ لَقِيَ وَاحِدًا مِنَ الصَّحَابَةِ فَأَكْثَر» أي وَإِنْ لم يصحبه، ولهذا ذكر مسلم وابن حِبَّانَ، في طبقة التابعين، سُليمانَ بن مِهران الأعمش، وقال ابن حبان: «أخرجناه في هذه الطبقة لأنّ له لُقْيَا وحِفْظًا»، وأمثلة ذلك كثيرة جِدًّا، لكن اشترط ابن حبان أن يكون من رءاه في سِنِّ مَن يحفظ عنه، فإن كان صغيرًا لا يحفظ عنه فلا عبرة برؤيته عند ابن حِبَّانَ. قَالَ العِرَاقِيُّ: «وَمَا اخْتَارَهُ ابْنُ حِبَّانَ لَهُ وَجْهٌ، كَمَا اشْتَرَطَ فِي الصَّحَابِيّ رُؤْيَتَهُ وَهُوَ مُمَيِّز». قَالَ: وَقَدْ أَشَارَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينِ بِقَوْلِهِ: «طُوبَى لِمَنْ رَءانِي وَءامَنَ بِي، وَطُوبَى لِمَنْ رَأَى مَنْ رَءانِي» الحَدِيثَ، فَاكْتَفَى فِيهِمَا بِمُجَرَّدِ الرُّؤْيَةِ.

وأمّا بالنِسبة لِعِدَّةِ التابِعِين فإنها تَفُوق الحَصْرَ، لأنّ كثيرًا من الصحابة

رحلوا بعد وفاة الرسول ﷺ إلى مختلف البلدان وانتشروا في سائر الآفاق، وقد رءاهم الألوف من الأتباع، فالله أعلَمُ بعِدَّتِهم.

الْمَيْز بين الاتِّباع والابتداع

اعلم رحمك الله أنّ مَن ترك الاتباع في الدِّين، وءاثَر الابتداع المَهِين، وعدل عن منهج أهل السنّة والجماعة، وءاثر الإصرار على الطغيان والفجور والخلاعة، وانهمك في غمرات الكفر والضلال، وجانب أهل الحقّ والقبول والكمال، فقد خسر خسرانًا مُبينًا، وحاد عن طريق المسلمينَ، وأمّا من ابتدَعَ البِدَع المليحة، تارِكًا من ذلك البِدَع القبيحة، موافقًا للشرع في ما أَحدَثه، فليس إلا جزيل المثُوبة له.

وأنشد أبو المظفر السمعاني:

تَمَسَّكْ بِحَبْلِ اللهِ وَاتَّبِعِ الهُدَى ... وَلَا تَكُ بِدْعِيًّا لَعَلَّكَ تُفْلِحُ
وَلُذْ بِكِتَابِ اللهِ وَالسُّنَنِ الَّتِي ... أَتَتْ عَنْ رَسُولِ اللهِ تَنْجُوْ وَتَرْبَحُ
وَدَعْ عَنْكَ ءَارَاءَ الرِّجَالِ وَقَوْلَهُمْ ... فَقَوْلُ رَسُولِ اللهِ أَزْكَى وَأَشْرَحُ
وَلَا تَكُ مِنْ قَوْمٍ تَلَهَّوْا بِدِينِهِمْ ... فَتَطْعَنَ فِي أَهْلِ الحَدِيثِ وَتَقْدَحُ
إِذَا مَا اغْتَقَدْتَ الدَّهْرَ يَا صَاحِ هَذِهِ ... فَأَنْتَ عَلَى خَيْرٍ تَبِيتُ وَتُصْبِحُ

وقد ذكر هذه الأبيات الشيخ عبد الرؤوف المناويّ ثم قال بعد ذلك ما نصُّه: «المراد بالبدعة هنا اعتقاد مذهب القدرية أو الجبرية أو المرجئة أو المجسمة ونحوهم، فإن البِدْعة خمسة أنواع: محَرَّمة وهي هذه، وواجبة[1] وهي نصب أدلة المتكَلِّمِين للرد على هؤلاء، وتعلُّم النحو الذي به يُفْهَم الكتاب والسُنَّة ونحو ذلك، ومندوبة كإحداث نحو رِبَاطٍ ومدرسة وكلِّ إحسان لم يُعْهَد في الصدر الأول، ومكروهةٌ

(١) أي على الكِفاية لا عينًا على كُلِّ مسلِمٍ.

كزخرفة مَسْجِد وتزويق مُصْحَف، ومباحةٌ كالمصافحة[1] عَقِب صُبْح وعَصْر» اهـ.

فَإِنْ قِيلَ: البدعة الحسَنة لا بُدَّ أن تكون في حياة رسول الله صلَّى عليه وسلم لأنّ الحديث الذي رَوَاهُ مُسْلِمٌ عن جَرِيرِ بنِ عَبْدِ اللهِ أنّ رسول الله صلَّى عليه وسلم قال: «**مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً الخ**» فهذا مخصوص في حياته.

قلنا: «لا تثبت الخصوصية إلا بدليلٍ وهو مفقود هنا»، كما قال ذلك ابن المنذر والخطابي وغيرهما مما نقله ابن حجرٍ في فتح الباري، وهنا الدليل يعطي خلاف هذه الدعوى، حيث إن رسول الله ﷺ قَالَ: «**مَن سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ**»، ولم يقل مَنْ سَنَّ في حياتي ولا من عمل عمَلًا أنا عملته فأحياه.

فإن قيل: الحديث سببه أن أناسًا شديدي الفقر يلبسون النِّمَار جاؤوا فتَمَعَّر وجه رسول الله ﷺ لِمَا رأى مِن بؤسهم أي تغير وجهه وظهر عليه ءاثار الحزن مما شق عليه من أمرهم، فتصدق الناس حتى جمعوا لهم شيئًا كثيرًا فتَهَلَّل وجه رسول الله ﷺ أي ظهر عليه أمارات السرور وقال: «**مَنْ سَنَّ فِى الْإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ**» الحدِيثَ.

قلنا: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما ذكر الأصوليون، وإلا لأبطلت على هذا كثير من الأحكام. وفي حديث: «**مَنْ سَنَّ فِى الْإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً**» تخصيصٌ لقوله ﷺ في الحث على التمسك بالكتاب والسنة: «**كُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**» رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه، والمراد به المحدثات الباطلة والبدع المذمومة.

(١) أي بين مَن تَحِلُّ مصافحة بعضهم لبعض.

وقال أبو السعادات ابن الأثير الجزري في النهاية: «فما كان في خلاف ما أمر الله به ورسوله ﷺ فهو في حيز الذم والإنكار، وما كان واقعًا تحت عموم ما ندب الله إليه وحض عليه الله أو رسوله فهو في حيز المدح، وما لم يكن له مثال موجود كنوعٍ من الجُود والسخاء وفعل المعروف فهو من الأفعال المحمودة، ولا يجوز أن يكون ذلك في خلاف ما ورد الشرع به، لأن النبي ﷺ قد جعل له في ذلك ثوابًا فقال: «**مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا**» وقال في ضده - أي ضد السُنّة الحَسَنة - «**وَمَنْ سَنَّ سُنَّة سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِل بِهَا**» وذلك إذا كان في خلاف ما أمر الله به ورسوله ﷺ. ومن هذا النوع حديث عمر رضي الله عنه في قيام رمضان: «نِعْمَتِ البِدْعَةُ هَذِهِ»، فلَمَّا كانت من أفعال الخير وداخلة في حَيّز المدح سماها بدعة ومدحها، لأن النبي ﷺ لم يَسُنَّها لهم وإنما صلاها ليالي ثم تركها ولم يحافظ عليها، ولا جَمَع الناس لها بإمامٍ واحدٍ، ولا كانت في زمن أبي بكرٍ، وإنما عمر رضي الله عنه جمع الناس عليها بإمامٍ واحدٍ، وندبهم إليها، فبهذا سماها بدعة وهي على الحقيقة سُنّة، وعلى هذا التأويل يحمل الحديث الآخر: «**كُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ**» إنما يريد ما خالف أصول الشريعة ولم يوافق السنة، وأكثر ما يستعمل المبتدع عرفا في الذم. وفي حديث الهَدْيِ: «**فأَزْحَفَتْ عَلَيْهِ بالطَّرِيقِ فَعِيَّ بِشَأنِهَا إنْ هِيَ أَبْدَعَتْ**»، يقال أبدعت الناقة إذا انقطعت عن السير بكلالٍ أو ظلعٍ، كأنه جعل انقطاعها عما كانت مستمرة عليه من عادة السير إبداعًا أي إنشاء أمرٍ خارجٍ عما اعتيد منها. ومنه الحديث: «**كَيْفَ أَصْنَعُ بِمَا أُبْدِعَ عَلَيَّ مِنْهَا**». ومنه الحديث: «أتاه رجل فقال إني أُبْدِعَ بي فاحْمِلْنِي» أي انقطع بي لِكَلال راحلتي» انتهى كلام ابن الأثير مختصَرًا.

الإِلهِيَّات

٥- وَبَـعْـدُ فَـاعْـلَـمْ بِـوُجُـوبِ الْـمَـعْـرِفَـهْ   مِـنْ وَاجِـبٍ لِـلـهِ عِـشْـرِيـنَ صِـفَـهْ

الْمَيْز بين العِلم والمعرِفة

(وَبَـعْـدُ) هي لفظة يُؤتَى بها للانتقال من أُسلوبٍ إلى أُسلُوبٍ ءاخر، وتكون مُقيَّدةً بلفظ «أَمَّا» وجودًا أو تقديرًا بالواو نائبة عن «أَمَّا» النَّائبةِ عَنْ مهما، لأنّ الأصلَ في التَّرْكيبِ «مَهْمَا يَكُنْ مِنْ شيءٍ»، وهو تقدير سيبيويه رضي الله عنه و«أَمَّا» حرف باتِّفَاقٍ و«مَهْمَا» اسم في الأَصَحّ، والتقدير في ذلك: مهما يكن من شيء بعد البسملة والحمدلة والصلاة والسلام على النبيّ وأصحابه والتابِعين لهم بإحسان **(فَاعْلَمْ)** أي عِلْمًا، والعِلْمُ فِي اللُّغَة مَصْدَرُ عَلِمْتُ وَأَعْلَمُ عِلْمًا، والفرقُ بين العلم والمعرفة أنَّ العلمَ يستدعي معرفةَ الذاتِ وما هي عليه من الأحوال نحو: عَلمتُ زيدًا قائمًا أو ضاحكًا، والمعرفةُ تستدعي معرفةَ الذاتِ، وقيل: لأنَّ المعرفةَ يسبقها جهلٌ، والعلمُ قد لا يَسْبِقُه جهلٌ، ولذلك لا يجوزُ إطلاقُ المعرفةِ عليه سبحانه، قاله السمين الحلبي وابن عادل وابن عرفة وغيرهم.

وَقد ذكر الْعلمَاء فروقًا كَثِيرَة غير ذَلِك بَين الْعلم والمعرفة، مِنْهَا: أَن الْمعرفَة مَا نُسِيَ ثمَّ ذكر بِخِلَاف الْعلم فَإِنَّهُ أَعم، وَأَن الْمعرفَة تتعَلَّق بالجزئيات وَالْعلم بالكليات، وأنّ المعرفة تشمل العِلم والظنّ بخلاف العِلم. وخالف في ذلك الكرامية فقالوا: «يوصف الله بأنه عارف لاتحاد العلم والمعرفة».

وَمِمَّا اسْتَشْكَل علَى البعض في ذَلِك قَوْله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم: «**تَعَرَّفْ إِلَى الله فِي الرخَاء يَعْرِفْكَ فِي الشدَّة**»، وَأجَاب عَنهُ ابْن خطيب الدهشة وَغَيره بِأَن هَذَا من بَاب الْمُقَابلَة، مثل: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ﴾. قلتُ والمعنَى: تقرَّب إلى الله قربًا معنَوِيًّا بالدأب في الطاعات، والإنفاق في وجوه القُرب والمثوبات، فإنه يجازيك عند الشدة والحاجة

إليه في الدنيا والآخرة. ويناسب عند ذلك ذِكرُ ما وقع للثلاثة النَّفَرِ الذين أصابهم المطر فأووا إلى غارٍ، فانحدرت صخرةٌ فانطبقت عليهم فقالوا: انظروا ماذا عملتم من الأعمال الصالحة، فاسألوا اللَّه سبحانه وتعالى بها فإنه ينجيكم، فذكر كلٌّ منهم سابقةَ عملٍ صالحٍ عَمِلَه لله، فانحدرت الصخرة وخرجوا يمشون، وهو حديث مرفوع رواه البخاري وغيره.

واختلف العلماء من أهل السنة في تعريف العلم الحادث في العبارات، وخالفهم في حقيقته فِرَق كثيرة منها المعتزلة إذ قالوا: «العلم اعتقاد الشيء على ما هو عليه»، وهو باطل.

وقد ذهب أهل السنة إلى تعريفه مرة بأنه: «ما به يعلم العالم المعلوم»، ومرة بأنه «معرفة المعلوم على ما هو به»، ومرة إلى أنه «إثبات المعلوم على ما هو به» أي في الواقع، وقال ءاخرون: «هو إدراك المعلوم على ما هو به»، وقيل: غير ذلك.

والكلام لا ريب هو عن علم الخلق لأنه حادث، وأما علم الله تعالى فلا يُقَاسُ عَلَى عِلمِ المخلوقين، ليس هو عِلْمًا ضروريًّا ولا بديهيًّا ولا كسبِيًّا، بل هو علَم واحد أزلي قديم أبدي لا يطرأ عليه زيادة ولا نقصان ولا يدرك حقيقته عقل عاقلٍ.

الْمَيْز بين المعرِفة والعِرْفان والتصديق

واعلم رحمك الله (**بِوُجُوبِ الْمَعْرِفَـهْ**) شرعًا، لِمَا يأتي ذِكْرُه مِن صفات الله تعالَى، وجوبًا مؤكَّدًا على المكلَّفِينَ. والمعرفة في أهل النَّظَر هي الإدراك على سبيل الجزم المطابق للحقِّ، وعليه فلا تشمل الظنّ والشكّ والوهم، وإلا فقد تُطلق في غير هذا الموضع بمعنَى الظنّ كقولنا: «من شروط صِحّة الصلاة معرفة دخول الوقت» فالمراد هنا مطلق الإدراك ليصح جعلها شاملة لليقين والظنّ.

وأمّا العِرْفان فهو إدراك الشيء بتفكر وتدبُّر، وهو أخص من العلم، وقيل: المعرِفة والعِرفان واحدٌ، وأمّا العِرفان والمعرفة عند أهل التصوُّف فهو سُمُوُّ اليَقين. وقال المناويّ: «ويقال: «فلان يعرف الله» ولا يقال: «يعلم الله»، لما كانت المعرفة تستعمل في العلم القاصر المتوصل إليه بتفكر، ويضاد المعرفة الإنكار، والعلم الجهل» اهـ، ومثل ذلك قال الحافظ الزبيدي.

والتصديق والمعرفة ليسا بمتحدَين، فإن التصديق عبارة عن ربط القلب بأنه على ما علمه من إخبار المخبر بأنه كذا، فهذا الربط أمر كسبي يثبت باختيار المصدِّق، وأما المعرفة فليست كذلك لحصولها بدون الاختيار، كما في وقوع بصر الإنسان على شيء بدون اختياره، فإنه يحصل له معرفة المبصر بأنه حجر أو مدر أو غير ذلك بدون ربط قلبه عليه بالاشتغال بأنه هو، فالمعرفة ليست بإيمان، بخلاف التصديق فإنه إيمانٌ، قاله الكفَوِيّ.

حدُّ التكليف وحُكم من لم تبلغْهُ دعوة الإسلام

لَمّا ذكر الناظم وجوب المعرفة شرعًا، لما يأتي ذكره من صفات الله تعالى وجوبًا مؤكَّدًا على المكلَّفين، كان حَرِيًّا بنا بيان حد المكلف عند الفقهاء، وهو كل بالغ عاقل بلغته دعوة الإسلام وتعلقت بأفعاله الأحكام وجرت عليه الأقلام، والأحكام خمسة وهي: الوجوب والتحريم والندب والكراهة والإباحة وكلها مدركة بالسماع، خلافًا لقول المعتزلة إن الأحكام التكليفية تدرك بالعقل، فالحكم من هذه الخمسة هو خطاب الله الذي من شأنه أن يتعلق بفعل المكلف من حيث إنه مكلف.

وقد قام الإجماع القطعيّ على أنّ من دخل في هذا الحَدِّ السابق للمكلَّف فهو مكلّف بالإيمان ويحاسَب على تركه في الآخِرة. لأنّ الناس في الإسلام على ضربين: مكلف، وغير مكلف. فالمجنون والصبيّ ومن لم تبلغه دعوة الإسلام ليسوا بمكلَّفِين. واستدل الجمهور لذلك بقول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، فإرسال الأنبياء كان لتبليغ الشرائع، فمَن أَبَى إلا الكفر بعد ذلك فقد حَقَّ عليه العذاب. فعُلِمَ مِن ذلك أن من مات ولم تبلغه دعوة نَبِيّ لا عقاب عليه لأنّه لم يكُن يومًا مكلَّفًا ولا ثواب له لأن الثواب إنما يكون في نظير الأعمال المقبولة، لكن يكون مآلُه إلى الجنة لا إلى مرتبةٍ تُساوِي مرتبة المسلم فيها، ودخوله الجنة في هذه الحالة لا يكون جزاءً على عملٍ إنما ينال بمحض فضل الله.

وخالف الإمام أبو حنيفة وبعض مشايخ العراق المتقدِّمين والإمام الماتريدي في هذه المسألة، فذكر الشيخ نور الدين الصابوني البخاري الماتريدي في «البداية من الكفاية» أن وجوب الإيمان بالعقل مرويٌّ عن

أبي حنيفة رحمه الله، وذكر الحاكم المروزي في المنتقى عن أبي يوسف عن أبي حنيفة رحمهم الله أنه قال: «لا عذر لأحد في الجهل بخالقه، لِمَا يرى من خلق السماوات والأرض وخلق نفسه وسائر خَلْق رَبِّه، أما في الشرائع فمعذور حتى تقوم عليه الحُجَّة» اهـ. وروي عنه أيضًا أنه قال: «لو لم يَبْعَثِ الله رسولًا، لوجب على الخلق معرفته بعقولهم»، وهو الذي جرى عليه الشيخ أبو منصور الماتريدي واستدلّ بكثير من الآيات على ذلك، مِنها قول الله تعالى: ﴿بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُۚ﴾ أي قبل بعث الرُّسُل، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ فقال أبو منصور: «ففيه أن أهل الفترة معاقبون في حال فترتهم لأنه أخبر أن من نجا إنما نجا بهود، فدل أنهم معاقبون قبل بعث الرسل إليهم» اهـ، وتمسَّك أيضًا بقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَاۖ﴾ فقال: «دلالة أن أهل الفترة ومن كان فيما بين بعث الرسل لا عذر لهم في شيء لإبقاء الحجج والبراهين قبل أن يبعث ءاخر» اهـ، وغير ذلك من الآيات. وقد فسَّرت هذه الطائفة قول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ ولم يكن منا أن نُعَذِّبَ قومًا عذاب استئصال في الدنيا كعذاب قوم نوحٍ إلا بعد أن نرسل إليهم رسولًا يُلْزِمهم الحجة.

وجوبُ معرفة صفات الله على المكلف

يجب على كلّ مكلّف معرفة ما يجب لله تعالى وما يستحيل عليه وما يجوز في حقّه، والدّليل على وجوب معرفة هذه الصّفات على كلّ مكلّفٍ قَطعِيّ مفهوم من قول الله تعالى: ﴿ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ﴾ كما اتّفق عليه الأشاعرة والماتريديّة، وكذلك من قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، والإجماع قائم على ذلك، لكنّ أحدًا من العلماء لم يَقُلْ بوجوب حفظ ألفاظ هذه الصّفات وجوبًا عَينِيًّا وإنّما ذلك داخل في

الفروض الكفائيّة.

وقال بدر الدّين الزّركشيّ في تشنيف المسامع: «أوّلُ ما يجب على المكلّف كما قال الأشعريّ: العلم بالله ورسوله ودينِه لقوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ و ﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾. وهو قول عامّة أهل الحديث وسلَكُوا طريق السَّلَف. ولو قال الكافر: أَمْهِلُوني لأنظُرَ وأبحث فإنّه لا يُمهَل ولا يُنْظَر، ولكن يقال له: أَسْلِم في الحال وإلّا أنت مَعرُوض على السّيف، ولا أعلم في هذا خلافًا بين الفقهاء وقد نصّ عليه ابن سُرَيج» انتهى كلامه مختَصَرًا.

فإن قيل: كيف عرَفْتُم أنّ المراد بالآية ليس معرفة الإحاطةِ بالله وصفاته؟

قلنا: الشّرع لا يخالف قضيّات المعقول، فلو لم تكن معرفة الله تعالى ممكنة كان الخطاب مُحالًا. وقد أمرنا الله بهذه المعرفة فثبت أنّها ليست ممّا يمتنع عقلًا، فمَعرِفَتُنا له ليست الإدراك والإحاطة بذاته وصفاته على الحقيقة لأنّ ذلك ممتنع عقلًا وشرعًا إنّما هي معرفة وجوده وما يجب له وما يجوز وما يستحيل في حقّه.

وقال شهاب الدّين الرّمليّ في فتاويه الّتي جمعها ابنه شمس الدّين لَمّا سئل: ما معنى قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ مع أنّه عالم بذلك، فأجاب رحمه الله: «معناه اثْبُتْ على ما أنت عليه من العلم بالوحدانيّة، لأنّه كان يعلم ذلك قبل البعثة فأمره بالثّبات على ذلك العلم» انتهى من كلامه مختَصَرًا.

فكأنّه قال له: يا محمّد اثْبُتْ على ما أنت عليه مِن العِلم بالله. فهو ﷺ نشأ مؤمِنًا بالله مُلْهَمًا ذلك قبل النّبوّة مستدِلًّا عليه بالفكر في ملكوت السّماوات والأرض، فلم يكن يَعبُد الطّواغيت والأصنام قطّ كما كان يفعل قومه. ومثله قوله تعالى: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾، فهو لم يكن على الشّرك قطّ، فيكون المعنى اثْبُتْ على هجره وملازمة

الإسلام. وهذا الأسلوب اللّغويّ الّذي تضّمنته الآية شائع في كلام العرب، وقد نزل القرءان بلغتهم، وهذا عندهم كقول القائل لجالسٍ يريد القيام: اجلس أي لا تقم، يعني علمت ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

فمعنى الآية أنّ النبيّ ﷺ هو على الاعتقاد الصّحيح الرّاسخ الّذي لا يشكّ في أنّه حقّ، والآية تعطي معنى «اثْبُتْ على ما أنت عليه وتعرفه إلى الـمَمات»، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أي اثبت ودُمْ على تقوى الله الّتي أنت عليها.

ثمّ الخطاب وإن كان للنّبيّ عليه الصّلاة والسّلام فالمراد قومُه، وعليه فالضّمير في أنّه للشّأن، فهو لَمّا دعا القومَ إلى الإيمان ولم يؤمنوا ولم يبق شيء يحملهم على الإيمان إلّا ظهور الأمر بالبعث والنّشور، وكان ذلك ممّا يحزن النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام، سلّى الله قلبه وأمره بأن يثبت على ما هو عليه ولا يحزنه كفرهم، وليس معنى ذلك أنّه كان ضعيف الإيمان متزعزعه، وفي هذه الآية نظير ما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، فإذا كانوا مؤمنين فالأمر ليس بالإيمان بعد كفرٍ لأنّهم على الإيمان، إنّما المراد منها: يا أيّها المؤمنون دُومُوا على الإيمان في المستقبل واثبتوا عليه.

واعلم أنّه لا بدّ لصحّة العلم بالله وصفاته من حصول اعتقادٍ جازمٍ مُصَمَّمٍ لا يُخالِجُه شكّ، والدّليل على ذلك المطلوب قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، والشّاهد في الآية هو قوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، فثبت أنّ العلم بالله وصفاته يحصل بالجزم بذلك، سواء كان الجزم عن دليلٍ أو علمٍ ضروريّ.

وبعد الكلام على الدليل النقليّ في وجوب معرفة المكلَّفِ ما يجب لله تعالى وما يستحيل عليه وما يجوز في حَقِّه، سنبيّن بعون الله كل قسم على حِدَةٍ.

فيجب عليك أيُّها المكلَّف معرفة ما يَجِبُ (**مِنْ وَاجِبٍ**) أي ثابتٍ

عقلًا وشرعًا مِن الصِّفات (**للهِ**) وهي عند جمهور المتقدِّمين ثلاث عشرة صفةً، وأثبت القائلون بالأحوال (**عِـشْرِينَ صِفَهْ**) لله عزّ وجلّ أي الثلاث عشرة المتقدِّمة وسبعةً فوق ذلك، وهذا القول بالعشرين هو قول الباقِلّاني وكثير مِن متأخِّري الأشاعرة والمالكية.

وهذه الصفات العشرون يمكن ذِكرها على نحو البيان الآتي:

١- **الصِّفَةُ النَّفْسِيَّةُ**: مَا لَا يُتَعَقَّلُ ثُبُوتٌ للهِ بِدُونِهَا وَهِيَ **واحِدَة**: الوُجُودُ.

٢- **الصفات السلبية**: تنفي عن الله ما لا يليق به، وهي **أربعةٌ**: القدم أي الأزلية، ومخالفته تعالى للحوادث أي أنه لا يماثله شيء منها مطلقًا لا في الذات ولا في الصفات ولا في الأفعال، وقيامه تعالى بنفسه أي أنه غير مفتقرٍ إلى محلٍ ومخصصٍ، والوحدانية. وقد عَدَّها قومٌ **خمسةً** على اعتبار صفة البقاء مِنها.

٣- **وصفات المعاني**: ويقال لها أيضًا صفات الذات أو الصفات الذاتية: وسميت بذلك لأنها صفات قائمة بذات الله أي أشياء موجودة ثابتة له، وهذه صفات وجودية يصح رؤيتها لو كُشِف الحجاب عن العباد، وهي **ثمانٌ**: القدرة والإرادة والحياة والبقاءُ والسمع والبصر والكلام والعلم، وقد عَدَّها قومٌ **سبعةً** على اعتبار صفة البقاء مِن صِفات السَّلْب لا المعاني.

فهذه ثلاثَ عَشْرة صفةً واجبة لله تعالى مجمع عليها عند المسلمين عامة وخاصة.

وزاد بعض السلف: قديم بقِدَمٍ كريم بكَرمٍ جواد بجُودٍ، وعَدَّ عبد الله بن سعيدٍ الكُلّابي خمس عشرة صفة على غيرِ فرقٍ في تعبيره بين صفات الذات وصفات الأفعال، وهو خلاف ما عليه الجمهور في التفرقة بالتعبير بين صفات الذات وصفات الأفعال وتسمية كلٍ باسمها.

والصفات المعنوية: بناءً على مذهب الباقلاني ومتأخِرّي الأشاعرة

والمالكية بثبوت الأحوال، أي بثبوت صفاتٍ للذّات ملازمةٍ لصفات المعاني السبع، وغيرِهم مِمّن لا يقول بالأحوال، وهي عِندَهُم **سَبْعٌ كونه تعالى قادرًا ومُريدًا وحَيًّا وسميعًا وبصيرًا ومتكلمًا وعالِمًا.**

فهذه **عشرون صفةً** لله عز وجل: ثلاثَ عشرة صفة مجمعٌ عليها عند سلف الأمة وخلَفِها أنها واجبة لله عز وجل، وسبعة معنوية عند بعضٍ.

إثباتُ أزليّة صفات الله والردُّ على المعتزلة

لقد نفت طوائف تنتسب إلى الإسلام صفات الله تعالى، والإسلام منهم براء، واشتهر بذلك بعض فرق المعتزلة، فإنهم لما صعب الكلام عليهم ولم يقدروا على تقرير كثيرٍ من أُسُسِهِمُ الباطلة، لـجأوا إلى القول بأن «إثبات صفاتٍ أزلية قديمة قائمة بذات الله أي ثابتة له هو المنكر»، وقالوا: «لأن هذه الصفات إذا كانت موجوداتٍ وراء الذات المتصف بها، فإما أن تكون عين الذات وهو مذهبنا فيبطل قولكم، وإما أن تكون غير الذات فهي إما حادثة أو قديمة، وأنتم تنفون أنها حادثة، فإن كانت قديمة فقد شاركت الذات في القِدَم، قالوا: فهي ءالهة أخرى إذن»، انتهى كلام المعتزلة أخزاهم الله.

والجواب على ذلك مِن وَجْهَين بَيِّنَيْن بالحُجَج العقلية الهادِمة لمذهب المعتزلة:

الأوّل: يقال لهم: أنتم تنكرون وجود صفات أزلية، ونحن نُنْكِر عليكم إثبات مُتَّصِفٍ بلا صفة، فهذا إنكارٌ بإنكارٍ واستبعادٌ باستبعاد، فلا حُجَّة لكم علينا في ذلك.

الثاني: يقال لهم: دعواكم تقسيم الصفة إلى عين الذات أو غير الذات، هذا إنما يكون فيما يجوز كونه واقِعًا بين النفي والإثبات، فالتقسيم عندكم يتناول الكلام على غيرَين يصحُّ وجود أحدِهما وعدم الآخَر، وأنتم لا تقولون بعَدَم الإله، كما أنّكم لا تقولون بأنّه ليس

بقادر، فبطل مذهبكم.

٦- فَـاللهُ مَـوْجُـودٌ قَـدِيـمٌ بَـاقِـيْ مُـخَـالِـفٌ لِـلْـخَـلْـقِ بِـالإِطْـلاقِ

الوجود: صفة نفسيّة

(فَـاللهُ) تعالى (مَـوْجُـودٌ) لا شكَّ في وجوده، والوجود صفة له وليس الموجود اسمًا له بمعنَى أنّه لا يقال: فلانٌ عبد الموجود بمعنَى أنّه عبد الله، فوجود الله صِفَةٌ نَفْسِيَّةٌ له أي لَا يُتَعَقَّلُ ثُبُوتٌ للهِ بِدُونِهَا يعني لَا يَصِحُّ تَوَهُّمُ انْتِفَاءِ صفة الوجود لله مَعَ بَقَاءِ ذاته عزَّ وجلَّ بل ذاته موجود وصفاته ثابتة، وَالدليل على أنّ هذه الصِفَةَ وَاجِبَةٌ لِذَاتِهِ تَعَالَى بلا مبدإٍ بل بوجودٍ قديم هو أنّ وُجُودَهُ تَعَالَى لَيْسَ وجودًا مُعَلَّلًا بِعِلَّةٍ مَا، فَوُجُودُهُ تَعالَى هُوَ لِذَاتِهِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى شَيءٍ أَصْلًا، لَا لِعِلَّةٍ وَلَا لِمُؤَثِّرٍ مُعِينٍ أو مُسْتَقِلٍّ.

ولا يَصِحُّ عقلًا ولا شرعًا أن يقال: «هو مُؤَثِّرٌ بِنَفْسِهِ فِي نَفْسِهِ» لأنّ قُدْرَتَهُ تَعَالَى لَا تَتَعَلَّقُ بِالوَاجِبِ وَلَا بِالْمُسْتَحِيلِ، بل هو سُبْحَانَهُ مَوْجُودٌ أَزَلًا لَمْ يَسْبِقْهُ عَدَمٌ كما أنّه لا يَلْحَقُهُ فَنَاءٌ بِخِلَافِ غَيْرِهِ.

فاتضح مِما سبق أنّ وجوده تعالى ليس كوجود غيره، فهو شَيْءٌ لَا كَالْأَشْيَاءِ أَيْ مَوْجُودٌ لَا كَالْمَوْجُودَاتِ وَلَا يجوز أن يُقَالُ: جِسْمٌ لَا كَالأَجْسَام لأنّ فيه إثباتَ الجِسمِيّة لله وإن نُفِيَت بعد ذلك بقول «لا كالأجسام»، كما لا يجوز أن يقال عنه سبحانه: «مخلوقٌ لَا كَالْمَخْلُوقِينَ أو مُتَحَرِّكٌ لَا كَالْمُتَحَرِّكِينَ أو قَاعِدٌ لَا كَالْقَاعِدِينَ» بل كل ذلك كفرٌ وضلالٌ مُبِين، كما لا يَصِحُّ أن يُقال فيمَن قال عن الله: «جِسْمٌ لَا كَالأَجْسَامِ»: «لم يُرِد لوازم الجسمية فلا نُكَفِّرُهُ لأنّ القاعدة أنّ لازم المذهب ليس بمذهب»، بل هذا كلامٌ لا معنَى له في مثل هذا الموضع، لأنّ لازم المذهب ليس بمذهب إن لم يَكُن بَيِّنًا، واللازم هُنا بَيِّن أي قريب، ومثال ذلك أن تقول «الحمار» فإنّه يلزم من ذلك أن

يكون الإنسان غيره، وحينئذٍ لا يصحّ أن تقول: «أردتُ بالحمار الإنسانَ» لأنّ الحمار لا يأتي في اللغة بمعنى الإنسان، وقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ لِأَنَّ عَظَمَةَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ .

فالله تعالى شيء موجود لا يُشْبِهُ الأشياء، ووجوده تعالى بلا مكانٍ ولا جهةٍ خِلافًا لاعتقاد المجسّمة واليهود والنّصارى ومَن خالف الحقّ الّذي عليه ملايين المسلمين. فهو تعالى كان قبل العالم، ليس قبله شيء، وكان اللّه ولا زمان ولا مكان، فالزّمان وجد مع المتجدّد الأوّل والمكان وجد بوجود الماء الأوّل الّذي خلق الله منه كلّ شيءٍ.

واحتجّ أهل التّوحيد على أنّه تعالى موجود منزّه عَنِ الحَيّز والجِهة بأنّه تعالى لو حصل في حيّزٍ دون حيّزٍ لكان ذلك الحيّز الّذي حكم بِحُصوله أي وجوده فيه مُتَمَيِّزًا عن الحيّز الّذي حكم بأنّه غير حاصلٍ فيه، إذ لو لم يتميّز أحد الحيّزين عن الآخر لاستحال الحكم بأنّه تعالى وجد فيه ولم يوجد في الآخر، ثمّ إنّ امتياز أحد الحيّزين عن الآخر في نفسه يقتضي كون الحيّز أمْرًا موجودا لأنّ العدم المحض يمتنع أن يكون مشارًا إليه بالحسّ وأن يكون بعضه متميّزًا عن البعض في الحسّ، وأن يكون مَقْصِدًا للمتحرّك، فلو كان الله تعالى حاصِلًا في حيّزٍ لكان ذلك الحيّز موجُودًا، ولو كان ذلك الحيّز مَوجُودًا لكان شَيئًا ولكان مقدورًا لله، وإذا كان تحقّق ذلك الحيّز بقدرة الله وبإيجاده لزم أن يكون وجود اللّه في الأزل من غير حيّزٍ، والأزليّ لا يزول ألبتّة، فثبت أنّه تعالى مُنَزَّه عن الحيّز والمكان أزَلًا وأبَدًا.

ودلَّ القرءان الكريم على وجود الله في مواضع كثيرة جِدًّا، منها قوله تعالى: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ أي لا شَكَّ في وجود الله، وقال النبيّ ﷺ: «**كَانَ اللهُ وَلَم يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ**» رواه البخاريّ وغيره، ونقل الباقلّانيّ في الإنصاف إجماع الأمّة على أنّ الله موجود وهو وَحْدَهُ الخالق فقال:

«وأَجْمَعَتِ الأمّة على القول بأن لا خالق إلّا الله في الدّارَيْنِ كما أجمعوا أن لا إله غيره» اهـ.

مذهب القائلين بوَحدة الوجود والاتِّحاد

ليُعلَم أنّ الحَدَّ في الذوات هو الطرف والنهاية منها من جهة معيَّنة، ولذلك لا يجوز وصف الله تعالَى بأنّ له حُدودًا لأنّه سبحانه ليس بجِسم فيُحَدُّ. وقد توهَّم بعض الجهلة مِن هذا الكلام أنّ الله تعالى مُتَّحِدٌ مع العالم أو أنّه هو والعالم شيءٌ واحد، وهذا الكلام في غاية التفاهة والسقوط.

فقد زلت أقدام أقوام اعتقدوا اتحاد الله مع مخلوقاته بدعوى التوحيد، والتوحيد مِمّا انتهَوا إليه براء منهم، فقد أعرضوا عن الحقّ ووقعوا في الكفر زاعمين الغيرة على علم التوحيد، وهم في الحقيقة يقولون: «ليس في الكون إلا هو» يعنون الله، وهؤلاء يُسمَّون أهل الوحدة المطلقة، ويعتبِرون أنّ الله جملة العالم.

ومن هؤلاء من يَنتسب إلى نهج الصوفيّة، وأهل التصوّف الصادقون براءٌ مِن مثل هؤلاء الملحدين، فقد قال السيد أبو العَلَمين الإمام القُطب أحمد الرفاعي رضي الله عنه: «إياك والقولَ بالوَحْدة فإنه من الأباطيل»، وقال أيضًا: «لفظتان ثُلْمتان في الدِّين: القَول بالوحدة، والشَّطَح المجاوزُ حدَّ التَّحَدُّث بالنعمة».

وقد ذَمَّ الشيخ مُحيِي الدينِ بنُ عَرَبِيّ الدِّمشقِيُّ رضي الله عنه في كتابه «الفتوحات» عقيدة وَحْدة الوجود وعقيدة الحلول وقال قولًا شديدًا في هاتين العقيدتين، خِلاف ما يَنقل عنه بعض المصنِّفِين مِمّا ثبت عِند المحقِّقِين أنه مدسوس عليه، ونصُّ قولِه في «الفتوحات»: «من قال بالحلول فدِينُه مَعْلُول، وما قال بالاتِّحاد إلا أهل الإلحاد»، فكيف بعد هذا يُقال إنّ القول بوحدة الوجود هو قول السادة الصوفية، نعوذ بالله

مِن مَسخ القلوب.

القِدَم: صفة سلبيّة

قد مرّ الكلام على تقسيم الصفات إلى نفسية وسلبية وغير ذلك، فأمّا السلبيّة فهي التي تَنْفِي عَنِ اللهِ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ، واللهُ تعالَى **(قَـدِيمٌ)** أي أزليٌّ، والقِدَمُ في حقّ الله هو وجودُه بلا أوّليّةِ ابتداءٍ، وقد تقَدَّم الكلام على جواز إطلاق القديم على الله تعالى بمعنى الأزليّ، والمبحث هنا للكلام على صفة القِدَم الأزلية لله عزَّ وجلَّ.

وقد اتفق أهل الحقّ، أهل السنّة والجماعة، على أنّ الله تعالى قديم أي أزليٌّ ذاتًا وصفاتٍ، وهل القِدَم صفة وجودية زائدة على الذات أو لا، فالجمهور على الثاني وهو أنه تعالى قديم بنفسه لا بقِدَم زائد على ذاته[1]، وخالف في ذلك بعض المتكلِمين والأصوليين كعبد الله بن سعيد القَطَّان. وقال الأستاذ أبو إسحاق الأسفراييني: «المراد من قول ابن سعيد: «إن الله تعالى قديم بقِدَم» أنه مختص في قيامه بنفسه بمعنًى لأَجْلِه ثبت وجودُه لا في مكان، كما اختص المتحيِّزُ بمعنًى لأجْلِه كان مختصًّا بالحَيِّز» اهـ، وأجاب الآمِديّ والاجِيّ بأنّ هذا التفسير بعيدٌ بسبب بُعْدِ التوجيه عن دلالة لفظ القديم، فالقِدَم يَرْجِعُ حاصِلُه إلى صفة نَفْيٍ وهي وجودُه لا في مكان، والصفات السَّلْبِية لا تُعَلَّل، بخلاف الصفات الثبوتية.

والدليل العقليّ على وجوب الأزليّة لله تعالى أنه لو كان عزّ وجلّ حادثًا ولم يكن قديمًا لاحتاج إلى مُحْدِث أي مخصِّص، وبيان ذلك أنّه لو لم يكن قديمًا لكان حادثًا لأنّ الموجود إمّا قديم - وهو الخالق - وإمّا حادث - وهو المخلوق - فلو كان أحد الوصفين منتفيًا عنه يكون

(١) انظر أبكار الأفكار، الآمدي، (١/ ٤٥٠).

الآخر متعيّنًا، والحدوث على الله عز وجل محالٌ لأنه يستلزم أن يكون له مُحْدِثٌ لأجْل أَنَّ كل حادث لا بُدَّ له مِن مُحْدِث، فيُنْقَل الكلام عندئذٍ إلى ذلك الْمُحْدِث، فإن قيل: كان قديمًا فهو المراد من هذا الاستدلال، وإن قيل: ليس قديمًا فهو حادثٌ إذن ويفتقر هذا الْمُحْدِث عندئذ إلى مُحدِثٍ غيره وهكذا لا إلى أوّل، وهذا هو عين التسلسل المحال، لأنّ ما فُرِضَ تسلسلُهُ إلى ما لا نهاية في جهة الماضي فإنّه يَلزم منه عدم حصول حادثٍ، وهو نقيض الواقع الذي يشهد له الحِسُّ وإلا لأدَّى ذلك إلى السفسطة[1]، فوجود حوادث لا أول لها يستلزم استحالة وجود الحادث الحاضر، كما أنّ القول بالتسلسل يؤدي إلى القول بفراغ ما لا نهاية له، وهذا باطلٌ لأنه لا يعقل أن ينقضيَ ما لا ينقضي، وإن قيل: بل الأمر ينتهي إلى عدد مُتَناهٍ، قلنا: يلزم على ذلك تَقَدُّم الشيء على نفسه وتأخُّرُه عنها معًا، وبيان ذلك أن يُفْرَضَ كون الْمُوجِد موجودًا قبل نفسه لإيجاد نفسه، وهذا هو الدَّوْر المحال أيضًا، واذا كان الحدوث يؤدِّي إلى الدَّوْر أو التسلسل الْمُحَالَين لَزِم أن يكون ذلك مُحَالًا، فثبت بذلك أنه لا بُدّ من الانتهاء إلى القول بوجود قديم خالق مُوجِد مُخَصِّص لكُلِّ حادِثٍ، وقد عرفنا أنّ اسمه الله عن طريق الأنبياء.

وقد دلَّ قول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ على أنّ الله تعالى مُستَحِقٌّ لصفة الأزليّة التي لا يشاركه فيها أحدٌ، لأنّه تعالى كان قبل كل شيء بلا حَدٍّ ولا ابتداء، وكان هو ولا شيء موجود معه في الأزل، ولذلك لا يجوز تَوَهُّم أنَّ الأزل شيء مِن مقادير الزمان قد حصل وجود ذاتِ الله فيه، بل هذا باطل كُفرٌ وهو عين التشبيه وضِدُّ التوحيد الذي عليه المسلمون مِن ءادم إلى نهاية الدُّنيا، إذ لو كان الأمر كذلك لكان ذاتُ

(١) قياسٌ مؤلَّفٌ من الوهميَّات، كحكمِ الفلسفي بأنَّ وراء العالمِ فضاءٌ لا يتناهى.

الله مُفتقِرًا إلى ذلك التقدير الزَّمانِيّ ومحتاجًا إليه لِيُوجَد، وهذا محال عقلًا ونقلًا، بل المراد مِن الآية ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ﴾ أنّ وجودَ الله لا أوَّل له ألبتَّة.

وقد رَوى ابْنُ حِبَّانَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: جَاءَتْ فَاطِمَةُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ تَسْأَلُهُ خَادِمًا، فَقَالَ لَهَا: «**قُولِي: اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، أَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، مُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ** الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ»، وَلِمُسْلِمٍ وَالتِّرْمِذِيِّ وَأَبِي دَاوُدَ رِوَايَاتٌ بِأَلْفَاظٍ مُتَقَارِبَةٍ، والشاهد في الحديث قوله: «**أَنْتَ الْأَوَّلُ**» أي الأزليّ ويدلُّ على ذلك شرحه لها بقوله «**فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ**» فالوارد اللاحق قد فسَّر اللفظ السابق في الحديث، وهذا خير ما يُفَسَّر به كما قال زين الدين العراقيّ في ألفية الحديث: «وَخَيْرُ مَا فَسَّرْتَهُ بِالْوَارِدِ»، فإن كان الوارد في حديث ءاخَر يجوز كونُه مُفَسِّرًا، فكيف إذا كان المفسِّر من الحديث نفسه.

ويُستفاد مِن الدليلَين النقلِيَّين السابقَين الآتي:

- قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ﴾: فالضمير «هو» مبتدأ ولفظ الجلالة «الله» خَبَرٌ، وكلاهما أي الضمير ولفظ الجلالة مَعْرِفَةٌ فاقتضَى الحَصْر أي الدِلالة على أنّ الأوليّة المطلقة التي هي الأزلية بمعنى عدم المبدإ نعتٌ خاصّ بالله.

- وقال ﷺ: «**أَنْتَ الأَوَّلُ**»: وذلك مُفِيدٌ لِلْحَصْرِ أيضًا لِتَعْرِيفِ الْخَبَرِ بِاللَّامِ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: أَنْتَ مُخْتَصٌّ بِالْأَوَّلِيَّةِ، فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، قالَهُ مُلّا عليّ والطِّيبيّ.

واختَلف المتكلِّمون والأصوليون هل «القديم» و«الأزلي» بمعنى واحد

أو مختلفان:

فذهب الأكثرون إلى القول إنّهما بمعنًى واحد، وعرّفوهما بقولهم: ما لا أَوَّل له، أي القديم والأزلي هو الموجود الذي لا أوَّل له، وهو ذات الله وصفاته، وعليه فلا بأس بقول ذاته «أزليٌّ» وذاته قديم، وكذلك صفاته أزلية وصفاته قديمة، وإن كان بعضهم قد عَمّم إطلاق الأزلي على الذات والصفات وحصر إطلاق القديم على الذات دون الصفات، بل الصواب ما نقلناه وذهب إليه الأكثرون وهو الذي كان عليه الشيخ أبو الحسن الأشعري قدّس لله سِرّه الطاهر ونقله عنه الحافظ الزبيدي في الإحياء، عن أبي منصور البغداديّ نقلًا عن مذهب الأشعريّ في ذلك، ونصُّ عبارته: «وقال أبو منصور التميميّ: اختلف المتكلمون هل يجوز إطلاق وصف القديم عليه تعالى وفي معناه على أربعة مذاهب: وكان شيخنا الأشعريّ يقول إنّ معناه المتقَدِّمُ في الوجود على ما يكون بعده، والتقَدُّم نوعان:

- تقَدُّمٌ بلا ابتداء: كتَقدُّمه تعالى وصفاتِه القائمة بذاته على الحوادث كُلِّها.

- وتقَدُّمٌ بغايةٍ: كتقَدُّمِ بعض الحوادث على بعضٍ.

وأجاز (يعني الأشعريَّ) إطلاقَ وصف القديم عليه تعالى وعلى صفاته الأزليّة، وقال: إنّ القديم قديمٌ لِنَفْسه لا لِمَعْنًى يقوم به، فلا ننكر وصف صفاتِه الأزليةِ بهذا الوصف، كما لم ننكر وصفَها بالوجود إذْ كان موجودًا لِنَفسه [انتهى نقل أبي منصور عن الإمام الأشعري]» اهـ كلام الزبِيديّ بحروفه.

ثم تكلَّم أهل الأصول والمتكلِّمون على لفظ «الواحِد» في حَقِّ الله هل يدلُّ على معنى القديم أي الأزليّ؟ وما هو تفسير قول بعض الأصوليين: «القديم بالإطلاق لا يكون إلا واحِدًا»؟

فأجاب الحليميّ عن ذلك في منهاجه قائلًا: «معنى الواحدِ [في حقِّ

الله] القديمُ، فإذا قلنا الواحدُ، فإنما يُراد به الذي لا يمكن أن يكون أكثر من واحد، والذي لا يمكن أن يكون أكثر من واحد هو القديم، لأنّ القديمَ بالإطلاقِ السابق للموجودات، و]الأكثر من واحدٍ[مهما كان قديمًا كان كلٌّ واحد منهما غيرَ سابق بالإطلاق، لأنه إن سَبَق غير صاحبه فليس بسابق لصاحبه وهو موجود كوجوده، فيكون إذًا قديمًا مِن وجه غيرَ قديم من وجه، ويكون القِدَم وصفًا لهما معًا ولا يكون وصفًا لهما معًا، ولا يكون وصفًا لِكُلّ واحد منهما، فثبت أن القديم بالإطلاق لا يكون إلا واحِدًا، فالواحد إذًا هو القديم الذي لا يمكن أن يكون إلا واحدًا» اهـ.

وزيادةً على ما سبق نقول: إن الله تعالى واجب الوجود فلا يتصف بأنه في زمان أو في مكان كما دلَّت عليه الآية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، وكما دلَّ العقل على استحالة أن يكون الله مقيَّدًا بالزَّمان وذلك لأن الزمان مقارنةٌ وتقديرٌ أي هو أمرٌ يُقَدِّره المقدِّر ويفرضه الفارض من مقارنة موجود لموجود، فلا مقارنة ولا مناسبة بين الخالق والمخلوق، ويتضّح بيان معنى المقارنة بين موجودَين ما ذُكِرَ في التعريف السابق للزمان فيما لَو قيل: «كان كذا وقت طلوع الشمس» أي أنه قارن وجوده طلوعها، فيستحيل أن يكون التناسُب والمقارنة مع المخلوق جائزًا في حقِّ الله الخالق الواجبِ الوجود، وذلك ممنوع على أيّ تعريف مِن تعاريف الزمان التي ذهب إليها المتكلِّمون والفلاسفة وغيرهم:

- سواءٌ قيل: إنّ الزمان جوهر لا هو جسماني حالٌّ في الجسم ولا هو جِسم في ذاته، كما اختاره الفخر الرازيّ في بعض كُتُبه.

- أو قيل: إنّه فلك معدل النهار يكون على ذلك جوهرًا.

- أو قيل: إنّ جنس الزمان مِقدار حركة الفلك الأعظم، كما ذهب إليه أرِسطو اليونانيّ ومَن تَبِعه من أضراب الفلاسفة الضالِّين عن الحقّ.

– أو قيل، على اختيار كثير من الأصوليين والمتكلمين مِن أهل السنّة وهو الذي ذكرناه، إنّه مقارنة وتقدير الخ.

فكل ذلك يستحيل اتّصاف ذات الله وصفاتِه به لذاته، وعليهِ فلا يجوز لنا وصفُه تعالَى به بل إضافة الزمان إلى الله إضافة تقييد له به هو كُفرٌ وإلحادٌ وتشبيه صريح، فالله تعالى ليس مُقَيَّدًا بالزمان، فهو تعالَى كان قبل بدء الزّمان لأنّه كان قبل كلِّ شيءٍ مِن الحادثات، ولا زمان مقَدَّرٌ بدون مقارنة وجودٍ للحادِثات، فاتَّضَح لصاحب الفهم السليم بساطع الدليل العقليّ أنّ الله تعالَى موجودٌ ليس لوجوده بداية لأنه قديم بالذات والصفات، ولا ابتداء لوجوده لأنه يمتنع أن يسبق وجودَه عدم وهذا مِن أسهل ما يَدخل إلى قلب المرء قريب العهد بالإسلام فمَن فوقَه إذا سَلَّم للحقّ مِن دون تكييف ولا تصوُّر، والْمَهديُّ مَن هداه الله.

مسألة استطرادية: اللُّزوم البيِّن واللُّزوم الخفيّ

وقد أسهَبْنا في الكلام على مسألة الزمان وتنزيه الله عن التقيُّد بالزمان لأنّه قد تَصَوَّرَ بعض الجُهّال أن وجود الله تعالى زمانيٌّ وأنَّ التَّغَيُّرات لم تزل تطرأ عليه، وما هذا إلا تشبيه في حَقِّ الله تعالَى وهو كُفرٌ، فضلًا عن اعتبار القائلين بذلك أنه صفة كمال لله، والعياذ بالله تعالى، كما أسهَبْنا في الكلام على تكفير بعض الناس باللفظ الصريح اللازم لزومًا بيّنًا كقول بعض الجُهّال: «يا ربِّ غَيِّر لي ما قَدَّرْتَ لِي من رِزقٍ في الدُّنيا ونحو ذلك» فهذا القائل كافِرٌ بالله لأنّه كالذي يقول: «إنّ الله تعالى يطرأ عليه تغيُّرٌ»، والتغيُّر هو حالةٌ جديدةٌ لا بُدَّ أن تقترن بزمانٍ تقديرًا لأنّها لاحقةٌ لسابقةٍ، والله تعالَى لا سابق له في ذاته وصفاته لأنّ ذاته وصفاتِه كُلٌّ أزليّ، وسَبْق الأزليّ على الأزليّ مُحالٌ عَقْلًا ونَقْلًا، فتكفير قائل هذا الكلام هو مِن قَبيل التكفير باللازِم القريب أي البَيِّن الذي لا مجال للفِرار مِنه، فهذا مَثَلُه كمَثَلِ الذي يقول عن الله «جِسم لا كالأجسام» وهو يفهم معنَى الجسم وليس أنّ معناه الموجود فقط، وقد أعمَى الله قلوب بعض المتعالِمِين الذين خلَطوا بين اللازم البَيِّن وضِدِّه فدفعوا التكفير عمَّن يقول عن الله «جِسم لا كالأجسام» مع كونه يفهم أنّ الجسم هو المخلوق الحادث، فهؤلاء يهدِمون قواعد الدِّين، وعليهم من الله ما يَستحِقُّون.

ولسنا أوّل مَن يقول بذلك، بل سبقنا إليه فقهاء وأصوليون في الأزمنة الماضية؛ فقد قال الشيخ الدردير في الشرح الكبير ما نصُّه: «بَابٌ فِي الرِّدَّةِ وَأَحْكَامِهَا: الرِّدَّةُ كُفْرُ الْمُسْلِمِ الْمُتَقَرَّرِ إسْلَامُهُ بِالنُّطْقِ بِالشَّهَادَتَيْنِ مُخْتَارًا وَيَكُونُ بِأَحَدِ أُمُورٍ ثَلَاثَةٍ بِصَرِيحٍ مِنْ الْقَوْلِ كَقَوْلِهِ أُشْرِكُ أَوْ أَكْفُرُ بِاَللَّهِ أَوْ لَفْظ أَي قَوْلٍ يَقْتَضِيهِ كَقَوْلِهِ اللَّهُ جِسْمٌ مُتَحَيِّزٌ وَكَجَحْدِهِ حُكْمًا عُلِمَ مِنْ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ كَوُجُوبِ الصَّلَاةِ وَحُرْمَةِ الزِّنَا

أَوْ فِعْلٍ يَتَضَمَّنُهُ أَيْ يَقْتَضِي الْكُفْرَ وَيَسْتَلْزِمُهُ اسْتِلْزَامًا بَيِّنًا» اهـ.

قال الدسوقي في حاشيته عليه: قَوْلُهُ: «وَيَسْتَلْزِمُ إِلَخْ» أَيْ وَأَمَّا قَوْلُهُمْ لَازِمُ الْمَذْهَبِ لَيْسَ بِمَذْهَبٍ فَمَحْمُولٌ عَلَى اللَّازِمِ الْخَفِيِّ.

وقال الصاوي المالكيّ في حاشيته على الشرح الصغير للدرير: «فَلِذَلِكَ قَالَ الشَّارِحُ: أَيْ يَسْتَلْزِمُهُ وَلَا يَرِدُ عَلَيْنَا قَوْلُهُمْ لَازِمُ الْمَذْهَبِ لَيْسَ بِمَذْهَبٍ لِأَنَّهُ فِي اللَّازِمِ الْخَفِيِّ» اهـ.

وقال العدوي والدسوقي في حاشيتهما على شرح الخرشيّ على مختصر خليل: قَوْلُهُ: «إِلَّا أَنْ يُقَالَ لَازِمُ الْمَذْهَبِ لَيْسَ بِمَذْهَبٍ» ظَاهِرُهُ وَلَوْ بَيَّنا، مَعَ أَنَّ اللَّازِمَ إِذَا كَانَ بَيِّنًا يَكُونُ كُفْرًا، وَلَا يَخْفَى أَنَّ اللَّازِمَ هُنَا بَيِّنٌ، فَلْيُنْظَرْ ذَلِكَ.

وقال الشيخ علّيش المالكي: «وَلِأَنَّ لَازِمَ الْمَذْهَبِ لَيْسَ مَذْهَبًا إِذَا لَمْ يَكُنْ بَيِّنًا» اهـ.

وقال ابن العَطّار في حاشيته على شرح المحلّي على جمع الجوامع: «مَعَ أَنَّ لَازِمَ الْمَذْهَبِ لَا يُعَدُّ مَذْهَبًا إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَازِمًا بَيِّنًا فَإِنَّهُ يُعَدُّ» اهـ.

وقال مفتي المالكية بمكّة الشيخ محمد بن عليّ بن حسين (ت ١٣٧٦هـ) في تهذيب الفروق: «وَلَازِمُ الْمَذْهَبِ لَيْسَ بِمَذْهَبٍ إِذَا لَمْ يَكُنِ اللُّزُومُ بَيِّنًا» اهـ.

البقاء: صفة معنًى

واللهُ تعالَى هو الـ(**بَاقِي**) أي المتصف بالبقاء الأزلي وهو عدم الانقضاء والفناء، وقد تقدَّم الكلام على اسم الله الباقي، وأمّا الكلام هنا فهو على صفة البقاء الأزلية لله تعالى.

فالبقاء لله صفة معنًى لله متصفٌ بها أزلًا، والمشهور عن الإمام أبي الحسن الأشعري وأكثر القدماء من أتباعه أن البقاء صفة معنًى أي من

صفات المعاني، وعليه فإنهم يَعُدُّون صفات المعاني ثمانيةً والصفات السلبية أربعةً والوجود صفةً نفسيةً، والمشهور عند جمع من المتكلمين المتأخرين أنها صفة سلبية كالقِدَم. وذهب قوم إلى أن القِدَم سلبي والبقاء وجودي، ونقل عن القاضي أبي بكر الباقلاني أن البقاء صفة نفسية كصفة الوجود، وهو الذي عليه المعتزلة أيضًا وقد ذكره الآمدي في الأبكار ونقله عن الأشعري، وضعَّفه ءاخَرون وصحَّحوا أنّ الأقوى عن الأشعريّ أنه البقاء من صفات المعاني.

والبقاء في اللُّغة ثبات الشيء على حاله الأولى - كما عرَّفَه الراغب الأصبهاني - وهو يُضادّ الفناء، وقد جاء في حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: «بَقَيْنا[1] رسولَ الله ﷺ في صلاة العتمة» أي انتظرناه، والله هو الباقي بنفسه لا إلى مدة ونهاية إذ هو البارئ تعالى الذي لا يجوز عليه الفناء. ويُطلَق البقاء في اللغة بمعنى ءاخر وهو مقارنة الوجود لزمانين فصاعدًا، قاله الحافظ الزبيدي، وهذا محال في حقه تعالى لِمَا عُلِمَ من استحالة تقييد وجود الله تعالى بالزمان.

ونصوص الشرع مملوءة بما يُثبِت بقاء الله عزَّ وجل وأنه يستحيل عليه الفناء تبارك وتعالى:

- **من القرءان:** ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾: **قال الضحّاك:** «**القيوم الدائم الوجود الذي يمتنع عليه التغير**» اهـ. والزوال الذي يلحق الموجود فيخرج به الشيء من الوجود إلى العدم لا يجوز على الله سبحانه، لأن التغير من حال إلى حال هو من أمارات الحدوث، والتغير تخصيص في المغيَّر وهو أمر لا يحصل إلا بمخصِّص له بالعدم بدل الوجود.

وكذلك قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ۝٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ

(١) قال في عمدة القاري: بفتح القاف أي انتظرناه، يقال: بقيت الرجل أبقيته إذا انتظرته اهـ.

﴿وَٱلۡإِكۡرَامِ ٢٧﴾ أي يبقى ذات الله، ولا يصّح حمل «الوجه» هنا على معنى الثواب، لأنّه لو كان أراد بالوجه الثواب لَمَا وصفه بأنه ذو الجلال والإكرام، لأن هذا الوصف هو لله تعالى. ولو كان الوصف بذي الجلال والإكرام عائد على «ربك» أيضًا لقال: «ذي الجلال والإكرام» بخفض «ذو» بالياء، ويؤيد ذلك ما نقله الإمام أبو عمرو الداني في «جامع البيان في القراءات السبع» ونصه: «وأجمعوا على أن بعد الذال واوًا في الحرف الأول وهو قوله: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٢٧﴾ نعتًا للوجه، واتفقت مصاحف الأمصار على ذلك» اهـ، فثبت بذلك أن ذات الله لا يفنى ولا يزول، موصوف بالبقاء الذاتي، فحياته ليست كحياة الحادثات.

- **ومن الحديث**: روى الترمذي في جامعه وابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن لله تسعةً وتسعين اسمًا مائةً إلا واحدًا**» إلى أن قال: «**الباقي**» فذلك يفيد معنى كونه باقيًا وأن له بقاءً هو صفةٌ له، لأن مَن وُصِفَ بكونه باقيًا فقد ثبت له البقاء، وما لا بقاء له لا يكون باقيًا بحال، لأن الموجود لو كان باقيًا بلا بقاء لكان مستغنيًا عن القدرة ولوجب منه أن يكون كل موجود في أول حال وجوده قديمًا، والمحدث لا يجوز أن يكون قديمًا بحال، وفي هذا الردّ هدم لشبهة مِن شُبَه المعتزلة في قولهم بنفي الصفات فرارًا منهم على زعمهم من القول بتعدُّد القدماء.

وروى مسلم في صحيحه والبخاري في الأدب المفرد والترمذي في الجامع وغيرهم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه كان يقول إذا أوى إلى فراشه: «**اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَرَبَّ الأَرْضِ وَرَبَّ العَرْشِ العَظِيم، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيءٍ، فَالِقَ الحَبِّ وَالنَّوَى، وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِن شَرِّ كُلِّ شَيءٍ أَنْتَ ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ**

فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيءٌ، وَأَنْتَ البَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّينَ وأَغْنِنَا مِنَ الفَقْرِ». فقوله ﷺ: «**وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيءٌ**» هو دليل صريح على أن الله تعالى هو الباقي الذي لا انتهاء ولا انقضاء لوجوده وأنّ بقاءَه ذاتيٌّ، وأما بقاء الجنة والنار إلى ما لا نهاية له فليس ذاتيًا وإنما ذلك بإبقاء الله لـهما.

- **ومن الإجماع**: ومِمَّن نقله أبو بكر الكلاباذي في كتاب «التَّعَرُّف» ونصُّه: «وأجمعوا على أنه لا تدركه العيون ولا تهجم عليه الظنون ولا تتغير صفاته ولا تتبدل أسماؤه، لم يزل كذلك ولا يزال كذلك هو الأول والآخر» اهـ، ومثله نقل الباقلاني في «الإنصاف».

مسألة مهمّة في الكلام على صفة البقاء

هذا مبحث أعرض فيه أقوال بعض المتكلِّمين في كلامهم على قضيَّتين تتعلقان بصفة البقاء:

الأولى: هل البقاء صفة زائدة على الذات أو أنّ البقاء استمرار الوجود؟

فقد قال أبو القاسم الأنصاري في شرح الإرشاد ما نصُّه: «قال الإمام - يعني الجوينيّ - ذهب القدماء من أئمتنا إلى أن البقاء صفة للباقي زائدة على الوجود بمثابة العلم في حق العالم، والذي أرتضيه أن البقاء يرجع إلى نفس الوجود المستمِرّ»، ثم قال: «وذهب شيخنا أبو الحسن ومعظم أصحابه إلى أنّ البقاء معنًى وأن الباقي بمثابة العالِم والقادر في أنهما يقتضيان علمًا وقدرة وليس كالموجود الذي هو موجود لنفسه» اهـ.

وقد ذهب المتولّي ذلك المذهب من قبلُ أيضًا فقال: «والصحيح أن البقاء ليس بمعنى زائد على الذات ولكن البقاء استمرار الوجود، والدليل عليه أنّا نصف الصفات الأزلية بالبقاء، ولو كان البقاء معنًى

لَمَا وَصَفَ به الصفات لاستحالة قيام المعنى بالمعنى[1]، ولأنّا لو أثبتنا بقاء قديمًا لزمنا أن نصفه ببقاء ءاخر فيتسلسل ذلك» اهـ.

ويوضح ما ذكره المتولّي قولُ الآمِديّ في «غاية المرام» ما نصُّه: «ولو كان البقاء صفةً زائدة على نفس الوجود، فإمّا أن يكون موجودًا أو معدومًا، فإن كان معدومًا فلا صفة، وإن كان موجودًا لزم أن يكون له بقاء وإلا فلا يكون مستمِرًّا وذلك في صفات البارئ تعالى مُحَال، وإن كان له بقاء فالكلام في ذلك البقاء كالكلام في الأوّل وهلُمَّ جَرًّا وذلك يُفضِي إلى ما لا نهاية له وهو محال، ثم يلزم منه أن يكون البقاء قائمًا بالبقاء وذلك ممتنع.. فإذًا ليس البقاء صفة زائدة على نفس الباقي» اهـ.

الثانية: صفات الله باقية ببقاء ذاته:

صفات الله تعالى باقية ببقاء ذاته، فإن البقاء ثابت للذات وللصفات: فعلمه تعالى وقدرته وسائر صفاته باقية وبقاؤها هو استمرار وجودها واستحالة زوالها وفنائها.

فإن قال قائل: «لو كانت الصفات باقية ببقاء الذات لكانت عالِمةً بعِلْمِه قادرةً بقدرته إلى غير ذلك».

قلنا: ذلك مدفوع بأنّه كما لا يقال عن العِلم إنّه هو القادر فلا يقال البقاء هو القادر أيضًا.

واختُلِف عن الأشعريّ في هذه المسألة، فنقل الآمديّ أنّه تارةً قال: الله تعالى وصفاته باقية ببقاء واحد، وتارة قال: هو تعالى باق ببقاء قائم به، وكل صفة من صفاته باقية ببقاء هو نفسها. وهذا التعبير الثاني هو معنَى قولنا السابق: «صفات الله باقية ببقاء ذاته».

(١) أي منْع القول بأنّ البقاء وصف، وأنَّ هذا البقاء متصف بنعت البقاء لأنّ هذا يؤدي إلى وصف الصفة بصفة أخرى على هذا التعليل.

وقال الفقيه المتكلِّم ابن فورك في كتابه «مقالات الأشعري» ما نصه: «وكان - أي الاشعريّ - يحيل أن يبقى أعراض الجسم ببقاء قائم بالجسم، ويجيز أن تكون صفات البارئ تعالى باقية ببقاء قائم بالبارئ عزّ وجلّ، ويفرق بين الأمرين بأنه لو كانت أعراض الجسم باقية ببقاء قائم بالجسم استحال أن يتبَدَّل مع بقاء الجسم، فلمَّا وَجَدْنا أعراض الجسم تتبدل وتتغير مع بقاء الجسم دلَّ ذلك على أن بقاء الجسم لا يكون بقاء لأعراضه، ولما كانت صفات البارئ باقية ببقاء واجبًا وجودها بوجوده ولم يجز أن يتبدل ويتغير مع بقاء البارئ تعالى جاز أن تكون باقية ببقائه» اهـ.

المخالفة للحوادث: صفة سلبيّة

واللهُ سبحانه وتعالى (**مُخَالِفٌ لِلْخَلْقِ**) أي لا يشبه الخَلْقَ (**بِالإِطْلَاقِ**) بوجهٍ من الوجوه، والمخالفة للحوادث صفة سلبيّة من صفات الله التي تنفي عنه المشابهة لغيره في الذات والصفات والأفعال. فالله تعالى مخالف لكل مخلوق من إنس وجن ومَلَك وغيرها، فلا يصح اتصافه تعالى بأوصاف الحوادث من مشيٍ وقعود وجوارح وغير ذلك، فهو تعالى منَزَّه عن الجوارح من فمٍ وعين وأذن وغيرِها، وكل ما خطر ببالك من طول وعرض وقصر وسِمَنٍ فالله تعالى بخلافه، تنزه اللهُ تعالى عن جميع أوصاف الخلق.

فالواجب على كل مكلَّفٍ اعتقاد أنه تعالى لا شبيه له ولا مثيل في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، لأنه تعالى لو أشبهه شيء من المخلوقات لكان مُشْبِهًا له وجائزًا عليه الفناء الجائز على المخلوقات، ولزم كونه خالقًا ومخلوقًا وقديمًا وحادثًا، وذلك محال.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ وهذه أصرح ءاية في تنزيه الله عن مشابهة شيء من المخلوقات، ففي أوّلِها رد على

المجسمة وفي ءاخرها رَدٌّ على المعطِّلة، فنفى في أوَّلها مشابهة شيء من العالم بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ وأثبت لذاته الصفات في الجزء الثاني من الآية بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، وقدم فيها النفي على الإثبات وإن كان الوارد العكسَ في أماكن كثيرة، لأنه لو قَدَّم الإثبات فيها لرُبَّما توَهَّم الجاهل تشبيه الله بالمخلوق إذ المخلوق سَمْعُه بأُذن وبصَرُه بحدقة، فقَدَّم تعالَى التنزيه ليعرف السامع ابتداءً أنه ليس مشابهًا لشيء من الحوادث، وهذه الآية دليل قاطع على مخالفته تعالى لسائر الحوادث وهي أقمع ءاية للشيطان عند تَعَرُّضِه للإنسان في مقام البحث عن حقيقة ذات البارئ وصفاته.

قال الحافظ الزبيديّ: «اعلم أنّ أهل مِلّة الإسلام قد أطلقوا جميعًا القول بأن صانع العالم لا يشبه شيئًا من العالم وأنه ليس له شِبهٌ ولا مِثلٌ ولا ضد، وأنه سبحانه موجود بلا تشبيه ولا تعطيل» اهـ.

وأمّا الكلام في معرفة حدّ المشابَهة، فقد قالت الأشاعرة: إن المتشابهَين والمثلَين هما غيران يَسُدُّ كل واحد منهما مَسَدّ صاحبه، ودليل تقييد الحد بالمغايرة أن الشيء لا يشبه نفسه ولا يماثله فدلّ أن ذلك إنما هو بين المتغايرين. وإنما قالوا: «يَسُدُّ كل واحد منهما مسَدّ صاحبه» لأن ما لا يَسُد مَسَدَّ صاحبه لا يُعَدُّ مِثلًا له وإن كانت بينهما موافقَة في أوصاف كثيرة، كالسواد مع البياض فإنهما ليسَا بِمِثلَين وإن كان كل واحد منهما موجودًا وعَرضًا ولونًا أي من جملة الحوادث، فدَلّ أنه لا مماثلة بينهما مع ثبوت المخالفة بوجه من الوجوه. وقد ذهب بعض المتكلِّمين - من باب التجوُّز - إلى ذكر المماثلة بين شيئين لا يَسُدُّ أحدُهما مَسَدَّ الآخر مع أنّه يوجد بينهما مشابهة في بعض الأوصاف، وهذا يُسَمَّى مماثلة نسبية.

ومِمّا يدُلُّ عقلًا على عدم مشابهة الله لشيء من الحادثات مسالِك كثيرة في الحِجاج، منها أن يقال: إن الأجسام متساوية فيما يجب لها

وهو الحدوث، ومتساوية فيما يجوز عليها كالحركة والسكون، وفيما يستحيل عليها كالأزليّة. فلو قيل: إن الله مماثل للأجسام، لوجب أن يصح عليه ما يصحّ على غيره، وهذا يعني كونه تعالى متصفًا بالعلم والقدرة والإرادة جائز لا واجب، وأنه يلزم حصول هذه الصفات لفاعل ءاخر، وذلك على الله الواجب الوجود محال لذاته.

ثم إنّه يكفي في الاستدلال على تماثل الأجسام، أن يقال: لا شك في اختصاص الجسم بأمر ما يمايِزُ به الجسم الآخر، والدليل قائم على إمكان الجسم وإمكان صفاته أي أن لا يكون عدمه مرجَّحًا على وجوده لذاته ولا وجوده كذلك إلا أن يُرَجِّحَ ذلك مُرَجِّحٌ ومُخَصِّصٌ لذلك الجسم بالوجود بدل العدم. فلو كان البارئ تعالى مشابِهًا لشيء لكان له حُكمُه، وحكم المثلين الاستواء فيما يجب ويجوز ويستحيل، كما قدَّمْنا، فيلزم على هذا إمكان وجودِه وإمكان صفاته لا وجوب وجوده ووجوب وجودها.

وأمّا الدليل من النصوص الشرعية على مخالفة الله للحوادث فكثيرة، منها:

- **من القرءان:** ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ **وقد مرّ الكلام عليها، و**﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ أي مَثِيلًا وشَبِيهًا، والمعنى أنّه ليس له ذلك. ولو كان الله جسمًا متحيِّزًا لكان مشابِهًا للأجسام في الجِسميّة وغيرها من صفاتها، وَلَكان مشاركًا لسائر الأجسام في عموم الجسمية، فعند ذلك لا يخلو إما أن يكون مخالِفًا في خصوص ذاته المخصوص وإما أن لا يكون، فإن كان الأوَّل فما به المشاركة غير ما به الممايزة، فعموم كونه جسمًا مغاير لخصوص ذاته المخصوص، وهذا محال، لأنَّا إذا وصفنا ذلك الذات المخصوص بالمفهوم من كونه جِسمًا كُنّا قد جعلنا الجسم صفةً وهذا محال، لأن الجسم ذاتُ الصفة، وإن قلنا بأن ذلك الذات المخصوص هو مغاير للمفهوم من كونه جِسمًا وغير موصوف بكونه

جسمًا، فحينئذ يكون ذات الله تعالى شيئًا مغايرًا للمفهوم من الجِسم وغير موصوف به، وذلك ينفي كونه تعالى جسمًا، قاله الرازيّ في تفسيره.

ومِن أعظم الآيات في نفي مشابهة الله لخلقه قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي له الوصف المنزّه عن مشابهة وصف غيره، وقال السَّنوسي في تفسيرها: «أي له الوصف وهو الوجوب الذاتيّ، والغِنَى المطْلَق، والجُود الفائق، والتنزُّه عن صفات المخلوقات» اهـ.

وأمّا ما جاء في قوله تعالَى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ فالتقدير في الآية: ليس كذاته شيء، قاله السيوطيّ. وقال الراغب: «المثل هنا بمعنى الصفة ومعناه أنّه ليس كصِفَته صِفة» اهـ.

وقال الحافظ ابن الجوزي: «فإياك إياك أن تَقِيسَ شيئًا من أفعاله على أفعال الخلق، أو شيئًا من صفاته، أو ذاته سبحانه وتعالى، فإنك إن حَفِظْتَ هذا سَلِمْتَ من التشبيه الذي وقع فيه مَن رأى الاستواء اعتِمادًا، والنُّزول نُقْلَةً، ونجوتَ من الاعتراض، الذي أَخْرَج قومًا إلى الكُفر حتى طعنوا في الحكمة وأَوَّل القَوم [اعتراضًا] إبليس، فإنه رأى تقديم الطِّين على النار ليس بحكمة» اهـ.

- **من الحديث**: ما رواه البخاري وغيره من حديث عمران بن حصين عن رسول الله ﷺ قال: «**كان الله ولم يكن شيء غيره**» أي كان الله موجودًا في الأزل ولم يكن زمان ولا مكان ولا حادث من الحادثات، فهو كان في الأزل موجودًا لا يشبه المُحْدَثات ولم يزل بعد خلق الخلق لا يشبهها بوجه من الوجوه. وفي هذا الحديث دلالة أيضًا على أنه يطلق على الله أنّه «شيء» أي لا كالأشياء بمعنى أنه موجود لا كالموجودات، ويشهد لذلك قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ﴾، وقال الإمام أبو حنيفة في الفقه الأكبر: «وهو - يعني الله - شيء لا كالأشياء، ومعنى الشيء الثابت بلا جسم ولا جوهر ولا

عرض ولا حَدّ له ولا ضِدّ له ولا نِدّ له ولا مثل له» اهـ.

- **والإجماع**: نقله كثير من المتكلمين، منهم أبو بكر الكلاباذي في كتاب «التعرُّف لمذهب أهل التصوُّف»: «وَأَجْمعُوا أَنه لَيْسَ بجسم وَلَا جَوْهَر وَلَا عرض» اهـ.

٧- وَقَائِمٌ غَنِيّ وَوَاحِدٌ وَحَيّ قَادِرْ مُرِيدٌ عَالِمٌ بِكُلِّ شَيْ

القيام بالنفس: صفة سلبيّة

(وَ)اللهُ سبحانه وتعالى (**قَائِمٌ**) بنفسه (**غَنِيّ**) أي مُستَغنٍ عن كلِّ ما سواه في الأمور كلِّها، فعلى هذا لا يكون الجوهر قائمًا بنفسه بمعنَى أنّه لا يحتاج إلى غيره وذلك لاحتياجه إلى الصنع والتخصيص، وإنما إذا قيل في الجوهر يقوم بذاته بمعنَى أنه لا يقوم بغيره بخلاف العَرَض.

قال أبو حامد الأسفراييني: «معناه أنه بوجوده مستغن عن خالق يخلُقُه، وعن مَحَلّ يَحُلُّه، وعن مكان يُقِلُّه، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾» اهـ.

والكلام على هذه الصفة الأزلية يستفاد منه نفي الحاجة إلى المحل والجهة، خلافا لبعض أهل الضلال كالكرامية والمشبهة الذين قالوا: إن الله تعالى في جهة فوقٍ، بل أطلق بعضهم شنيع القول بأنه جالس على عرشه مستقر عليه استقرار السلطان على عرشه، تعالى الله عن ذلك كله علوًّا كبيرًا.

ويقال في الردّ عليهم أن لو كان الله على العرش كما زعموا لم يخل إما أن يكون مثل العرش أو أصغر منه أو أكبر. وفي جميع ذلك إثبات التقدير والحد والنهاية لله تعالى، وهو كفر بإجماع الأمة.

وأمّا الدليل من النصوص الشرعية على قيام الله تعالى بنفسه من غير احتياج إلى أحدٍ فكثيرة، منها:

- **من القرءان**: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ فهو القائم بذاته

المستغني عن كل ما سِواه والقائم بتدبير الخلق ومصالحهم فيما يحتاجون إليه في معاشهم ومعادهم.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وفي هذه الآية الكريمة نفائس جليلة منها ما ذكره الرازيّ في تفسيره ونصُّه: «تدل الآية على أنه ليس في مكان وليس على العرش على الخصوص فإنه[1] من العالَم، والله غَنِيّ عنه، والمستغني عن المكان لا يمكن دخوله في مكان لأن الداخل في المكان يشار إليه بأنه ههنا أو هناك على سبيل الاستقلال، وما يشار إليه بأنه ههنا أو هناك يستحيل أن لا يوجد لا ههنا ولا هناك وإلا لجَوَّزَ العقل إدراك جسم لا في مكانٍ، وإنه محال» اهـ. فإذا قيل عن الله «هو منفرد بوحدانيته» فمعناه أنه مستَغْنٍ عن كُلِّ تركيب وازدواج، تنبيهًا أنه بخلاف كل موجود، قاله السَّمين الحلبي.

- **من الحديث**: روى النسائي بسندٍ جيدٍ من طريق مجاهدٍ عن ابن عمر أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ**» في المجلس قبل أن يقوم مائةَ مرةٍ.

وأما ما ورد في الحديث النبوي الشريف الذي رواه البخاري وابن ماجه والترمذي وغيرهم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ وَالْجَهْلَ فَلَيْسَ للهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ**» فليس معناه أنّ الله يحتاج إلى العبد في أن يدَعَ طعامه وشرابه، فالله لا يحتاج إلى أحدٍ ويحتاج إليه كلُّ أحدٍ، إنما معناه لا يَقْبَلُه منه، لأنَّ من وقع في شهادة الزور وهو صائم فقد بطَل ثوابُ صَوْمِه وإن صح الصَّوم بالإمساك عن الْمُفَطِّرات.

- **والإجماع**: نقله عدد من الأصوليين والمتكلمين، منهم الإمام الفقيه أبو منصورٍ البغدادي في «الفَرْق بين الفِرَق» قال: «وأجمعوا على

(١) أي العرش.

أن الله تعالى غنيّ عن خلقه، لا يَجْتَلِب بِخَلْقِه إلى نفسه نفعًا، ولا يدفع بهم عن نفسه ضررًا» اهـ.

الوحدانيّة: صفة سلبيّة

(وَ)اللهُ تعالَى (وَاحِدٌ) لا شريك له في الذات ولا في الصفات ولا في الأفعال، فإثبات الوحدانية لله هو البراءة من الشِّرك، فالقائل بأنّ الشرّ ليس بخلق الله هو مُشرِك كافر جاعلٌ لله شريكًا في الخالِقيّة.

ومعنى كونِ اللهِ تعالى واحدًا في ذاته أنّ ذاته تعالى ليس مركَّبًا من أجزاء، ومعنى وَحْدَتِه تعالى في الصفات أنه ليس له تعالى قُدرَتَان وعِلمَان وإرادتَان، بل له تعالى قدرة واحدة وإرادة واحدة وعلم واحد، وهذا يُقال في سائر الصفات، ومعنى نفي التعدد في الصفات نفيُ أن يكون لأحد صفة تشبه صفة من صفاته تعالى، ومعنى وحدته تعالى في الأفعال أنه ليس أحد من المخلوقات مشارِكًا لله في أفعاله. فالوحدانية صفة واجبة لله تعالَى تنفِي عنه الكُموم الخمسة المستحيلة عليه تعالَى:

- استحالة الكمّ المتّصل على الله في ذاته: وهو استحالة تركُّبه مِن أجزاء.

- استحالة الكمّ المتّصل على الله في صفاته: وهو استحالة أن يكون له قُدْرَتان مثَلًا.

- وهو استحالة أن يُشبِه ذاتَه ذاتٌ.

- استحالة الكمّ المنفصل على الله في صفاته: وهو استحالة أن يكون لغيره صفةٌ كصفةٍ من صفاته.

- استحالة الكمّ المنفصل على الله في أفعالِه: وهو استحالة أن يكون فِعلُ غيرِه كفِعلِه.

ثمّ الدليل العقليّ على وجوب صفة الوحدانية لله عزّ وجلّ أنّه لو كان لله شريك في الألوهية لم يَخْلُ الأمر مِن أحَدِ اثنين:

- إمّا أن يَتَّفِقا على وجود العالم متعاوِنَين أو لا:

أ- فإن قيل بتعاوُنِهما على ذلك، فقد أدَّى هذا إلى مُحَالَين:

١- احتياج أحدهما إلى الآخَر: والمحتاج عاجز، والعاجز لا يكون إلهًا.

٢- وجودُ مؤثِّرين على أثر واحد: وهو محال لاجتماع قُدرَتَين على مقدور واحد، إذ لا يصحّ كونه موجودًا بنفس الصفات مرَّتَين في وقت واحد ولا أن يوجَد بعد أن صار موجودًا لأنّ إيجاد الموجود وهو تحصيل الحاصل محالٌ.

ب- وإن قيل بانفراد كُلِّ واحدٍ منهما بإيجاد العالَم، فذلك يؤدّي إلى محال أيضًا: وهو وجودُ مؤثِّرين على أثر واحد.

- وإمَّا أن يختلفا فيريد أحدهما وجود العالَم والآخَر بقاءه معدومًا، فلا يخلو:

أ- إما أن يَنْفُذ مرادُ أحدِهما: أي دُون الآخَر، وهذا يعني عَجْزَ الذي لم ينفُذ مرادُه، والعاجز لا تصحّ له الألوهيّة، وقد فُرِضَ أنَّ هذا العاجز مُساوٍ في الألوهية لمن نفذ مُراده، فإذا ثبت العجز لهذا ثبت العجز للآخر، فأدّى ذلك إلى نفي وجود الإله، وهو محال.

ب- وإمّا أن لا يَنْفُذ مراداهُما جميعًا: وهذا يدلّ على العجز لا غير، والعجز مستحيل على الإله.

فلَمَّا كانت كلُّ هذه الفُروض السابقة مؤدّية إلى القول بعدم وجود العالَم ثبت أنّها ساقطة جَميعها لأنّ العالَم موجودٌ حِسًّا، وعليه فقد ثبت أنّ الذي أوجَد هذا العالَم متصِّفٌ أزلًا بالوحدانيّة ولم يزل بعد خلق العالَم واحدًا لا شريك له.

وقد استنبط المتكلِّمون تفاصيل هذا الدليل الذي سُقناه، وأسمَوه بدلالة أو دليل التَمانُع، مِن قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ أي لو كان لهما ـــ يعني السماوات والأرض ـــ إلهٌ غير الله

لَفَسَد واختَلَّ نظام السماوات والأرض بما فيهما وَلَخَرِبَتَا وتَهَدَّمَتا. وقال البيضاوي: «وفي الآية تنبيه على شرف علم الكلام وأهله، وحث على البحث والنظر فيه» اهـ. وقد أكَّد الله تعالَى الآية السابقة بآية أخرى وهي قوله جلّ شأنُه حكايةً عن مقالةِ يوسف لأصحاب السِّجن: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾، وهذه الأخيرة دليل على شَرَف تعليم علم التَّوحيد وأنّ ذلك دأب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وقد استخرج الفخر الرازيّ من تفصيل دلالة التمانُع والآيةِ الأولَى وجوهًا أخرى غير التي ذكرناها، مِنها:

- أنّه لو قُدِّرَ وجود إلهين، فإمّا أن يَقْدِر أحدُهما على أن يستر شيئًا من أفعاله عن الآخر أو لا يَقْدِر، فإن قَدَر على ذلك لزم أن يكون المستور عنه جاهلًا، وإن لم يَقْدِر على ذلك لزم كونه عاجزًا.

- وأنّه لو قُدِّرَ إلهان كان مجموع قُدْرَتَيهما بينهما أقوى من قدرة كل واحد منهما وحدَه، فيكون كل واحد من القدرتين متناهيًا والمجموع ضِعْفُ المتناهي، فيكون الكُلُّ متناهيًا.

- وأنّه لو قُدِّرَ وجود إلهين، فإمّا أن يكون أحدهما كافيًا في تدبير العالم أو لا، فإن كان كافيًا كان الثاني غيرُ محتاج إليه، وذلك نقص وهو على الإله محالٌ.

- وأنّه لو قُدِّرَ وجود إلهين، كان لا بُدّ أن يكونا عالمين بجميع المعلومات، وكان علم كل واحد منهما متعلِّقًا بعين معلوم الآخر، فوجب عندئذ تماثُل عِلْمَيْهِما. والذاتُ القابلة لأحد الْمِثْلَين قابلةٌ للمِثْلِ الآخر، فاختصاص كلِّ واحد منهما بتلك الصفة مع جواز اتِّصافه بصفة الآخر على البَدَل يَسْتَدعي مخصِّصًا يُخَصِّصُ كُلَّ واحد منهما بعِلْمِه وقدرته، فيكون كلُّ واحد منهما عَبْدًا فقيرًا ناقصًا، وذلك محالٌ على الإله.

فائدة: إنّ مِمّا يُستَدَلُّ به على أنّ «في» الواردةَ في نصّ الآية: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ هي بمعنَى «اللام» أي «لَهُما» قولُ الله تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٌۚ﴾، لأنّه لو كانت «في» تفيد التحيُّز لكان معنَى الآية الأولى يُصادِمُ معنَى الثانية وهذا محال لِعِدّة وجوه أحدُها أنّ القرءان لا يعارِضُ بعضه بعضًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ۝٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾.

وأمّا الدليل من النصوص الشرعية على وحدانيّة الله تعالى وأنّه لا شريك له فكثيرة جِدًّا، منها:

- **من القرءان**: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ وقد ذكرناها قريبًا، وقوله تعالَى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وقوله أيضًا: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ أي ليس معه إلهٌ بل لا إله إلا الله، وهذا استفهام على سبيل الإنكار كما في قوله تعالى: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكّٞ﴾ أي لا شَكَّ في وجود الله، وهذا الأسلوب كثير في القرءان الكريم.

- **من الحديث**: ما رواه الترمذي ومالك وغيرهما عن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنهم: قال رسول الله ﷺ: «**أَفْضَلُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَأَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ**»، والأحاديث التي وردت بلفظ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ**» كثيرة جِدًّا، منها ما كان يقوله النبيّ ﷺ في دُبُرِ كلِّ صلاةٍ مكتوبةٍ، ومنها ما ورد في دعاء السوق، ومنها ما ورد مِمّا يقوله الشخص إذا وصل إلى الصَّفَا، وحين يأوي إلى فراشه، وإذا تَعَارّ أي استيقظ من الليل، ومنها ما ورد مِمّا يقوله الشخص حين يفرغ من وضوئه، وحين يُصْبِح، ومنها ما كان إذا قَفَل أي عادَ ﷺ من غزوٍ أو حجٍ أو عمرةٍ يقوله أيضًا، ثُمّ هذه اللفظة «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ**» هِي من وِرْدِ الشهادة الخاصة المعروفة، وثبتت في أوراد

كثيرة غير ذلك.

- **والإجماع**: نَقَلَه الإمام أبو منصورٍ الماتريدي رحمه الله في كتاب التوحيد، وعبد الغني المقدسي الحنبلي في مقدمة كتاب الاقتصاد في الاعتقاد، وبدر الدين العيني الحنفي في عمدة القاري، وخَلْقٌ كثير غيرهم.

الحياة: صفة معنًى

(وَ)اللهُ تعالَى (حَيّ) بحياةٍ أزليّة لا بداية لها أبديّة لا نهاية لها، ليست كحياتنا بوجهٍ من الوجوه، فحياتنا بسبب روحٍ في جسدٍ من مُخّ وعظمٍ وعصبٍ ولحمٍ وغير ذلك، وأما حياة الله فليست مشابهة لحياة غيره، فهي حياة لا بروحٍ ولا بعظمٍ ولا بعصبٍ ولا بلحمٍ ولا بغيرها من لوازم الحدوث. ومعنَى «لوازم الحدوث» أي ما لا يستغني عنها الحادث في وجوده، كتحيُّز الجِسم وكونه إمّا ساكِن وإمّا متحرِّك، وغير ذلك.

وقد نفَى الطبائِعِيُّون كون المكَوِّن للحادثات في هذا العالَم حَيًّا، فادَّعَوا إسناد وجود الحادثات إلى الطبائع الأربعة: الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، وقالوا: إن هؤلاء الأربعة مُكَوِّنَات لِمَا يحدث في العالم من الأصناف المختلفة، وهذا كُفر عند سائر المسلمين. ويُرَدُّ عليهم بأن يقال: إنّ التكوين لا يصح إلا من متصفٍ بالحياة، لأنه لا يصح في العقل تخصيص شيءٍ بصفةٍ دون صفةٍ وبزمانٍ بدل غيره من الأزمان إلا بإرادةٍ، والطبائع ليس لها حياة ولا إرادة ولا قدرة حتى تقدر على تخصيص شيء من هذا العالم بصفةٍ دون أُخرى وبوقتٍ دون غيره، فلا يقبل العقل السليم كون شيء من الطبائع الأربعة أو جميعها مجتمعةً مكوِّناتٍ لشيء من هذا العالم مهما كان ضئيلًا.

وقد خالف في ذلك أيضًا فِرقة الحَشْوِيّة الْمُشَبِّهة فقالوا: لا تصح

الحياة بدون حركةٍ، فجعلوا لله حركة، تعالى الله عن ذلك، ولَبَّس عليهم الشيطان فلبَّسوا على الناس وتمسَّكوا بقولهم: «له نزولٌ من جهة فوق إلى جهة تحت بلا كيف»، والنُّزول الحِسّيُّ لا يكون إلا بنُقْلَة وحركة، فلَزِمَهُم نسبة الحركة إلى الله عزّ وجلّ وهو كُفر باتّفاق المسلمين. فهؤلاء يَبْنُون أمورهم على الوهم الناشئ عن الرجوع إلى صفات المحسوسات وخصائصها، وذلك أنّهم لَمَّا وجدوا أن كل ذي حياةٍ رُوحِيّةٍ لا يخلو من الحركة، قاسوا الله تعالى على ذلك، ولم يفهموا بسبب غَيّهِم أنّ حياة الله غير حياة خلقه، بل غفلوا عن أنّ إثبات ألوهية الله لا يَصِحُّ مع تشبيه الله بشيءٍ من خَلْقِه سواء كان بالحركة أو السكون أو اللَّون أو الأعضاء أو الشكل أو المساحة أو المقدار ونحو ذلك من كل ما يَسْتَلْزِم الحَدَثان.

والدليل على أنّ حياة الله تعالَى ليست كحياتِنا قوله تعالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، وأمّا قوله تعالَى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ وقوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ وأمثال ذلك فليس معناه أنّ لله رُوحًا يحيَا بها، حاشا لله، بل الرُّوح هنا في الآيات الكريمة مضافة إلى الضمير العائد إلى الله عَزّ وجلّ وهي إضافة على سبيل التشريف والتكريم لِرُوح ءادَم وعيسى عليهما السلام، كما يقال عن المسجد «بيت الله» وعن ناقة نبيّ الله صالِح عليه السلام «ناقةُ الله»، والرُّوح جِسم لطيف يَحْيَا به ذُو الرُّوح وهو الإنسان والجِنّ والملائكة والبهائم، وهي قسمان: أرواح مُشَرَّفة، وأرواح خبيثة. فأمّا أرواح الأنبياء فَمِن القِسم الأول، وأمّا أرواح الكافرين فمن القِسم الثاني، ويَكفر من يعتقد أن الله تعالى رُوح أو أنّ له روحًا، وكذلك يكفر من يُسَمِّيه «الرُّوح».

وقد خالف في هذه المسألة الدكتور يوسف القرضاوي المصريّ فوافق عقيدة الحلوليِّين في هذه المسألة حيث قال في كتابة المسمَّى «العبادة في الإسلام» ما نصُّه: «والأرواح تقوم بتغذية ذلك الجزء

العلوي الإلهي في كيان الإنسان وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾» اهـ، وفي هذا الكلام تصريح منه بأن الجزء العلوي هو جزء من الله والعياذ بالله تعالَى، وهذه هي عقيدة الحلولية الفاسدة التي قال بها غُلَاة المتصوفة وضُلّالهم ومَن كان على شاكِلَتِهم. فاعتقاد القرضاويّ هذا يعني منه أنّ الرُّوح التي نُفِخت في ءادَم هي جزء من الله وهذا فساد وضلال مبين.

وأمّا تسمية جبريل عليه السلام «الرُّوح القُدس» في النُّصوص الشرعية نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ والقُدس وهو الطُّهر، ومعناه الرُّوح المقَدَّس أي الْمُطَهَّر مِن المآثِم.

وأمّا الدليل من النصوص الشرعية على حياة الله الأزلية الأبديّة وأنّها ليست كحياتنا فكثيرة جِدًّا، منها:

- **من القرءان**: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، **والآية**: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، وهذه الآية الأخيرة قد نُصّ فيها على حياة الله بلفظ ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ﴾ فالمبتدأ معرفة لأنه ضمير، والخبر معرفة، وهذا يفيد الحصر وأنْ لا حَيّ بالحياة التي هي صفته تعالى إلا هو عزّ وجلّ، فلذلك وَجَب أن يحمل ذلك على الحَيِّ الذي يستحيل أن يموت والذي حياته لا بداية لها، ولا حيّ بحياة ذاتيّة أزليّة أبديّة إلا هو، وأمّا الحياة الأبديّة التي تكون للمؤمنين في الجنّة وللكافرين في النّار فتلك حياة غير ذاتيّة أي ليسوا هم مَن خصّوا أنفسهم بها وإنّما هي بتخصيص من الله لهم بذلك، فهي أبديّة بمعنَى أنّها لا تنقضي لكن لا شكّ أنّ لها بداية.

- **من الحديث**: ما رواه ابن ماجه والترمذي في السنن وغيرهما من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا**» ثم ذكر منها: «**الْحَيُّ**». وكذلك ما رواه أبو داود، واللفظ له، والترمذي في السنن وغيرهما من حديث بلال بن يسار بن

زيدٍ مولى النبي ﷺ أنه قال: سمعت أبي يُحَدِّثُنيه عن جدي أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ قَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيَّ الْقَيُّومَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ غُفِرَ لَهُ وَإِنْ كَانَ قَدْ فَرَّ مِنَ الزَّحْفِ**».

- **والإجماع**: نقله الشَهرستاني في «الملل والنحل» فقال: «ومما أجمعوا عليه من إثبات الصفات قولُهم: البارئ تعالى عالم بعلم، قادر بقدرةٍ، حَيٌّ بحياةٍ» اهـ، وكذا نَقَلَهُ الباقِلّاني في «الإنصاف» والآمدي في «أبكار الأفكار».

القُدرة: صفة معنًى

وَاللهُ سبحانَهُ وتعالَى (**قَادِر**) متَّصِفٌ بالقدرة الأزلية الأبدية، وقدرتُه تامّة، وقد خالف الاعتقادَ السليم في هذه الصفة: المعتزلةُ والفلاسفةُ.

فذهبت المعتزلة إلى إنكار تعَلُّق قدرة الله عز وجل بأفعال العباد من ملائكة وجن وإنس وشياطين، وزعموا أن كلَّ ما يصدر عن فردٍ مِن ذوي الأرواح هو خالِقها ومُختَرِعها وأنه لا قدرة لله على تلك الأفعال بنَفْيٍ ولا إيجابٍ. ويلزم على مقالاتهم تلك ضلالات كثيرة، منها: إنكارُهم إجماعَ السَّلَف والخلَف على أنَّه لا خالق إلا الله، ونِسبَتُهم التَخْلِيق والإبراز من العدم إلى الوجود إلى قدرة ذي روح غير عالمٍ بعدد وجنس ووقت ما خلقه من الحركات على زعمهم.

وذهبت الفلاسفة إلى القول بالإيجاب والسَّلْب، والإيجاب عندهم هو اعتقادهم أن هذا العالم موجود معلول لوجود ذات الصانع الذي يعتبرونه علة وجود هذا المعلول بناءً على قولهم بما سَمَّوه الصُّدور أو الفيض، فقالوا: «إنّ العالم قَدِيم لا بداية له، وأنَّ شيئًا يُسَمَّى العقل الفَعَّال هو الْمُحْدِثُ لِكُلّ ما تَحْتَه، وأنّ هذا العقل دائمُ الفيض على ما تحته على حسب قابليّة واستعداد كُلِّ ذلك، فأفاض على زعمهم الموجودات وأوصافها وأفعالها وأقوالها وءاثارها كلّ ذلك على مراتب

متدرّجة من مبدإٍ واحد، ومنها تَأَلَّف العالم جميعُه»، وهذا القول غايةٌ في السَّخافة والضلال المبين. وأما السَّلْب عندهم فهو شيء لزمهم من قَولِهِم بالإيجاب، وهذا اللازم هو نفيهم إرادة الله وقدرته. فلذلك اعتَقدوا قِدَم العالم وأنّه معلول لعِلّةٍ وأنّ عِلَّته تكون مُؤَثِّرة بالإيجاب لا أنّ فاعله هو خالقه وصانِعُه باختيار منه وإرادة. فالخلاصة في مقالتهم أنّهم: «سلبوا أي نَفَوا صفة الاختيار والإرادة عن الصانع الخالِق وقالوا بِصُدور العالَم منه بالإيجاب والعِلّة».

ويُرَدُّ عليهم بأنّه لو كان مُوجِد العالَم وصانِعُه - وهو الله تعالى - موجبًا بالذات كما ادَّعَوْا لا فاعلًا بالاختيار، لَلَزِم على ذلك أن يَدُلّ زوال هذا العالم أو فناء شيء منه على زوال صانِعِه، لأنّ الفلسفيّ القائل بالإيجاب كذلك قائل بأنّ العالم مِن لوازم ذاتِ الصانع تَشبِيهًا منهم للصانع والمصنوع بالعِلّة والمعلُول، حيث يوجد المعلول بوجود العِلّة وينتفي بانتفائها، ومِن بديهة العقل أنّ ارتفاع اللازم دليل على ارتفاع الملزوم، لكنّ زوال الله الصانع الخالِق ممتنِع محالٌ عقلًا وشرعًا، فثَبت بذلك أن الصانع يُوجِد الأشياء بقدرة واختيار لا بلُزوم وإيجاب، فبطَل مذهب الفلاسفة.

ثُمّ مِن أهّم مسائل صفة القدرة اعتقاد أنّ قدرة الله تعالى شاملة لجميع الممكنات، فمَن أنكر عموم قدرة الله فقد كفر. والممْكِن العقليّ هو ما يجوز عقلًا وجوده تارةً وعَدَمُه تارةً أخرى، فلا يدخل الممكِن في الوجود إلا بترجيح الله لوجوده على عَدَمِه.

وقد خالَف في هذه المسألة عدد من أهل الضلال، منهم:

- **المجوس**: فأنكروا شمول قدرة الله تعالى وقالوا: هو لا يقدر على الشرور حتى يخلق الأجسام المؤذية، وإنما القادر على ذلك فاعل ءاخَر سَمَّوه أَهْرَمن لِئَلّا يلزم على زعمهم كون الواحد خَيِّرًا وشِرِّيرًا.

- **والنَظّام من المعتزلة**: حيث قال، وتَبِعه على ذلك أُناس، بأن

الخالِق لا يقدر على خلق الجهل والكذب والظلم وسائر القبائح، وزَعَم أنّه لو كان خَلْقُ ذلك مَقدُورًا له لأفضَى ذلك إلى السَّفَهِ منه لأنّه عالمٌ بِقُبح ذلك، وهذا الكلام من النَّظَّام نفسِه سَفَهٌ وتكذيب لصحيح العقل وصريح النقل، فلا يجوز اعتقاد أنّ الله تعالى يَقْبُحُ منه شيء، كيف وهو الذي يتَصَرَّفُ في مِلْكِه بما يشاء.

- **وعَبَّاد بن سليمان الضّمري المعتزلي**: حيث قال، وتَبِعه على ذلك أُناس، بأنّ الله ليس بقادر على ما عَلِم أنه يقع وما عَلِم أنّه لا يقع وذلك لاستحالة وقوعه، على ما زعم، ولا يخفى ما في كلامِه من التخبُّط والفساد.

- **والكَعْبِي والجبّائيُّ من المعتزلة**: حيث قالا بأنّ الله لا يقدر على مثلِ مَقدُور العبد، زعمًا منهما أنّه قد يدخل العَبَث والسَفَهُ والطاعةُ فِعْلَ الرّبّ.

قال العلاّمة البياضيّ الحنفيّ في «إشارات المرام»: «إثبات شمول قدرته تعالى لجميع الجواهر والأعراض، بمعنى أنه يَصِحُّ منه الفِعلُ والتَّرْك، ببيان حدوث العالم بأقسامه أي ما سوى ذاته تعالى وصفاته، إذ لا يمكن إثبات قدرته تعالى بحدوث الأعراض فقط أو بإمكانها كما قيل لبقاء احتمال كونِه مُوجِبًا بالذات يصدر عنه قديم يكون مبدأً الحوادث كالعقل الفَعّال عند الفلاسفة» اهـ.

ثم مِن المسائل المهمَّة المتعلِّقة بصفة القدرة لله تعالَى معرفة أنّ قدرة الله لا تتعلق بالواجب ولا بالمستحيل، لأن القدرة صفة يُؤَثِّر الله بها في الممكن إيجادًا وإعدامًا، ويستحيل فناء واجب الوجود كما أنّه يمتنع وجود المستحيل العقليّ، وذلك دليل على أنّ لا عجز في صفة القدرة لله من حيث عَدَمُ تعلُّق قدرته الأزلية بالواجب وبالمستحيل، لأنّه لو قال قائل بأن القدرة تتعلق بالواجب للزم محالٌ وهو أن تعدم القدرة صفات الله ومنها القدرة بل وأن تعدم ذاته، تعالى الله عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا.

وقد خالَف ابن حزم الأندلسي في هذه المسألة صريح النقل وصحيح العقل فزَعم أنّ الله تعالى قادر على أن يَتَّخِذ ولدًا معلِّلًا ذلك بزعمه أنّه لو لم يَقْدر على ذلك لكان عاجزًا، وهذا مِن أكفَر الكُفر، نعوذ بالله من الكفر الشنيع وسُوء الصَّنِيع.

والجواب على دعوى ابن حزم تلك المقالة أن يقال: إن اتّخاذ الولد محال على الله، والمحال ليس من متعَلَّقَات القدرة، فمَا ذَهَب إليه ابنُ حَزْم غيرُ لازِم بل ممتنِع عقلًا وشرعًا.

وأمّا الأدلة من النصوص الشرعية على صفة القدرة الأزلية الأبديّة لله وأنّها تامّة ولا تتعلَّق بالواجب ولا بالمستحيل فكثيرة، منها:

- **من القرءان:** ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أي الله تعالَى تامُّ القدرة قادر على أن يوصِل العذاب لمن شاء من فوقه. وليس في هذه الآية متمسَّك للمجسِّمة الذي يعتقدون أن الله في السماء فوق العرش، بل العذاب الذي يجيء من فوق والذي يجيء من تحت كلٌّ مِن عند الله أي بتقديره وقدرته وتخليقه وعِلمِه، وأمّا العذاب الذي يأتي من فوق أي من جِهة السماء فهو كالصَّيحة والحجارة والرِّيح والطُّوفان، كما فُعل بعَادٍ وثمود وقوم شُعَيب وقوم لُوطٍ وقومِ نوحٍ. قال بدر الدين بن جماعة في «إيضاح الدليل» ما نصُّه: «المراد بالفوقية في الآيات القهر والقدرة والرتبة أو فوقية جهة العذاب لا فوقية المكان له» اهـ.

وكذلك قوله تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يَدُلُّ على أنه تعالى قادر على جميع المقدورات، وقد عُلِم ببديهة العقل وصريح النصّ استحالة صُدور الأفعال من عاجزٍ لا قدرة له، وَلَمَّا ثبت أنه هو صانع الحادثات ثَبَت أنه قادر. و«قدير» فعيل بمعنى فاعل من القدرة، فالله يسمى القادر والقدير والْمُقْتَدِر، والثلاثة تدُلّ على صفة القدرة، لأنّ الأسماء تدُلّ على الصفات إلا لفظ الجلالة يدل على الذات.

- **ومن الحديث**: ما رواه البيهقي في «الأسماء والصفات» والطبراني في الأوسط وغيرهما أنَّ رسول الله ﷺ قام يُصَلِّي من الليل فلَمَّا صلى الركعتين قبل الفجر قال: «**سُبْحَانَ ذِي القُدْرَةِ وَالكَرَمِ**»، فدَلّ هذا الحديث على أن الله تعالى متَّصِفٌ بالقدرة وأنّ قدرته تعالى تامّةٌ.

وكذلك جاء في حديث أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين، الذي رواه الترمذي وابن ماجه وغيرهما، ذِكرُ اسم الله القادر والْمُقْتَدِر والقَوِيّ والْمَتِين. فالقادر هو المتَّصِفُ بالقدرة الأزلية الأبدية، والْمُقْتَدِر هو التامُّ القدرةِ الذي لا تَخَلُّفَ لِمُراده، والقَوِيُّ هو القادر الذي لا يَلْحَقُه ضَعْفٌ، والْمَتِينُ هو تَامُّ القُوّة أي القُدرة، وكل هذه الأسماء تدلُّ على شمول قدرة الله تعالَى جميع الممكنات العقلية.

- **ومن الإجماع**: ما قاله الإمام المتولي في كتابه «الغُنْية»: «فإنّ الله تعالى موصوف بأنه قادر بالإجماع» اهـ، وقال الإمام أبو منصور البغدادي في «الفرق بين الفرق»: «وأجمع أهل السنة على أنّ قدرة الله تعالى على المقدورات كلِّها قدرة واحدة يَقْدِر بها على جميع المقدورات على طريق الاختراع دون الاكتساب» اهـ.

مسألة التكوين عند الأشاعرة والماتريدية

لِيُعْلَم أنّه ليس بين الأشاعرة والماتريدية اختلاف في أصول العقيدة، إنما الخلاف بينهم في بعض فصول العقيدة وفروعها، وهذا لا يقدح في كونهما الفرقة الناجية كما نصّ عليه غير واحِدٍ من العلماء منهم خاتمة اللّغويين الحافظ الزَّبِيدي: «إذا أُطلِق أهل السنة والجماعة فالمراد بهم الأشاعرة والماتريدية. قال الخيالي في حاشيته على شرح العقائد: الأشاعرة هم أهل السنة والجماعة، هذا هو المشهور في دِيار خراسان والعراق والشام وأكثر الأقطار، وفي ديار ما وراء النهر يُطلَق ذلك على الماتريدية أصحاب الإمام أبي منصور، وبين الطائفتين

اختلاف في بعض المسائل كمسألة التكوين» اهـ.

فالخلاف الحاصل بين الفريقين كالخلاف الذي حصل بين الصحابة في رؤية النبيّ ربَّه ليلة المعراج، فقد نفَتْها عائشة وابن مسعود رضي الله عنهما وأثبتها عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وأصحابه من التابِعين وأبو ذَرّ الغفاري رضي الله عنه، مع أنّ الصحابة متفِقُون في أصول العقيدة. ومن هذه الفرقة الناجية يكون المجدِّد الذي أخبر الرسول أنه يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة، فقد وردَ من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**» رواه أبو داود وغيره.

وقد حَصَر بعضُ العلماء الخلافَ بين الأشاعرة والماتريدية في نحو خمسين مسألةً، والتحقيق أنّ الخلاف بين الطائفتين إما لفظيٌّ أو هو في فرع من فروع العقيدة كما ذكَرْنا، ولا يُعَدُّ ذلك خلافًا في الأصل، فكِلَا الطائفتين متفِقَتان على أنّ الله لا يوصف بصفة حادثة قائمة بذاته، وخلاصةُ قَوْلَي الطائفتين في هذه المسألة على النحو التالي:

- **الماتريدية وقدماء الأشاعرة**: ذهبوا إلى أن التكوين صفة أزلية أبديّة لله تعالى وأنَّ التكوين غيرُ الْمُكَوَّن، فتكوينُ الله أزلِيٌّ والْمُكَوَّن حادث. فالتخليق والإماتة والإحياء وغيرُ ذلك مما أُسْنِدَ إلى الله تعالى من الأفعال كلٌّ منها راجع إلى صفة حقيقية أزلية قائمة بذات الله أي ثابتة له وهي صفة التكوين.

- **الأشاعرة (سوى قدمائهم)**: ذهبوا إلى أن التكوين ليس صفة أزلية قائمة بذات الله تعالى أزَلًا، بل التكوين أي صفات الأفعال مِن مُتَعَلَّقات القدرة الأزلية أي مِن ءاثار قدرة الله الأزلية، فلِذَا قالوا بأن التكوين هو عَيْن الْمُكَوَّن وهو حادث.

ثُمّ هذا الاختلاف بين الفريقين عند التحقيق لفظيّ، والفرق بينهما أنّه:

- **عند الأشاعرة**: ما يلزم مِن نَفْيِه نقيضه فهو من صفات الذات كالحياة، وما لا يلزم مِن نَفْيِه نَقِيضهُ فهو من صفات الفعل كالرَّزْق.

- **وعند الماتريدية**: كلُّ ما يوصف به الله ولا يجوز أن يُوصف بمقابله هو مِن صفات الذات كالقُدْرة، وكل ما يجوز أن يوصف به وبمقابله فهو من صِفات الفعل كالرضى والسَّخَط[1].

وقال الشيخ محمد بن أحمد ميارة المالكيُّ في شرح الدُّرّ الثمين على منظومة ابن عاشر ما نَصُه: «وهي عبارة عن التعلق التنجيزي للقدرة والإرادة بالممكنات، كخلْقه ورزقه وإماتته وإحيائه وتحريكه وتسكينه. وإن شئت قلتَ: هي عبارة عن صدور الممكنات عن القدرة والإرادة، وهي على قسمين:

١- فعلية وجودية: كالإحياء والترزيق والتخليق والتصوير.

٢- وفعلية سلبية: كعَفْوِه تعالى عَمَّن شاء مِن أهل المعاصي، فإنه عبارة عن تَرْك العقوبة لمن يستحقها، وهذا الترك متأخِّر عن المعصية الحادثة، وهو فعل بناء على أن الترك فعل أو سلب فعل العقوبة لمن يستحقها بناء على أنه ليس بفعل» اهـ.

تِتِمّة: قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في الفتح ما نصه: «ومسألة التكوين مشهورة بين المتكلمين، وأصلها أنهم اختلفوا هل صفة الفعل قديمة أو حادثة، فقال جمع من السلف منهم أبو حنيفة هي قديمة، وقال ءاخرون منهم ابن كُلّاب والأشعري هي حادثة لِئَلّا يلزم أن يكون المخلوق قديمًا. وأجاب الأوّل بأنه يوجد في الأزل صفة الخلق ولا مخلوق، وأجاب الأشعري بأنه لا يكون خلق ولا مخلوق كما لا يكون ضاربٌ ولا مضروبٌ، فأَلْزَمُوه بحدوث صفات فيلزم حلول الحوادث بالله، فأجاب بأن هذه الصفات لا تحدث في الذات شيئًا جديدًا،

(١) قال في القاموس (س خ ط): السَّخَط بفتحتين والسُّخْط بوزن القُفْل ضد الرضا.

فتعَقَّبُوه بأنه يلزم أن لا يُسَمَّى في الأزل خالِقًا ولا رازِقًا وكلام الله قديم، وقد ثبت فيه أنّه الخالق الرزاق، فانفصل بعضُ الأشعرية بأنّ إطلاق ذلك إنما هو بطريق الْمَجَاز وليس المراد بعدم التسمية عدمَها بطريق الحقيقة، ولم يَرْتَضِ هذا بعضُهم بل قال وهو المنقول عن الأشعري نَفْسِه: إنّ الأسامِي جارية مَجرى الأعلام، والعلم ليس بحقيقة ولا مجاز في اللغة، وأما في الشرع فلفظ الخالق والرازق صادقٌ عليه تعالى بالحقيقة الشرعية، والبحث إنما هو فيها لا في الحقيقة اللُّغَوِيّة فألزموه بتجويز إطلاق اسم الفاعل على مَن لم يَقُم به الفعل، فأجاب أنّ الإطلاق هنا شرعيّ لا لُغَويّ» اهـ.

الإرادة: صفة معنًى

والله سبحانه وتعالَى (**مُرِيدٌ**) شاءٍ متَّصِف بصفة الإرادة الأزليّة الأبديّة، يُخَصِّص الله بها الجائز العقلي بالوجود بدل العدم وبصفة دون صفة وبوقت دون وقت.

والدليل العقليّ على وجوب صفة الإرادة لله أنّه لو لم يكن تعالَى مُرِيدًا شائيًا لَمَا وُجِدَ شيء من هذا العالَم، لأَن العالم ممكن الوجود، فوُجوده ليس واجبًا عَقْلًا، فلَمّا كان العالَم موجودًا عَلِمْنا أنه لم يوُجَد إلا بتخصيصٍ لوجوده وترجيح له على عَدَمِه، فثبت أنّ الله تعالى مُرِيدٌ شاءٍ، ولا يجوز عقلًا عدمُ شمول إرادة الله لبعض الممكنات، بل هو تعالَى مريدٌ لجميع ما كان وما يكون وسيكون، فلا يُوجَد شيء من الحادثات خيرٌ ولا شَرٌّ إلا بإرادة الله عزّ وجلّ، فالحَسَن بإرادته وُجِدَ والقبيح كذلك.

وقد رَوى الْمُزَنيّ والربيع المراديّ عن الإمام الشافعيّ أبياتًا قالها جوابًا لسائل سأله عن معنى إرادة الله عزّ وجلّ، وهي:

مَـا شِـئْـتَ كَـانَ وَإِنْ لَـمْ أَشَـأْ وَمَا شِئْتُ إِنْ لَمْ تَشَأْ لَمْ يَكُنْ

خَلَقْتَ العِبَادَ عَلَى مَا عَلِمْتَ فَفِي العِلْمِ يَجْرِيْ الفَتَى وَالْمُسِنّ
عَلَى ذَا مَنَنْتَ وَهَذَا خَذَلْتَ وَهَذَا أَعَنْتَ وَذَا لَمْ تُعِنْ
فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَمِنْهُمْ سَعِيدٌ وَمِنْهُمْ قَبِيحٌ وَمِنْهُمْ حَسَنْ
وَمِنْهُمْ فَقِيرٌ وَمِنْهُمْ غَنِيٌّ وَكُلٌّ بِأَعْمَالِهِ مْرَتَهَنْ

وقال الإمام الهرريّ رضي الله عنه: «فإن قيل: كيف يجوز أن يكون القبيح خلق الله تعالى والله تعالى يقول: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ﴾؟ فالجواب: معناه أنّه أَحْسَنَ خَلْق الأشياء وأنه عالم بكيفية خَلْقِها على ما هي عليه مِن القُبْح والحُسْن، فكانت على ما أرادَه ولم تكن على خلاف ذلك، ومَن قَصَد فِعل شيء فكان على ما قَصد وأراد يقال: فلانٌ أَحْسَنَ فِعْلَ كذا، ولا يقال: «لو كان القبيحُ بإرادته وقضائه وَقَدَرِه لوجب أن يكون العبد معذورًا»، لأنّ العبد لا يعلم ما أراد الله تعالى في حَقِّه قبل فِعْله لكن عَرَف أَمْرَه ونَهْيَهُ فَعَلَيْهِ مراعاة ما كَلَّفَه به، ولا عذر له في الإرادة والقضاء والقدر، إلا أنّ الطاعة بمشيئَة اللهِ وإرادتِه ورضاه ومَحَبَّتِه وأَمْرِه وقضَائِه وقَدَرِه، والمعصية بقضائه وقَدَرِه وإرادته ومشيئَتِه دُونَ أَمْرِه ورِضاه ومَحَبَّتِه.

فإنْ قيل: مشيئته مرضية أم لا؟ قلنا: مرضية. فإن قيل: فلِمَ يُعاقِبُ على ما يَرضَى؟ قلنا: بل على ما لا يرضى، لأنّ المشيئة والقضاء وجميعَ صفاته مرضية له، غير أنّ الفِعل الحاصل مِن العبد قد يكون مرضيًا وقد يكون مسخوطًا فيعاقَب عليه.

فإن قيل: العبد لا يمكنه الخروج عن إرادة الله تعالى عندكم فيصير مجبورًا على كُفْرِه ممنوعًا عن الإيمان بإرادة هي أحكم وأَبْرَمُ في المنع، قلنا: لا يصير مجبورًا بذلك لأنه أراد منه الفعل الاختياريّ فلا يصير بها مجبورًا كما لا يصير بعِلْمِه مجبورًا وإن كان الخروج مِن معلومه مُحَالًا لِمَا أنّه علم أنه يفعل ما يفعل باختياره فكذا هذا.

وذهبت المعتزلة إلى أنّ الله تعالى يُرِيد من أفعال عباده ما هو خير

وطاعة ولا يريد ما هو شَرٌّ ومعصية، واختَلَفُوا فيما بينهم في المباحات أنها مرادة أم لا، فقالت البغدادية منهم: لا يُوصف الله تعالى بالإرادة حقيقة بل يوصف بها مجازًا. فإذا قيل: أراد الله تعالى كذا، فإن أضيف إلى فعله كان المراد أنه فعله أو يفعله، وإن أضيف إلى فعل عَبْدِه كان المراد أنّه أمَر به، والمباحات ليست بفعل الله تعالى ولا هي مأمورٌ بها فلا تكون مُرادة لله تعالى. وقال غيرهم: كلُّ ما كان مَنْهِيًّا لا يصلح أن يكون مُرادًا، والمباح غيرُ مَنْهِيٍّ فيكون داخلًا تحت الإرادة» اهـ كلام الإمام الهرريّ مِن كتابه «إظهار العقيدة السُنّيّة في شرح العقيدة الطحاويّة».

والإرادة والمشيئة مترادفان، كما دَلَّت عليه لغة العرب واختاره عامة المتكلمين مِن أهل السنة، وخالف في ذلك الكرَّامية ففرقوا بينهما بأن المشيئة صفة واحدة أزلية لله تعالى وأن الإرادة حادثة في ذاته متعددة على عدد المرادات تحدُث كل إرادة منها قبل حدوث المراد ويعقبها المراد، وذلك باطل من القول كفرٌ مصادِمٌ للأدلّة العقليّة والشرعيّة.

وقد ذهب النّاس في الكلام على صفة الإرادة للهِ تعالَى مذاهبَ عديدة، والحقُّ واحد لا غير وهو قول أهل السنة والجماعة:

- **فالأشاعرة والماتريدية**: أهل السنة والجماعة، قالوا: «هي صفة ذاتية وجودية غيرُ صفة العلم».

- **وضِرَار بن عمرو من المعتزلة**: ذهب إلى القول: «إنها صفة وجودية وأنّها عين الذات»، والعياذ بالله من هذا الكفر القبيح.

- **وأبو الحُسَين البِصري من المعتزلة**: ذهب إلى القول: «إنّ إرادَتَهُ هِيَ عِلمُه تعالى بما في الفِعل من المصلحة الداعية إلى الإيجاد»، وهذا باطل مردودٌ أيضًا.

- **والكَعْبِيّ مِن المعتزلة**: ذهب إلى القول: «إنها في أفعالِه تعالى عِلْمُه بها، وفي أفعالِ غَيْرِه الأمرُ بها»، وذلك فاسد ساقطٌ أيضًا.

- **والنَّجَّارية**: ذهبوا إلى القول: «إنّها ليست صِفةً وجودية، وإنما هي كونُه تعالى غيرَ مَغْلُوبٍ ولا مُسْتَكْرَه»، وهذا قول باطل فيه نفي صريح لصفة الإرادة عن الله.

- **والفلاسفة**: ذهب بعضهم إلى أنّ صفة الإرادة ثابتة للصانِع لكنِّها مُرَكَّبة مِن صِفة وجودية وعَدَمِيّة، فقالوا عنها: «إنها عِلْمُه بما يَصْدُر منه مع عَدَمِ كَوْنِ الصادر مُنَافِيًا له»، وهو ظاهر الفساد لِمَا فيه مِن نفي صفة الإرادة.

وأمّا الأدلة من النصوص الشرعية على صفة الإرادة الأزلية الأبديّة لله وأنّها لا تتخلَّف فكثيرة، منها:

- **من القرءان**: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾: فنَسَب الله سبحانه الإرادة في الهداية بشرح صدور المسلمين إليه، ونسب الإرادة في إضلال الكافرين وجعل صدورهم ضيِّقة حَرِجة إليه، وهذا كلُّه أدِلّة على القدَرية لا مَخْرَج لهم عنها.

وكذلك قوله تعالَى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾: فيه دليل على أنّ الله تعالى ما شاء هداية الكفار وما أراد منهم الإيمان، لأن كلمة «لَوْ» تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره، فيكون المعنَى أنّه لو شاء لَخَلق الهداية في قلوب جميعكم ولم يُضِلّ أحدًا منكم ولكنّه لم يشأ ذلك. وقد ذهب الزمخشريُّ المعتزليُّ عَدُوّ أهل السنّة والجماعة إلى القول بأنّ معناها: «لو شاء لهداكم إلجاءً وقَسْرًا» يريد بذلك بزعمه هداية عن إكراه وإلزام لا عن اختيار ورضًى.

- **ومن الحديث**: ما رواه أبو داود والنسائي في السنن والبيهقي وغيرهم أنّ النبيّ ﷺ كان يعلّم بعضَ بناتِه فيقول: «**قُولِي حِينَ تُصْبِحِينَ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، مَا شَاءَ اللهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ**» الحديثَ، فقوله ﷺ «**وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ**» أي لا يكون،

وهذه هي الإرادة بمعنَى المشيئة، فمتى ما تعلَّقت بشيء وجَب وجودُه. وقد تأتي الإرادة بمعنَى المحبَّة والرضى كما في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾، فلا يصحّ حمل الإرادة هنا على معنى أنّ الله شاء لنا حصول اليسر ولم يشأ حصول العُسر لأنّ ذلك يؤدي إلى معارضة قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾، والقرءان لا يجوز أن يتعارَض بعضه مع بعض بل يتعاضد.

وكذلك من الدليل على أنَّ صفة الإرادة بمعنَى المشيئة ما رواه مسلم في صحيحه وابن ماجه وابن حبان والبيهقي وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**الْمُؤْمِنُ القَوِيُّ**» أي في أمر الله، الذي ينفع المسلمين بجَسَدِه أو بِقُوّةِ عَقْلِه «**خيرٌ وأحَبُّ إلى الله مِن الْمُؤْمِنِ الضَعِيفِ، وفي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ علَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ باللهِ وَلَا تَعْجَزْ، فَإِنْ أَصَابَكَ شَيءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كذا وكذا، ولكنْ قُلْ: قَدَّرَ الله وما شاءَ فَعَلَ، فإنَّ لَوْ تَفْتَح عَمَل الشَّيطَانِ**». والشاهد في الحديث هو قوله: «**قَدَّرَ اللهُ ومَا شاءَ فَعَل**»، **وأمّا قوله**: «**فإنَّ لَوْ تَفتح عَمَل الشيطان**» فمعناه أنّ الشخص إذا قالها تَحَسُّرًا على أَمْرٍ من أمور الدنيا فإنها تفتح عمل الشيطان أي تَزِيدُه طمَعًا، أما إذا قالها عن أَمْرِ خَيْرٍ فاته فلا تكون مذمومةً، كأن قال: «لو تَعَلَّمْتُ عِلم الدِّين في الصِّغَر لكان خيرًا لي»، **فإنَّ** «**لو**» تأتي مذمومةً وتأتي غير مذمومة.

- **ومن الإجماع**: ما نقله الإمام أبو إسحاق الشيرازي في كتابه «الإشارة إلى مذهب أهل الحقّ»، وأبو بكر الباقلاني في كتاب «الإنصاف»، والإمام أبو منصور البغدادي في «الفَرْق بين الفِرَق» ونصُّ عبارته: «وأجمع أهل السُنّة على أنّ إرادة الله تعالى مشيئَتُه واختِيارُه» اهـ.

مسألة خلْق أفعال العباد

هذه مِن أشهر المسائل التي خالف المعتزلة فيها أهلَ السّنّة والجماعة، وقد سَرَى اعتقادهم الفاسد فيها إلى أيّامنا هذه، وإن لم تَعُد تسمية المعتزلة كفرقةٍ موجودةً بين الناس اليوم إلا أنّ هذا المعتقد الفاسد وغيره لم يزل ينتشر، ومِن أشهر مَن جَهَر بمُوافقتهم في ذلك الدكتور المدعو «محمد راتب النابلسي» الذي يَتصدّر الفضائيّات، فيجب التحذير من ضلالاته وفضح تَمَذْهُبِه بعقيدة الاعتزال في مسألة خلْق أفعال العباد مع تستُّره بالانتساب إلى أهل السنّة والجماعة، وقد وفَّقَنا الله تعالَى إلى الردّ عليه وبيان جملة كثيرة من ضلالاته في كتابٍ أسميناه: «الردّ العِلميّ علَى ضلالات محمَّد راتِب النابُلسي».

ومسألة خلْق أفعال العباد تتضمن الكلام على إثبات أنّ الله تعالَى هو خالق أفعال العباد كُلِّها، خَيْرِها وشَرِّها، وهو مذهب أهل السنّة، وخالف في ذلك المخالِفون لهم، فكان النّاس في ذلك على أربع:

١- **أهل السنة والجماعة**: القائلون بأنّ الله خلق في العبد الاختيار في الأفعال الاختيارية، أي أنّ فعل العبد الاختياري يقع عن اختياره فهو كسب له، وأمّا الله تعالى فهو خالق الفعل والفاعل وإرادته والمفعول، وهذا هو القولُ الحقّ، وكل ما يخالفه من الأقوال فهو باطل لا الْتِفات إليه.

٢- **المعتزلة (القَدَرِيّة)**: القائلون إنّ العباد مُوجِدُون لأفعالهم مُخْتَرِعون لها بقدرةٍ أعطاهم الله إياها، فأفعال العبد عندهم واقعة بقدرة العبد وحدَها على سبيل الاستقلال. فالْمُتَقَدِّمُون منهم مَنَعُوا من تسمية العبد خالقًا لِقُرْبِ عهدهم بإجماع السلف على أنه لا خالقَ إلا الله، لكن اجترأ المتأخِّرُون منهم فَسَمَّوُا العَبْدَ خالِقًا على الحقيقة، كما ذكره

التفتازانيّ في شرحه على العقائد النسفيّة. ثمّ القائلون من المعتزلة بهذه المقالة مختلِفون اختلافًا قليلًا فيما بينهم لكنّهم متَّفِقون على نَفْيِ خلْقِ الله للشُّرور والقبائح.

٣- **الـجَبْرية**: القائلون بأنّ العبد مجبور على ما يفعله وأنه لا اختيار له ولا كَسْب بل هو مُضْطَرّ مَثَلُه كمَثَل الريشة في مَهَبّ الريح، وأنّ أفعاله كلَّها ليست إلا كحركة المرتَعِش تصدُر منه بلا اختيار ولا إرادة وأنّ المؤثِّر في فعل العبد هو الله تعالى. وقد وافق الجبريّة في هذه المسألة فِرَق كثيرة، منها: الجَهْميّة والنجّاريّة والضِراريّة والبَكْريّة.

٤- **الفلاسفة**: القائلون بالإيجاب وامتناع التَّخَلُّف، ويَعنون بذلك أنّ الله تعالى يُوجِب للعبد القدرة والإرادة ثم هما يُوجِبَان وجودَ المقدور، وقد سبق مقالتهم «بالإيجاب والسلْب».

وكُلُّ كلام في هذه المسألة مخالفٌ لمذهب أهل السنّة والجماعة فهو باطل ساقط لا الْتِفات إليه. وقد أَجْمَعَ أهل الحقّ على أنّ الله تعالى هو خالق لأفعال العباد كُلِّها كما أنه خالق لأعيانهم، وأجمعوا على أنّ جميعَ ما يفعلونه خيرًا كان أو شَرًّا فهو بقضاء الله وقَدَرِه وإرادته ومشيئته عزَّ وجَلَّ، ولولا ذلك ما كانوا عبيدًا ولا مخلوقين ولا مَرْبُوبِينَ[1]، ومِمّن نقل الإجماع على ذلك أبو بكر الكَلاباذِيّ الحنفيّ في كتابِه «التعرُّف لمذهب أهل التصوُّف».

وأمّا قول المعتزلة: «إنّه تعالى أراد من الكافر والفاسق إيمانَه وطاعته لا كُفْرَه ومعصيته لأنّ إرادة القبيح قَبِيحةٌ كخَلْقِه وإيجاده» فهو كلام ساقِطٌ مردود عليه بقول أهل السُّنّة: القبيح هو كَسْبُ القبيح والاتِّصافُ به لا خَلْقُهُ مِن اللهِ. فالله تعالى خَلَقَ ما خلق مِن الخير والشرّ، إلا أن

(١) الله تعالى موصوف بمعنى الرُّبُوبية وهو المالِكِيّة قبل وجود المربوبين، والمربُوبون هم المخلُوقون.

خلق القَبِيح ليس بقبيح منه لأنّه يستحيل أن يَقْبُحَ مِن الله شىءٌ، فهو موجِدٌ للخير كالإيمان وءامِرٌ به ومُوجِدٌ للقَبِيح كالكفر والمعاصي غيرُ ءامِرٍ بها، وقد ورد الشرع بالثناء على الله تعالَى في أفعاله، فلا خِلاف بين المسلمين في شمول إرادة الله جميع المرادات.

وقد شذّ في عصرنا هذا بعض الجهال حيث وافَقوا ابنَ تيمية في دفع التكفير عمّن نفى عموم صفة المشيئة لله كما برَّؤوا مِنَ الكفرِ القائلين بكون أفعال العباد بغير خَلْقِ الله، فأقرّوا ابنَ تيمية على كلامه الذي نسَبَه هذا الأخير زُورًا إلى الإمام أحمد بن حنبلٍ في هذه المسألة ونصُّ كلامِه: «ولم يُكَفِّر أحمدُ الخوارج ولا القَدَرِيّة إذا أقَرُّوا بالعلم وأنكروا خَلْقَ الأفعالِ وعُمومَ المشِيئَةِ» اهـ. وهذا الكلام الصادر من ابن تيمية فيه تكفير للإمام أحمَد ودفعٌ للتكفير عمّن نفى شمول مشيئة الله جميع المرادات ونفَى كون جميع أفعال العباد مخلوقةً لله تعالَى، فأيُّ مسلِم يتوقَّف في تكفير من زعم حصول شىء مِن أفعال العباد بغير خلق الله أو زعم عدم عموم المشيئة لله؟! فالعَجَب كيف ينقلون ذلك عن ابن تيمية مستشهِدين بكلامه لبيان أنّ مِن أولئك المبتَدِعَةِ مَن لَم يُكَفَّر مع ما قالُوه مِن شنيع القول وأنّ الإمام أحمد لم يُكَفِّر هؤلاء، على مَا زعموا، سبحانك اللهمّ هذا بهتانٌ عظيم.

قال الإمام أبو إسحاق الأسفراييني في كتاب «التبصير في الدِّين» ما نصُّه: «وجاء في عموم الإرادة قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ وفي هذه الآية دليل على عموم إرادته» اهـ. وقال ربُّنا جلَّ جلاله في الكتاب الحكيم: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، وقال أيضًا: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ ، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾﴾.

ولَمَّا كانت أفعال العباد يطلق عليها أنها «شىء» فقد دخلت في إطلاق الآيات السابقة الشاملة لجميع الحادثات، ووجب أن تكون

بخَلْق الله قد حَدَثَتْ، لأنّ الأفعال لو كانت غيرَ مخلوقة لله لكانَ الله جلَّ شأنه خالِقًا لبعض الأشياء دون جميعها، حاشاهُ، ولكان قوله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ كَذِبًا، تعالى رَبُّنَا عن ذلك عُلُوًّا كَبِيرًا.

ثُمَّ إنَّ أفعال المخلوقات أكثر عَدَدًا من الأعيان أي الأجسام، فلو كان الله تعالى خالقَ الأعيان فقط وكان العبادُ هم خَالِقِيْ أفعالِهم لكان العبادُ أَوْلَى بصفة المدح مِن الله تعالى فيما خَلَقُوا لأنه على مقتضى قول المعتزلة الفاسد يكون خَلْقُ العباد أكثر مِن خَلْقِ الله ويكون العباد شُرَكاء لله في الخالقية وفي القادرية على زعم القائلين بهذا المذهب الفاسد، وذلك كلُّه باطلٌ لقوله تعالى: ﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾ فنَفَى تعالى أن يكون غيرُه خالِقًا، وقال الله تعالى: ﴿وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ﴾ فأخْبَرَ أنه قَدَّرَ سَيْر العباد، وقال أيضًا: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦﴾، وقال عزّ وجلّ: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ٢﴾، فدَلَّ ذلك على أنّ الشَّرَّ مِن جملة خَلْقِ الله. وقال عزَّ شأنُه: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ أي خَلَقْنَا الغفلة فيه، وقال أيضًا: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ﴾ فأخبر عزّ وجلّ أنّ قولَهم وسِرَّهُم وجَهْرَهُم خَلْقٌ له سبحانه.

وروى البخاري في صحيحه من حديث عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ في جنازة، فأخذ شيئًا فجعل يَنْكُت به الأرض[1]، فقال: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ**» قالوا: يا رسول الله، أفلا نَتَّكِلُ على كتابنا[2] ونَدَعُ العَمَلَ؟ قال: «**اعْمَلُوا، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ**

(١) وفي رواية للبخاري: «**ومعه عود ينكت به في الأرض**» أي يُؤَثِّر بطرف العودِ في الأرضِ، قال الطيبي: «**يفعل ذلك فِعل الْمُتَفَكِّر**».

(٢) أي على ما قُضِيَ لَنَا.

السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ» أي ما قَدَّرَ الله له أن يكون منه أمرٌ فإنه يتمَكَّن منه فيفعله، فالذي قَدَّرَ الله له أنه يكون من الكفار يُمَكِّنُه مِن أعمال الكفار فيعمل الكفر فيكون كافرًا، والذي قَدَّر الله له أن يكون مؤمنًا يُمَكِّنُه من أعمال المؤمنين أي أعمال البِرّ والخَير فيعمل بذلك فيَثْبُت على ذلك حتى يموت على الإيمان.

وكذلك جاء في حديث جبريل أنّ من الإيمان الواجب أن يؤمِن المكلَّف: «**بالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**» أي أن يصدِّقَ بأنَّ وجود المقدور نفعَه وضُرَّه وحُلْوَه ومُرَّهُ بِخَلْقِ الله، فالله قَدَّر الخير والشَّرَّ قبل خَلْق الخلائق، قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي وهو مُرِيدٌ لها ولا يكون إلا ما أراد لقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، فالطاعات يُحِبُّها ويرضاها بخلاف الكفر والمعاصي، وهو تعالى قال أيضًا: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾، والإرادة لا تستلزم الرِّضَا.

وقال الحافظ الخطيب البغدادي (ت **٤٦٣**هـ) في تاريخه ما نصه: «قال عليٌّ الرِّضا[1]: كان أبي يَذْكُر عن ءابائه أنّ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي لله عنه يقول: الله تعالى خلق كل شيء بِقَدَر حتَّى العجز والكيس» اهـ.

فاختيار العبد الحسناتِ والسيّئاتِ لا يجعله أهلًا لأن يَخْلُقَها، فالله خالقها والعبد له كَسْبٌ فيها، وهذا الكسب أمرٌ دون الخلق والتكوين، لأن العبد له قدرة حادثة ومشيئة حادثة، فيُوَجِّهُ إرادته الحادثة إلى أفعاله فتصدر عنه وتحصل منه بمشيئة الله الأزلية وتقديره الأزلي وقدرته الأزلية

(١) أبو الحسن عليّ الرضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم.

وقضائه الأزلي، ولا يحصل شيء من العبد بدون ذلك، كما أنّ الأجرام لا يحصل شيء منها إلا بعلم الله الأزلي ومشيئته الأزلية وقدرته الأزلية وتقديره الأزلي وقضائه الأزلي.

وقد تمسَّك المعتزلة بشُبهة لهم في تأويلهم قول الله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ فقالوا: هو نسب المشيئة إليهم في الإيمان والكفر، وكذلك خَيَّرهم بين الإيمان والكفر. والجواب عليهم: أنّ نسبة المشيئة إليهم لا يَدُلّ على أنها خَلْقٌ لهم، بل الله خالق لهم ولمشيئتهم ومشيئَتُهم تحت مشيئته، لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾، فقولهم: «إنّ الله خَيَّرهم بين الإيمان والكفر» جَهْلٌ من أولئك بصيغة الأمر وحكمته، فيقال لهم: لو كان هذا تخييرًا من الله لهم لَمْ يُعَذِّبْهم على الكفر ولم يُذَمُّوا عليه كما أنّ الْمُكَفِّر في كفارة اليمين لا يُعَذَّبُ ولا يُذَمُّ علَى التكفير بالإطعام أو الكسوة أو العْتِقِ لِمَا خَيَّرَهُم الله بذلك. فالمراد بالأمر في الآية السابقة التهديد لا التخيير، ويدُلّ على ذلك تتِمّة الآية: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾، فتوعَّد مَن كَفَر بالعذاب، وهذا نَظيرُ ما جاء في قول الله تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فلم يُخَيِّرهم بالعمل وإنما توَعَّدَهم على العمل بغير الطاعة، وقوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾ فهذا أيضًا توعُّدٌ منه سبحانه وتعالى.

ورُوِي أنّ غيلان القَدَرِيّ سأل عُمَرَ بن عبد العزيز عن قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ فقال له عُمَر: اقرأ ءاخِرَ السورة: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فقال غيلان: «قد كنت يا أمير المؤمنين أعمى فبَصَّرْتَنِي وَضَالًّا فهَدَيْتَنِي»، فَلَمَّا كان زمن هشام بن عبد الملك رَجَع إلى مقالته بالقَدَر فناظَرَه الأوزاعيّ على مرأى من النّاس وشَهِد عليه عند

الخليفة بأنّه زنديق وقال فيه مقالَتَه الشهيرة: «كافِرٌ ورَبِّ الكعبةِ يا أمير المؤمنين»، فقتله هشام فيما ثبت عِندَه مِن كُفْرِه. وفي هذا دليل على جواز تكفير الكافر المعيَّن، ومن شاء التوسُّع في ذلك فليَنظر كتابنا: «**البرهان الْمُبَيَّن في ضوابط تكفير الْمُعَيَّن**».

وروى الرَّبيع بن سليمان أنّ الشافعي رحمه الله سَمِعَ قومًا يتجادلون في القَدَر فقال الشافعي: «أخبر الله أن المشيئة له دون خَلْقِه والمشيئة إرادة الله، قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾».

ثُمّ لم يقتصر المعتزلة على القول بأن الكفر والمعاصي تحصل بغير مشيئة الله، وذلك كفرٌ صريح، بل قالوا أيضًا إن المكروه الذي يفعله العبد يقع من العبد بغير مشيئة الله، لأنّهم اعتبروا أن الأمر يتعلق بما تَعَلَّقَتْ به المشيئة، فالمشيئة والأمر عندهم بمعنًى واحد، وأما عند أهل الحق فليسَا بمعنًى واحد.

وذهبت عامّة الجَبْرّية إلى أنه لا قدرةَ للعبد أصلًا وأنّ كُلَّ ما يُسَمَّى «فعل العبد» فهو على سبيل المجاز لا الحقيقة، فإنّهم يَرَون أنّ العبد واقع في الخِذْلان أبدًا لأنه خاذل نفسه عن الامتثال لأمر الله عز وجل ولم يعبد الله ولم يحفظ حدوده.

ومما يدُلّ على إثبات قدرةٍ وإرادةٍ حادثتَين للعبد أنّه ما مِن عاقلٍ إلا ويُفَرِّق بين الحركة الاختيارية القَصْدِيّة وبين حركة الارتعاش الاضطِرارية، والحركتان صادرتان من العبد على صفة واحدة أي قامتَا في ذات واحدة مكتسِبَة للحركَتَين هي ذات العبد، فالعقل يُحِيل أن تكون تلك التفرقة بين الحركة الاختيارية وبين الحركة الاضطرارية راجعة إلى الفاعل نفسه، وليست الحركتان نفسَ ذات الفاعل بل هما أمر زائد عليها بدليل وجود ذاته هي هي حالة وجود الحركة وانعدامها، فثبت أن تخصيصه باختيار الحركة القصدية دون الرّعشة لا بُدّ له فيه من مخصِّص، ثم ذلك المخصِّص إمّا أن يكون وجوده هو تخصيصه للعبد

أو غير تخصيصه، والأول باطل لما أثبَتْنا من إبطال الإيجاب بالذات عند الكلام على اعتقاد الفلاسفة، والثاني ثابت لأن وجوده ليس هو نفسَ حياته ولا علمه ولا قدرته، فقد ثبت بذلك أنّ لهذا المخصِّص قدرةً هي معنًى يَتَّصِف به ذاته الموجود المتصف بالحياة والعلم، فهو قادر على تخصيص الممكن العقلي ببعض ما يجوز عليه دون بعض وبوقت دون ءاخر، وليس ذلك المخصِّص موصوفًا بالعجز عن تخصيص ذات العبد بعَرَض يجوز عليه دون عرَض ءاخر، بل المخصِّص يخصص العبد بحركة الرعشة إن شاء أو بغيرها في وقت ءاخر، وقد يخصصه بحركتين اضطراريتين أو أكثر غير متضادتين ولا متنافرتين عن الاجتماع في وقت واحد في ذات العبد، وتخصيصه هذا هو معنى الإرادة، فثبت أن ذلك المخصِّص موصوف بالقدرة والإرادة، وثبت أن للعبد إرادة واختيارًا ثابتان في حالة القصد إلى فعله الاختياري سواء نفذ قصده أو لا، وأنه موصوف بالقصور والعجز عن التأثير في الحركة الاضطرارية التي تقوم بذاته كالرعدة والارتعاش ونحوهما، وقد أثبت الله تعالى في كتابه العزيز وجود إرادة للعبد حادثة بقوله عزّ وجل: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ فأثبت بذلك كون العبد مريدًا.

ثُمّ إنّه ينبغي الانتباه إلى مسألة خاض المعتزلة فيها فأضلُّوا كثيرًا من الناس وهي قولهم: «الأمر هو المشيئة» أو قولهم: «الأمر تابِع للمشيئة»، وهذا خلاف معتَقَد أهل السنّة والجماعة، فالحقّ أنّ الله قد يأمر بما لم يشأه، كما أنه علم بوقوع شىء من العبد ونهاه عن فعله. فالكفر والعصيان لا يحبُّهما الله ولا يرضاهما لعباده ولا يأمر بهما، لكنّه تعالى شاء وقَدَّر وقوع الكفر والمعاصي من العباد باختيارهم فوقعت بخَلْقِ الله وكَسْبِهِم هُم، فهو تعالى شاء وقَدَّر حصولها وخلقها ولا يُحِبُّها ولا يَرْضَى بها، والعباد هم مكتَسِبُوها وليسوا لها بخالِقِين.

وقد قسَّمَ العلماء الأمور في هذه المسألة على أربع تسهيلًا على

الراغِبين بالحقّ:

الأول: ما أَمَر الله به وشاء وقوعه ووجوده: وهو إيمان المؤمنين وطاعتهم.

والثاني: ما شاءه الله ولم يأمر به: مثل كُفْر الكافرين وعصيان العاصين.

والثالث: ما أَمَر به ولم يشأ وجوده: مثل الإيمان بالنِّسبة للكافرين والطاعة بالنِّسبة للعاصِين.

والرابع: ما لم يأمر الله به ولم يشأه: مثل الكُفر والمعاصي بالنِّسبة للملائكة، فإنّ الله تعالى لم يأمُرْهم بالمعاصي ولم يشأ حصوله منهم كما ورد: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ [سورة التحريم].

لطيفة: قال أبو نعيم الأصبهاني في «حلية الأولياء» ما نصه: «حدّث وهبُ بن مُنَبِّه فقال: قرأت نيّفًا وتسعين كتابًا من كتب الله عز وجل، منها سبعون أو نيّفٌ وسبعون ظاهرة في الكتابين، ومنها عشرون لا يعلمها إلا قليل من الناس، فوجدت فيها كلها أنّ «مَن وَكَل إلى نفسه شيئًا من المشيئة فقد كَفَر» أي مَن جعل للعبد مشيئة يَستَقِلّ بها كفر، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أي لا مشيئة للعبد إلا أن يشاء الله له أن يشاء».

العِلم: صفة معنًى

وَاللهُ سبحانَهُ وتعالَى (**عالِمٌ بِكُلِّ شَيْ**)ءٍ، واستعمال الناظم لفظ «شيْ» بدل «شيء» بحذف الهمزة إنما هو من باب التخفيف لأجل الوزن، وهو لغة عربيّة فصيحة في الوقف على كلمة «شيء»، وقُرئ بها في التنزيل وهو المسمَّى بالحذف أو الإسقاط عند علماء القراءات. فالله تعالَى متّصِفٌ بصِفة العِلم الأزلية الأبديّة، فلا يُتَصوَّر في عِلمه نقصان كما أنّه لا يُتصوَّر له مبدأٌ ولا خِتام، بل عِلمُه تعالَى عِلم واحد شامل

لجميع المعلومات، وهو تعالى يعلم ذاته وصفاته وأفعاله بعِلمه الأزليّ، ولا يُمْكِن تصوُّر ذلك ولا الوصول إلى معرفة حقيقة تلك الصفة الذاتيّة لله تعالَى كما أنّه لا يُمكِننا إدراك حقيقة ذاته تعالَى.

وقد قال الفخر الرازيّ في كتابه «أساس التقديس»: «إذا جَرَّبْنا أنفُسَنا وجَدْناها متى اشتَغَلت باستحضار معلوم مُعَيَّن امتَنع عليها في تلك الحالة استحضار معلوم ءاخَرَ، ثم إنَّا مع ذلك نعتقد أنه تعالى عالِم بما لا نهاية له من المعلومات على التفصيل من غير أن يَحْصُل فيه اشتباهٌ والْتِباسٌ، فكان كونه تعالى عالِمًا بجميع المعلومات أمرًا على خلاف مقتضى الوَهم والخيال» اهـ، ذلك لأنّه لا يُقاس الخالق على المخلوق ذاتًا وفِعلًا وصِفةً، بل يقال: «فلانٌ عالِمٌ» ويقال: «الله عالِمٌ» مِن باب اتّفاق اللفظ في كلمة «عالِم» لا غير، فلا مُناسبة ولا مشابهة بين الخالِق والمخلوق، فلذا يَقْبُحُ استعمال لفظ «اشتراك لفظيّ» في مِثل ذلك، والصواب أن يقال: «هو اتّفاق لفظيّ» أي وافَقَ ظاهر اللفظِ اللفظَ.

والله تعالى عالم بجميع المعلومات الموجودات منها والمعدومات، فهو تعالَى عالِم بما كان وما يكون وما لا يكون أنْ لو كان كيف كان يكون. فإنّ الموجودات قديمٌ وحادث، والقديم هو الله تعالَى ذاتًا وصِفاتٍ وفِعلًا، وكما أنّه تعالَى عالم بِغَيره فهو كذلك عالِم بذاته وصفاته وأفعاله ولا يقال كيف ولا يُتصوَّر ذلك في ذِهن ولا يُتَخيَّل في وهم لأنّه لن يبلُغ حقيقة ذات الله متوهِّم ولا متفكِّر ولا متدَبِّر مهما صَرَف في ذلك وقتًا وجَهدًا، وعلى هذا يُحْمَل قول الله تعالى مُتَمَدِّحًا: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ وقوله أيضًا: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾، بل وفي هاتَين الآيتَين دليل لأهل السنّة والجماعة على كونه تعالى منَزَّهًا عن المقدار والشَّكل والصُّورة وغير ذلك مِن صفات الحادثات المخلوقات وإلا لكان الإدراك والعِلم مُحِيطَين به وذلك خِلاف الآيتَين السابِقَتَين.

وقال الفخر الرازي في «أساس التقديس» أيضًا: «فإن قيل لِمَ لا

يجوز أن يقال: «إنه وإنْ كان جسمًا لكنّه جسم كبير فلهذا المعنى لا يُحِيط به الإدراكُ والعلم»، قُلْنَا: لو كان الأمر كذلك لَصَحَّ أن يقال بأنّ علوم الخلق وأبصارَهم لا تحيط بالسماوات ولا بالجبال ولا بالبحار ولا بالْمَفَاوِز[1] فإنّ هذه الأشياء أجسام كبيرة والأبصار لا تحيط بأطرافها، والعلوم لا تصل إلى تمام أجزائها، ولو كان الأمر كذلك لَمَا كان في تخصيص ذاتِ الله تعالى بهذا الوصف فائدةٌ» اهـ.

ثُمّ إنّ معلومات الله تعالَى لا نهاية لها، لأنّ الله تعالَى يعلَم ذاتَه وصفاتِه ولأنّ الموجودات الحادثة الحاليّة وإن كانت متناهيةً فالممكنات في الاستقبال غير متناهية، ألا تَرَى أنّ أنفاس أهل الجنّة لا تنقضي، كُلَّمَا انقضى نفَس عقبه نفَس ءاخر وهكذا. قال الحافظ الزبيديّ في إتحافِه ما نصُّه: «وأنّه تعالَى عالِم بجميع المعلومات، موجودًا كان ذلك المعلوم أو معدومًا، مُحالًا كان أو ممكنًا، قديمًا كان أو حادِثًا، مُتَناهيًا كان أو غير مُتَنَاهٍ، جُزْئِيًّا كانَ أو كُلِيًّا، مُرَكَّبًا كان أو بَسِيطًا، مُحِيطٌ[2] بما يجري مِن تحتِ تُخُوم الأَرَضِين إلى أعلى السماوات، قال تعالى: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي عِلْمُه أحاط بالمعلومات كُلِّها. فعلى هذا التأويل يكون الْمُحِيطُ مِن أوصافه الأزَلِيّة لأنّه لم يزل عالِمًا بالمعلومات كُلِّها، ودليل هذه الإحاطة قولُه تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وكذلك قوله عَزّ وجلّ: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾، بل أَطْبَق المسلمون[3] على أنّه تعالى يَعْلَمُ دَبِيب أيْ حَرَكة النَّمْلَة السوداءِ على الصخرة الصَّمَّاءِ في الليلة الظَّلْماءِ. وكيف لا وَهُو خالِقُها، وقد قال الله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ

(١) جَمْعُ مَفَازة وهي الصحراء.

(٢) أي إحاطَة عِلم لا إحاطة تحيُّز لأنّ الله تعالَى ليس له مكان بل هو موجود أزلًا وأبدًا بلا مَكان ولا يتغيَّر.

(٣) أي أَجْمَعُوا.

﴿ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾، وإيراد هذه الأوصاف تَنْبِيهًا على كمال الدِّقّة والخَفاء. ويُدْرِك[1] بِلَا ءالةٍ حَرَكة الذَّرِّ، وهو الهباء المنتَشِر في ضوء الشمس في جَوّ الهواء، إنّه تعالى ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ مِنَ السِرّ وهو ما يَطْرَأ وجوده في ضمير صاحِبه، فيَعْلَمُه [اللهُ] قبل أن يقع بخاطر صاحبه، وقيل: «أَخْفَى» فِعلٌ أي وأَخْفَى ذلك عن خَلْقِه، ثم زَاده[2] إيضاحًا بقوله: ويَطَّلِع على هواجِس الضَّمائر وَهِيَ ما تقع فيه، وحَرَكات الخواطر مِمَّا تَخْطُر بها، وَخَفِيّات السَّرائر مِمّا تُكِنُّها فيها، بِعِلْمٍ قديم موصُوفٍ بالقِدَم أَزَلِيٍّ غَيْرِ مسبوق بالعَدَم، لا بِعِلْمٍ حادث مُتَجَدِّد حاصِل في ذاته بالحلول والانتقال كما ذهب إليه جَهْمٌ بن صَفْوانَ» اهـ.

وأمّا الأدلة من النصوص الشرعية على صفة العلم الأزلية الأبديّة لله، وأنها تتعلق بكل المعلومات فكثيرة، منها:

- **من القرءان**: قولُ الله تعالَى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ومعناه أنّه يعلم الواجب والجائز والمستحيل. وليس المراد بذلك أنّ المستحيل - وهو ما لا يكون - شيءٌ أي موجود، بل المستحيل في الأصل ليس شيئًا وإنما دخل في اللفظ هنا تَبَعًا. ونقل ابن حيّان في «البحر المحيط» عن التبريزي قولَه: «بِكُلِّ شيء مِن الواجب والممكن والممتَنِع» اهـ.

ومِن ذلك أيضًا قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ يعني بكل شيء من المعلومات، لا يَعْزُبُ عن عِلْمِه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. قال الطِّيبي: «فالإحاطة بالشيء عِلْمًا هو أن يعلم وجوده وجِنْسه وقَدْرَه وكَيْفِيَّتَه، وما يكون به ومنه، وذلك ليس إلا لله تعالى» اهـ. قلتُ: وهذا التفريع: الجنس والقدْر والكيفية ونحو ذلك هو في الكلام على المعلومات الحادثة. وليس معنَى الإحاطة بالشيء عِلْمًا أنّ الله مُحِيطٌ بها مِن الجهات بالتحيُّز، حاشا، فالله تعالَى لا

(١) أي يَعْلَمُ.
(٢) يعني الغَزالِيّ.

يُوصَف بالتحيُّز ولا بالحلول، وإنّما ذلك في لغة العرب للدِلالة على معنَى أنّ الله عَلِم كلَّ المعلومات بعِلم أزليّ أبديّ.

- **ومِن الحديث**: ما رواه البخاريّ ومسلم في الصحيحين وأحمدُ في مسنده وغيرُهم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**مِفْتاح الغَيْب خَمْسٌ لا يَعْلَمُها إلا الله: لا يَعْلَم أحدٌ ما يكون في غَدٍ، ولا يَعْلَم أَحَدٌ ما يكون في الأرحام، ولا تَعْلَم نَفْسٌ ماذا تَكْسِب غدًا، وما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيّ أرضٍ تموت، وما يَدري أَحَدٌ متَى يَجِيء الْمَطر**». قال الزّجّاج: «فمَنِ ادَّعَى عِلمَ شيء منها فقد كفر بالقرءَان العظيم» اهـ.

- **ومِن الإجماع**: ما قاله سراج الدين ابن الملَقِّن في «التوضيح»: «وأجمَعَتِ الأُمّة على أنَّ مَن نفَى كونه عالِمًا فهو كافر، فينبغي أن يكون مَن نفى كونَهُ ذا عِلْم كافِرًا، ومن نفى أحد الأمرين كمَن نفى الآخَر» اهـ.

وقد ذهب المخالِفون لمذهب أهل السُنّة والجماعة في الكلام على صفة العلم مذاهبَ شتى كلُّها باطلة:

- فأما الفلاسفة فمنهم من نفى على الإطلاق كون الله عالِمًا، ومنهم من أثبت كون البارئ عالِمًا بذاته دون غيره، ومنهم من أثبت كونه عالِمًا دون عِلْمِه بدقائق الأمور والجزئيات.

- وأمّا الجَهْمية فقالوا: لا يُوصَف البارئ بكونه عالِمًا ولا حَيًّا ولكن يوصف بكونه قادِرًا وخالِقًا.

- وأمّا الضِرارية فقالوا: هو عالم بمعنى أنه ليس بجاهل، ولم يُثبِتوا له صفة العلم.

- وأما الجُبَّائي من المعتزلة فقال: هو عالم لذاته دون أن يكون له صفة العلم.

- وأمّا أبو هاشِم[1] من المعتزلة فقال: هو عالم لذاته دون أن

(١) وهو ابن أبي عليّ الجُبّائيّ.

يوصف بثبوت صفة العلم له أو بعدمها أو بكونها معلومة أو مجهولة.

مسألة مُهمّة: ومِمّا ينبغي التنبيه عليه هو الكلام على عِلم الرسول وأنّه لا يَعلمُ الغيب كُلَّه، فلا أَحدَ يشارك الله في صفة من صفاته لا في صِفة العِلم ولا غيرِها مِن الصفات، فالرسول لا يعلم كل ما يعلمه الله، إنما الله تعالى أَطْلَعَه على بعض الغَيْبِيّات، ومَن قال بخِلاف ذلك فهو كافِر ليس مِسلِمًا، لأنَّ المقرَّر عند المسلمين أنَّ الله تعالى وَحْدَهُ المتَّصِف بالعلم بكل شيء، كما بَيَّنَّا بالأدِلّة السابقة، وقد قال تعالَى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فلو صحَّ العلم بكل شيء لغير الله تعالى لم يكن للتَّمَدُّح بوصفه نفسَه بالعلم بكل شيء معنًى، حاشَا لله، ولَنا في بسط هذه المسألة كلام مؤيَّد بأدِلّة أهل السنّة والجماعة عليها في كتابِنا «**الشرح الفريد لجَوهرة التوحيد**» فانظُره.

٨- سَمِيعٌ البَصِيْرُ والْمُتَكَلِّمُ لَهُ صِفَاتٌ سَبْعَةٌ تَنْتَظِمُ

السَّمْع: صفة معنًى

وَاللهُ عزّ وجلّ (**سَمِيعٌ**) متَّصِفٌ بصفة السَمْع الأزلية الأبدية التي يسمع بها كل المسموعات بلا أُذُن ولا ءالةٍ ولا واسِطةٍ. وسَمْعُ الله تعالَى ليس بحادث عند حدوث الأصوات إنما الله تعالَى يسمع جميع الأصوات بسَمْع لا مبدأ له ولا مُنتهًى، بل هو سمع واحد يسمع به كل المسموعات لا بطريق التخَيُّل والتوَهُّم ولا بطريق التأثُّر كالذي للإنسان، ولا بشرط قُرْب أو بُعْد أو جهة، وأمّا سَمْعُ الإنسان فإنه يَحْدُث به بِقُوّة مُودَعة في العَصَب المفرُوش في مُقَعَّر الصِّماخ - أي أَصْلِهِ - يُدْرك بها المرءُ الأصوات بتموُّج الهواء.

ثمّ الواحد مِنّا لا يسمع في الدنيا إلا الأصوات وهي لا تكون إلا

حادثة، وأمّا في الآخرة فإنّنا نسمع الأصوات ونسمع كلام الله الذي ليس حرفًا ولا صوتًا، ولم يَسمَع في الدنيا كلامَ اللهِ الأزليَّ إلا محمَّد وجبريل وموسى عليهم السلام، وقيل: ءادَمُ أيضًا، وأمّا باقي الأنبياء والملائكة فلم يسمعوا كلام الله الذي لا يشبه كلام العالَمِين.

وقد أنكر كثير من المبتدعة صفة السمع لله عزّ وجلّ وذهبوا في ذلك مذاهب شتّى:

- **فقال الكَعبيّ والبغدادِيُّون من المعتزلة** وطائفة مِن النجّاريّة: «إنّه تعالَى لم يزل سميعًا يسمع الأصوات بمعنَى أنّه يعلم الأصوات وأنّ ذلك لا يخفى عليه»، فنفَوا بذلك صفة السمع ورَدُّوها إلى العِلم، وهذا ضلالٌ مبين.

ومِن أقوَى أدِلّة أهل السُنّة عليهم قول الله تعالَى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، إذ في الآية اسمان لله يدُلّان على وصفين له وهما «السميع» و«العليم». وقد قال الفخر الرازي وابن عادل الحنبلي في تفسيرَيهما ما حاصله: «احتَجّ الأصحاب بالآية على أنَّ سَمْعَه تعالى غيرُ عِلْمِه بالمسموعات، لأن قولَه: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بناءُ مبالغة فيتناول كونه عالِمًا بجميع المعلومات، فلو كان كونه سميعًا عبارةً عن عِلْمِه بالمسموعات لزم التكرار وأنه غير جائز، فوجب أن يكون صفة كونه تعالى سميعًا غير وصفه بكونه عليمًا» اهـ.

- وقال الجُبّائي من المعتزلة: «لم يزل الله سَمِيعًا ولا يقال لم يزل سامعًا، لأنّه لَمَّا لم يَجُز أن تكون المسموعات لم تزل موجودة لم يجز أن يكون لم يزل سامعًا، كما أنه يقال للنائم سميع ولم يكن بحضرته ما يسمعه لكن لا يقال له سامِعٌ»، وهذا تهافُت وتخبُّط منشأه قياس شيطانيّ فاسد.

- وقالت الجهْمِيّة أتباع جَهْمٍ: «إنّه لا سَمْع لله تعالَى».

وأمّا أهل السنّة فقد أثبتوا صفة السمع لله، لكن ذهبوا في الكلام

على متعلَّقات هذه الصِفة مذهَبَين:

- مُتَقَدِّمو الأشاعرة والماتريدية: ذهبوا إلى القول بأنّ سَمْع الله متعلِّق بكل المسموعات.

- متأخِّرو الأشاعرة، كالسَنوسيّ: ذهَبُوا إلى القول بأنّ سَمْع الله الأزلي الأبدِيّ متعلِّق بكُلِّ موجودٍ. قال السنوسيّ في شرحه على «صُغرَى الصُّغرَى» المعروفة بـ«أُمّ البراهين» ما نصُّه: «وقولُنا: «فِي السَّمْعِ وَالبَصَرِ الْمُتَعَلِّقَانِ بِجَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ» أي يَنْكشِف لِسَمْعِه تعالى وبَصَرِه جميعُ الموجودات قَديمةً كانت أو حادثةً، وليس كسمع المخلوق الذي يَخْتَص عادةً تَعَلُّقُه بالأصوات» اهـ.

وأمّا الأدلة من النصوص الشرعية على صفة السَّمْع الأزلية الأبديّة لله فكثيرة جِدًّا، منها:

- **من القرءان**: قولُ الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، وقد ورَد ذكر اسم الله «السَّمِيع» في القرءان الكريم ستًّا وأربعين مرّة.

ومِن الأدِلّة أيضًا قول الله تعالَى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾، وسبب نزول هذه الآية ذكرتهُ عائشة رضي الله عنها فقالت: الحمد لله الذي وَسِعَ سَمْعُه الأصواتِ، لقد جاءت المجادلة تشكُوْ إلى رسول الله ﷺ وأنا في ناحية من البيت ما أسمَعُ ما تقول، فأنزل الله تعالى على النبي ﷺ الآيةَ، وهذا الخبر رواه البخاريّ في الصحيح. والمرأة التي كانت تشكو زوجها إلى النبي ﷺ تُدعَى خَولة بنت ثعلبَة الأنصاريّة وزوجُها الذي ظاهَر مِنها هو أَوْسُ بن الصامِت أخو الصحابيّ الجليل عُبادة بن الصامت، ومعنى ﴿تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ أي تسألك في شأن ما حصل معها وزوجَها مُستفتية إيّاك وليس أنّها كانت تُجادِل النبيّ اعتراضًا عليه وما حَكَم به في مسألتها.

- **ومن الحديث**: ما رواه الشيخان في الصحيحين وغيرهما عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كُنّا مع رسول الله ﷺ، فكُنّا إذا

أَشْرَفْنَا على وادٍ[1] هَلَّلْنَا وكَبَّرْنا ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُنا، فقال النبي ﷺ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُم، فَإِنَّكم لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا**» الحديثَ. **ومعنى «ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُم»** خَفِّفوا الصوت، وذلك رِفْقًا بهم لأنّهم كانوا في مَشَقَّة السَّفَر. وفي الحديث نفيُ الآفة المانعة من السَّمْع عن الله عز وجلّ، ونفيُ الجهل المانع من العِلم له سبحانه، وهو دليل صريح على أنه تعالى لم يزل سَمِيعًا ولا يصح وصفُه بِضِدّه.

ويؤخَذ من الحديث أيضًا جواز الذِّكْر الجَماعيّ خِلافًا لِمَن مَنَعَهُ مِن المجسِّمة الوهابيّة كالمدعو «محمد بن عبد الرحمن الخميس» الذي عَمِل مصنَّفًا مُفرَدًا لينصر مذهبه الفاسد القائل بأنّ الذِكر الجماعي بدعة فاسدة، والعياذ بالله تعالَى.

ومِن الأدِلّة على جواز الذِّكر الجَماعيّ أيضًا ما رواه البخاريّ في صحيحه ونصُّه: «وَكَانَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُكَبِّرُ فِي قُبَّتِهِ بِمِنًى فَيَسْمَعُهُ أَهْلُ الْمَسْجِدِ، فَيُكَبِّرُونَ وَيُكَبِّرُ أَهْلُ الأَسْوَاقِ حَتَّى تَرْتَجَّ مِنًى تَكْبِيرًا».

- **ومن الإجماع على إثبات صفة السمع لله تعالى**: ما نَقَلَهُ الإمام أبو منصور البغدادي في «الفَرْق بينَ الفِرَق» ونَصُّه: «وأجمَعُوا على أنَّ سَمْعَه وبَصَرَه مُحِيطان بجميع المسموعات والْمَرْئِيّات» اهـ.

مسألة مهمّة: ينبغي التنبيه إلى أنَّ لَفْظ «**الأَذَنَ**» بفتحتين الواردَ في الحديث المرفوع وفي كلام العرب هو غير الأُذُنِ التي هي الجارحة أي الآلة التي بها يُدرِك الواحِد مِنّا المسموعات. فقد أخرج ابن ماجه وابن حِبّان وأحمد والحاكم وغيرهم عن مَيْسَرَةَ أنّ رسول الله ﷺ قال: «**لَلَّهُ أَشَدُّ أَذَنًا** - أَيِ اسْتِمَاعًا[2] - **لِلرَّجُل الحَسَنِ الصَّوْتِ بِالقُرْءَانِ مِنْ**

(١) أي اطَّلَعْنا عليه.

(٢) قال أبو بكر الآجُرّي في كتابه «**أخلاق أهل القرءان**» ما نصُّه: «**قال الأوزاعي: يعني أذَنًا استِماعًا**» اهـ. وقال أبو عبيد: وقوله: «**أَشَدُّ أَذنا**» هكذا الحديث وهو في كلام العرب: «**أَشَدُّ أَذَنًا**» يعني الاستماع. ومثل ذلك قال النووي في ءاداب حملة القرءان، ولنا عليه=

صَاحِبِ القَيْنَةِ إِلَى قَيْنَتِهِ»[1] ومعناه أنّ قِراءة القرءان بصَوتٍ حَسَنٍ عَمَلٌ يُحِبُّه الله وذلك أَشَدُّ نَفْعًا للقارئ والسامع مِن العباد مِن رَجُلٍ يَشْتَرِي مُغَنِّيَةً تُغَنِّي له.

البَصَر: صفة معنًى

وَاللهُ سبحانَهُ وتعالَى هو (**البَصِيرُ**) المتَّصِفُ بأنّ له البَصَرَ الأزليَّ الذي ليس كبَصَرِ غيرِه مِن الرائِينَ، فهو تعالى يرى كلَّ الْمُبْصَرات بِبَصَرِه الأزلِيّ، وهذا هو قول المتقدِّمين من الأشاعرة، وأما قول مُتَأَخِّرِيهم فهو أنَّ الله تعالى يرى كلَّ موجود، وعليه جَرَى السَّنُوسيُّ في عقائده.

فإِبْصَاره عَزَّ وجل مُقَدَّس ومُنَزَّهٌ عن أن يكون بِحَدَقة أو ءالةٍ أُخرَى وأجفانٍ، كما أنّه تعالَى مُنَزَّهٌ عن أن يكون بَصَرُه ناشئًا بعد عَدَمٍ أو معلولًا عن سبب انطباع ألوانٍ وَصُوَرٍ كما ينطبع ذلك في باصِرةِ الإنسان، فبَصَرُ الإنسان -كما عَرَّفه التفتازانيّ - هو قُوّة مُرَتَّبة في العَصَبَتَين الْمُجَوَّفَتين اللَّتَيْن تتلاقيان في مُقَدَّم الدماغ فيَفْتَرِقان إلى العَيْنَين فيُدْرِكُ بها الإنسانُ الألوانَ والأضواءَ، ويَختَلِف وضوح المصوَّر[2] في باصرة الإنسان على حَسَبِ قُرْبِه وبُعْدِه، أمّا الله تعالَى فهو مُنَزَّهٌ عن أن يكون إبصارُه للمرئيّات محصورًا ومشروطًا بقُرْبِ المرئيّ أو بُعْدِهِ، بل الله تعالى يرى جميع المرئيّات، يرى نفسَه الأزليّ بلا كيف ولا مكان ولا زمان، ويرَى جميع المخلوقات المرئيّة دون أن يتقيَّد هو بزمان أو يتمَكَّن في مكانٍ، بل هو كما كان في الأزل لا يحتاج إلى مكان ولا

= تعليقات نافعة فانظره.

(١) ورد أيضًا برواية: «**إلى قارئ القرءان يجهر به**»، وورد برواية: «**إلى نَبِيّ يقرأ القرءان**»، وكذلك برواية: «**إلى قارئ القرءان يَتَغَنَّى بِهِ**».

(٢) أي الحادث لأنَّ من كان له صورة فهو مخلوق.

يتقيَّد بالزَّمان، إنما المرئِيَّات الحادثة متعدِّدة يراها الله ببصرٍ واحدٍ أزليّ أبديّ.

قال أبو الفَتح الشَّهرستاني في كتابه «المِلَل والنِّحَل» ما نصُّه: «وأجمَعُوا على أنَّ الحوادث لا تُوجِب لله تعالى وَصْفًا، ولا هي صفاتٌ له فتَحْدُث في ذاته هذه الحوادث من الأقوال والإرادات والتَسَمُّعات والتَبَصُّرات، ولا يَصِيرُ بها قائِلًا، ولا مُرِيدًا، ولا سمِيعًا، ولا بَصِيرًا».

ثُمَّ مِن الدليل العقليّ على أنّ بَصَر الله تعالى ليس كبصَرِنا أَنّ بَصَرَنا موصوف بأنواع كثيرة من النقصان: فإنَّا نُبْصِرُ غيرَنا ولا نُبْصِر أَنْفُسَنَا، ولا نُبْصِرُ ما هو قريب جِدًّا مِنّا أو بَعِيدٌ جِدًّا عنَّا، وكذلك لَسْنَا نُبْصِرُ إلا ظاهر الأشياء دُونَ بَاطِنها المستور، وغير ذلك مِن النقائص الكثيرة التي اتَصَفت بها أعيُنُنا، فسبحان الله رب العالمين الذي لا يحجبه شيء عن رؤيته شيئًا، ولا تُقَدَّرُ رؤيته المرئياتِ بالبُعْدِ الْمَسَافِيّ، لأنّ بصره ليس بِبَاصِرةٍ ولا اتِّصال شعاع بالْمَرْئِيّ بل ذلك من أوصافِ الرَّائِينَ مِنَ الْمُحْدَثَات.

وقد أنكر كثيرٌ مِن المبتدعة ثبوتَ صفة البَصَر لله عزّ وجلّ وذهبوا في ذلك فِرقًا عديدةً ومذاهب شتّى:

- فقال الكَعْبِيّ وأبو الحُسَين البِصْرِيّ من المعتزلة وطائفة مِن النجّاريّة: «معنى كونِه تعالى بَصِيرًا هو من باب المجاز لا الحقيقة، وأمّا الحقيقة فهي وصْفُه بأنّه عَالِمٌ بالْمُبْصَرات على حقائِقِها»، فنفَوا بذلك صفة البَصَر ورَدُّوها إلى العِلم وهو كُفرٌ باتّفاق أهل الإسلام.

- وقال الجُبّائِيّ من المعتزِلة كمقالةِ الكعبيّ وأبي الحُسين إلا أنّه لم يُرْجِع صفة البَصَر إلى العِلْم بل قال: «إنّ المعنى بكونه بَصِيرًا أنَّه حَيٌّ لا ءافَة بِهِ»، وهذا تعطيل لصِفَات الله وكُفْرٌ أيضًا.

- وقالت الجهْمِيّة أتباع جَهْم بن صَفْوان: «إنّه لا بَصَرَ لله تعالَى»،

وهذا قول شنيع اتَّخَذته المعتزلة شِرْعةً ومِنهاجًا لها في نفي الصفات، فقد قال أبو الحُسين العمرانيّ اليَمَنيّ صاحب «البيان في الفقه» في كتابه «الانتصار» ما نصُّه: «فلَمَّا ظَهَرَت شناعة قولِ جَهْم بذلك وخالف قولُه بذلك قولَ العلماء قَبْلَه، وخافَتِ المعتزلةُ والقَدَرِيّةً السُّيوف إن أَظْهَرُوا القولَ بِقَوْلِه قالوا: «إنّ الله قادرٌ حَيٌّ عالِمٌ مُرِيدٌ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ولكن ليس له قدرة ولا حياة ولا علم، ولا إرادة، ولا سمع، ولا بصر، بل هو موصوف بهذه الصفات لذاته»، حتَّى قال أبو الهُذَيل العَلَّافُ من رؤسائهم: «إنَّ عِلْمَ الله هو اللهُ»، فقيل له: فيَلزم على قولِك أن يقول الإنسان في الدعاء: «يا عِلْمُ اغْفِرْ لي وارحمني»، فأبى ذلك لَمَّا عَلِم تناقُضَ قوله فِيهِ، وقولهم يَرْجِع بالتحقيق إلى قول جَهْمٍ» اهـ.

والردُّ على أولئك المبتدِعة مِن صحيح المعقول أن يقال: لو كان الله تعالى غير بَصِير لكان أعمَى، وذلك مستحيل على الله تعالَى. فهؤلاء المعتزلة القائلون: «إن الله عليم لا بصير على الحقيقة» نسبوا إلى الله تعالى العَمَى، تعالَى الله عن ذلك.

وأمّا الأدلة من النصوص الشرعية على صفة البَصَر الأزلية الأبديّة لله تعالَى فكثيرة جِدًّا، منها:

- **من القرءان**: قولُ الله عز وجلّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، وقد سبق الكلام على هذه الآية الكريمة التي هي أصرَح ما فيه كتاب الله مِن الآيات الدالّة على تنزيه الله، فهي تُنَزِّه الله التنزيه الكلِّيَّ عن مشابهة المخلوقات بأيّ وجهٍ مِن الوجوه. وقد جاء اسمُ الله «البَصِير» في القرءان الكريم أكثر مِن أربعين مرة مُعَرَّفًا ومُنَكَّرًا.

ومِن الأدِلّة كذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾﴾ أي الله تعالَى يرَاك يا محمد حين تقوم في صلاتك بالليل كما أنّه يراك في النهار في كلِّ أحيانِك، فهذا الخِطاب وإن كان للنبيّ ﷺ إلا أنّ فيه الدليل الصريح على أنّ الله تعالَى يرى المرئيّات.

ثُمّ ليُتَنَبَّه أنَّه ليس معنَى قولِه تعالَى: ﴿يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أنّ الله لا يرى عَبْدهُ مُحَمَدًا في الحال التي لم يَكُن فيها قائمًا للصلاة، حاشا لله، بل الله تعالَى يرانا في كلِّ أحوالنا لا يخفى عليه شيء مِنَ الذوات والأعراض، وكذلك ليس في الآية أنّه يَحْدُث لله بَصَرٌ حين يتحرَّك الواحِد مِنّا، تعالَى الله عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا، فهو عزّ وجلَّ يرانا ونحن مُتَكيِّفون بِبَصَرِهِ الأزليّ الذي لا مبدأ له ولا كيفيّة، فسبحان الله العظيم الذي لا يُشبِه خَلْقَهُ.

والآياتُ الدالّة على ثبوت البَصَر لله كثيرةٌ، مِنها: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾، و﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ أي معكما بالنُّصرة والحِفظ لا بالحلول والتحيُّز.

- **ومن الحديث**: ما رواه الطبراني في المعجم الكبير من حديث عُقْبَة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبَر: «**رَبُّنَا سَمِيعٌ بَصِيرٌ**»[1]. **ويوجد أحاديث كثيرة غير الذي ذكرناه كالحديث المرفوع الذي فيه تَعداد أسماء الله الحُسنَى التسعة والتسعين.**

- **ومن الإجماع**: ما رواه الإمام أبو منصور البغدادي في «الفَرق بين الفِرَق» وقد ذكرناه قبل ذلك، وكذلك قول الباقلّانيّ في كتابِه «الإنصاف» ما نَصُّه: «وذلك أنَّ أهل السنة والجماعة قد أَجْمَعُوا على أنَّ الله تعالى يَرَى بالإبْصَارِ[2] على الحقيقة» اهـ.

مسألة مُهمّة: جاء في القرءان الكريم قول الله تعالَى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، وقولُه: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، وقولُه: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾، ولا يجوز حَمْلُ أيٍّ من تلك النصوص على معنَى أنّ العين هنا هي ءالة يُبْصِرُ الله بها ويرَى، فإنَّ الله تعالَى يرَى بلا عينٍ ولا ءالةٍ أُخرى كما أنّه يَسمَعُ

(١) قال الحافظ ابن حجر: «**وسَنَدُه حَسَن**».
(٢) أي بِصفَةِ البَصَر الأزلية الأبديّة الثابتةِ له تعالَى.

بلا أُذُنٍ ولا ءالةٍ أُخرى، بل معنَى تلك الآيات السابقة «بحِفْظِنا ورِعايَتِنا» لأنّه لا يجوز أن تكون ءايةٌ من ءايات القرءان ناسبةً لله الجِسم والأعضاء كما أنّه يستحيل أن تتعارض ءايات القرءان بعضها مع بعضٍ، فقول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ فيه دليل على أنّ سمع الله تعالَى وبصَره ليس كسَمْع وبَصَر غيره. ومن العجَبِ العُجابِ ما أتى به ابن تيمية في رسالته المسماة «بغية المرتاد» حيث جَعَل التنزيه تشبيهًا والعكس كذلك، فقال ما نَصُّه: «فلم يتَمَكَّن أن يخلو تَنْزِيه عن تشبيه ولا تشبيه عن تنزيه، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾ فنَزَّه ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ فشَبَّهَ» اهـ. تعالى الله عن ذَلِك وَجَلَّ سبحانه عن شُبَهِ التعطيل وشوائِب التَّشْبِيه وتقَدَّسَ عن النَّظِير والمثيل والشَّبِيه.

الكَلام: صفة معنًى

(وَ)اللهُ عَزّ وجلّ هو (**الْمُتَكَلِّمُ**) بكلامٍ أزلي أبدي ليس بمخلوق ولا مُحْدَث ولا مجعول، ولا هو حرف ولا صوت، وقد سكَّن الناظم التاء من «الْمُتَكَلِّمُ» لأجل الوزن. فكلام الله تعالى قديم وهو صفة كسائر صفات ذاته الواجبة له سبحانه، لا بداية له ولا نهاية، وجميع صفات ذاتِه مقدَّسةٌ عن النقص والمماثلة لغيره من الحادثات. قال أبو بكر الكلاباذي رحمه الله في كتابه «التعرُّف»: «مَن تَكَلَّم بالحروف فهو معلول، ومن كان كلامُه باعتقاب فهو مضطر» اهـ، وكلام الله تعالَى ليس كذلك.

ثُمّ لَا يَصِحّ عقلًا ولا نقلًا وصف كلام الله تعالى بشيء من صفات المخلوقين كائنًا ما كان، فقد جَلّ وتنزَّهَ كلامه عن الابتداء والانتهاء، والتحديد والتبعيض، واللَّحْن والإعراب، والانقطاع والسكوت والاتصال بمعنى التتابع والتعاقب كالذي يحصل للأجزاء الحادثة

المتعاقبة في كلام المخلوقات، أمّا كلامه تعالى فلا يَسْبِقُ بعضه بعضًا بل كلامه كُلُّه كلام واحد أزليّ، ويستحيل أن يَسْبِقَ الأزليُّ أزليًّا.

والصَّوابُ الذي عليه أهل السنة والجماعة قاطبةً أنَّ الذين سمعوا كلامه الذاتي وهم في الدنيا ثلاثة: محمد وموسى صلى الله عليهما وسلم، وجبريل أمين الوحي ورئيس الملائكة الكرام عليهم السلام. وذكر بعض العلماء أنَّ ءادمَ كذلك مِمَّن سمع كلام الله الذي ليس بحرفٍ ولا صوتٍ، فكلُّ هؤلاء سمعوا كلام الله وفهموا مراده من دون أن تكون لهم إحاطةٌ بحقيقة الكلام لله عزَّ وجلَّ.

وقال بعض العلماء: ءادم عليه السلام سمع كلام الله الذي ليس حرفًا ولا صوتًا. فالذين سمعوا كلام الله فهموا مراد الله لكن بدون إحاطة بحقيقة صفة الكلام لله.

وقد سمع سيدنا محمَّد ﷺ كلام الله مَرَّةً، وكذلك موسى سمع مَرَّةً، وأمّا جبريل فقد سمع مَرَّاتٍ. وهذا الوصف بـ«المرّات» هو عائِدٌ إلى سمع جبريل عليه السلام لا إلى صفة الكلام لله تعالى، لأنّ سَمْع جبريل حادِثٌ، وأمّا الله تعالى فكلامه ليس بحادث فلا يجوز أن يوصَف بِالتَّعَدُّد والتكَثُّر.

أمّا يوم القيامة فيسمع جميعُ العباد كلامَ الله الذي لا يشبه كلام أحدٍ مِن العالَمين، بدليل قول النبيّ صلى الله عليه وسلَّم في الحديث الصحيح المشهور الذي رواه البخاري والترمذي وابن ماجه وغيرهم: «**مَا مِنْكُم مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ**». وأمّا ما جاء في الحديث الآخَر الذي رواه البخاري وغيره عن أبي هريرة مرفوعًا: «**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِم**» فَمَعْنَى «**وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِم**» أَنَّهُ لَا يُكْرِمُهُم بَل يُهِينُهُم، ومَعْنَى «**لَا يُكَلِّمُهُم**» أنَّهم لا يَفْرَحون حين يَسْمَعُون كلام الله كما يفرح الأتقياء، أما سماعُ كلامه تعالى فهو حاصل لأولئك الثلاثة ولغيرهم من المؤمنين والكافرين.

فالذين يسمعون كلام الله حال كونهم مرضِيّين عند الله مقبولين لديه فإنّه يحصل لهم من الفرح والسرور ما لا يُوصَف، وأما الكُفّار فإنهم لا يشعرون بأمْنٍ بل يُصيبهم خوف عظيم وقلق مَتِينٌ لا يُوصَف، وأمّا بعض عصاة المسلمين أهل الكبائر فإنهم يكونون في حالة بين هؤلاء وبين هؤلاء. وهذا الموقف الذي يَقِفُه العبد يوم القيامة ويسمع فيه كلام الله ليس هو كوُقوف إنسانٍ أمام مَلِكٍ من الملوك بأن يكون بَيْنَه وبين ذلك الْمَلِك مَسافة ومُقابَلة بِجَهةٍ، بل وقوف العبد بين يدي الله تعالى في الآخرة ليس بحصول كيفية لله ولا هيئة لأنّه لا يجوز عليه ذلك.

وقد خالَف في هذه المسألة أصناف المعتزلة والجهميّة والمشبِّهة المجسِّمة:

- فأمّا المعتزلة فقالوا: «كلام الله تعالى صفة فعل مخلوق، وإنّ الله عَزَّ وجَلَّ كَلَّم مُوسَى بكَلامٍ أَحْدَثَهُ في الشَّجَرة». فهُم قائلون بأنَّ اللّه تعالى متكلّم بمعنَى أنّه فاعلٌ وخالق للكلام في غيره، ونسبة الكلام إليه تعالى هو على زعمهم من جهة أنّه فاعله ومُوجِدُه فقط لا أنّ الكلام قائم بذاته أي ثابت له. فحاصل مذهبهم أنّ اللّه تعالى متكلّم وكلامه فعل له غير قائم بذاته لاستحالة قيام الأفعال بذات اللّه تعالى على زعمهم، لأنّهم قائلون بأنّ كلّ فعل حادث، والحوادث لا تقوم بالقديم.

ثم اختَلَفُوا فيما بينهم في حقيقة كلام الله:

- فمِنهم مَن زَعَمَ أنّ كلام الله جِسم وأنه مخلوق وأنه لا شيء إلا جسم.

- ومنهم مَن زَعَمَ أنّ كلام الله جِسم هُوَ صَوت مُقَطَّع مُؤَلَّف مسموع وأنّه فِعلُ الله وخَلْقُه.

- ومنهم مَن زَعَمَ أنّ كلام الله عَرَض مخلوق.

- وأمّا الجهمية: فذهبت طائفة منهم إلى القول بأنّ كلام الله مخلوق

خَلَقَهُ في غيره، والفرق بينهم وبين المعتزلة أنّ هؤلاء الجهمية قالوا: «هو ليس بمُتَكَلِّم»، بينما أطلق المعتزلة أنَّه متكلم تقِيّةً لِئَلّا يُشَنَّع عَلَيهم.

- **وأمّا المشبِّهة المجسِّمة**: فقالوا: «الحروفُ المقَطَّعَة التي في المصحَف والأجسامُ التي يُكْتَب عليها والألوان التي يكتب بها وما بين الدَفَّتَيْن كلّها قديمة أزلية»، فاتّفَقُوا مع المعتزِلة على أنّ الكلام لا يكون إلّا بحرف وصوت، ولكنّهم قالوا: «إنّ المتكلّم إنّما هو من قام به الكلام، والحرف والصّوت قائمان باللّه تعالى»، وزادوا فوق ذلك قولهم بأنّ كُلَّ شيء يُوجِدُه الله إنما يكون بقوله «كُن» بالكاف والنون التي هي بزعمهم قديمة ليست كالكاف والنون التي في كلام الناس.

وهذا الادّعاء من المجسِّمة تهافُتٌ وفساد ظاهر مِن قائله وتحكُّم لا دليل عليه ولا برهان، فالحروف يجمعها التجانُس، والمجسِّم الذي يدّعي أنّ الكاف والنون التي ننطق بها في كلامنا هي غير الكاف والنون التي يزعم أن الله نطق بها، يُرَدُّ عليه بأنّ الكاف والنون التي ننطِقُ بها نحن هي نفسها التي في الآية الكريمة، وهي المشاهَدة في المصاحف، وتلك لا شَكّ أجسام مخلوقة يَستحيل أن تكون أزَلِيّة. ثمّ هذه الكاف والنون هي نفس جنس الكاف والنون التي تكتب تارة باللوح، وتارة تنقش نَقْشًا في الحجر، وتارة تُطْبَع خَتْمًا في الكتاب، وتارة على أُسطوانات المساجد وحِيطانها وجُدْرانها وغير ذلك، فإذا قيل بقِدَم كاف ونون مزعومتَين فما تلك الكافات والنونات المشاهَدة في أمثلتنا إلا أمثال لنفس الكاف والنون المزعومة من هذا الْمُجَسِّم، وإذا ثبتت الجسمية لما نُشاهِدُه فقد ثبتت كذلك لما هو مُدَّعًى بأنه غاب عَنَّا مِن الْمَثِيلات، لأنّ تَرْكَ القول بحدوث الحُروف يُفْضِي إلى القَوْلِ بِقِدَم العالَم، وذلك باطِلٌ ضرورةً، فَثَبَت مِمّا تَقَدَّم أنّ الحروف ليست قديمة، وكُلّ ما كان كذلك فإنّه حادِث، والحادِث لا يكونُ صفة للقَدِيم.

مذهب أهل السُّنَّة في سماع موسى كلَام الله الذاتيّ

اتفق أهل السنّة والجماعة على أنّ كلام الله تعالى ليس بحرف ولا صوت، لكن اختلفوا هل سمع موسى كلام الله الذاتيّ أو لا، وهم في هذه المسألة على رأيين:

- **مذهب أكثر السَّلَف وجمهور الأشاعرة** وبعض الماتريدية: أنّ سيّدنا موسى عليه الصلاة والسلام سمع كلام الله الأزلي الذي ليس بحرف ولا صوت كقولنا في المؤمنين أنّهم يرَوْن ذات الله في الآخرة من غير أن يكون الله جَوْهرًا ولا عَرَضًا مُتَحيِّزًا في جهة ومكان، فكمَا صَحَّ أنْ يَرَى المؤمنونَ اللهَ في الآخِرة بدون مُقابلةٍ فكذلك صَحَّ أن يُسْمَع كلامُ الله الذي ليس بِصَوْتٍ ولا حَرْفٍ، وهكذا كلُّ صفات المعاني الوجودية الثابتة للهِ يَصِحُّ رُؤيتها لو كُشِفَ الحجاب عن العِبَاد.

وُحَجَّة ما ذهبت إليه هذه الطائفة من أهل السُنّة في هذه المسألة هو قول الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ أي أسْمَعَه كلامَه الأزلي الأبَدِيّ، ففَهِم منه موسى ما فَهِم، فتكليم الله أَزَلِيّ وموسى وسماعُه لكلامِ الله حادِثٌ. وقد نقل ابن حجر عن النَحّاس اللُغَوِيّ نقله إجماعَ النحويين على أنّ الفعل إذا أُكِّد بالمصدر لم يَكُن مَجَازًا، فلَمَّا قال بعد الفِعل: ﴿تَكۡلِيمٗا﴾ وَجَب أن يكون كلامًا على الحَقِيقة.

- **مذهب جمهور الماتريدية**[1] **وبعض الأشاعرة**: أنّ موسى عليه الصلاة والسلام لم يَسْمَعْ كلام الله الأزليَّ وإنَّما سمع صوتًا مخلُوقًا من الشجرة بِغَيْرِ واسِطَةِ مَلَكٍ أو كِتَابٍ، وهذا الصوت حادِثٌ عبارة عن كلام الله أي يَدُلّ عليه.

(١) ولا نعني الإمام أبا منصور الماتريديَّ على التعيين.

وحُجَّتُهم في ذلك أنَّ كلام الله تعالى صفة قائمة بذات الله يَصِحُّ أن نراها ولكن لا نَسْمَعُها، لأنّ ما يدخل تحت السمع فهو حرف وصوت على مذهبهم، فقالوا: «حقيقة الكلام لا تُسْمَع، وإنما ذلك يكون على الموافقة والمجاز، كما إذا قال المرء: سمعت كلامَ فلان وقولَ فلان، فإن ذلك محمول على المجاز وليس على الحقيقة، لأنه لا يسمع قول فلان حقيقة ولا كلامه ولا حديثه، وإنما يسمع صوتًا يفهم به قوله وكلامه وحديثه».

كلام الله والقرءان لهما إطلاقان

قد بيّنّا أنّ عقيدة أهل السّنة والجماعة في كلام الله تعالى الذاتيّ أنّه ليس حروفًا متعاقبة ككلامنا ولا صوتًا، وأنّه إذا قرأ القارئ مِنّا كلامَ الله أي القرءان الذي هو اللّفظ المنَزَّل فإنّ قراءَته بحرف وصوت ليست أزلية لا محالة، لأنّ ما يقوم بالحادث لا يَصِحّ عقلًا ولا نَقلًا أن يكون أزَلِيًّا لا مبدأ له.

ثمّ الكتب المنَزَّلة على بعض أنبياءِ الله كالقرءان والتوراة والإنجيل والزَّبُور، وغير ذلك مما أنزله الله على رُسُلِه، هي عبارات عن كَلامِ الله الذاتيّ الذي لا يُقَيَّد بِزَمان ولا يُصَوَّرُ بحروف ولا أصوات ولا يُوصَف بابتِداء ولا اختتام ولا انقطاع ولا استئناف وغير ذلك من أوصاف الْمُحْدَثات. والعِبارات غَيرُ الْمُعَبَّر عنه، ولذلك فإنّ العبارات يَصِحّ أن تختلف باختلاف الأَلْسِنة واللُّغات، وأمّا كلام الله فواحِدٌ أزليّ أبديّ، ولذا فإنّه لَمّا عُبِّرَ عن كلام الله الذاتي بحروف عَرَبِيّة كانت العِبارات قرءانًا، ولَمّا كان ذلك بالعِبْرانية كانت العبارات تَوراةً، ولَمّا كان ذلك بالسُّريانية كانت العبارات إنجيلًا وزَبُورًا. فالاختلاف في العبارات دُونَ الْمُعَبَّر عنه، لأنّ كلام الله يستحيل عليه التغَيُّر والتعدُّد كما يستحيل ذلك على جميع صفاتِ الله عزَّ وجَلّ. فحروف القرءانِ حادثة كذا اللفظ

المنَزّل، والْمُعَبَّر عنه بها هو كلام الله الذاتي الذي ليس حروفًا ولا أصواتًا. وقد صَرَّح العلماء، الأشاعرة منهم والماتريدية، على أنّ القرءان قد يطلق على الكلام الذاتي القديم كما أنه يطلق على النَّظْم الْمَتْلُوّ الحادث وهو الآيات والسُّوَر.

فتبَيَّن مِمّا قَدَّمْنَا أنَّ القُرءان له إِطْلَاقانِ:

الأوّل: إطلاقه على كلام الله الذاتي الأزلي الأبدي الذي لا يَتَجَزّأ ولا يَتَبَعَّض، الذي ليس عَرَبِيًّا ولا سُرْيانِيًّا ولا غيرهما مِن اللُّغات، فالقرءان بهذا المعنى قديمٌ قَطْعًا، وهو كلام الله الذاتيّ الذي لا يُشبِه كلام العالَمِين، والأدلة على هذا كثيرة جِدًّا.

والثّاني: إطلاقُه على اللفظ المنَزَّل على سيّدنا محمَّد عليه الصلاة والسلام، ويُسَمَّى هذا اللفظ كلامَ الله أيضًا لأنه دَالٌّ على كلام الله الذاتيّ وهو عبارة عنه. والأَدِلّة على صحة هذا الإطلاق على الكلام المقروء في المصاحف كثيرةٌ أيضًا، منها:

- **قول الله تعالى**: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ أي حتى يسمع هذه الحُرُوف والألفاظ المخلوقة المنَزَّلَة على سَيِّدنا محمَّد، إذ كلُّ الأنبياء سوى محمد وموسى، وقيل: ءادم، ليس فيهم من سمع كلام الله الذاتي في الدُّنيا فَضْلًا عن أن يَسْمَعَهُ أَحَدٌ مِن الكُفّار.

- **وقوله تعالى**: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ حيث سَمَّى الله تعالَى القرءان «كلامَ الله»، وكلامُ الله تعالى الذاتيّ الذي هو صِفَته لا يَلْحَقُه تَغَيُّر ولي عَرَضًا لأنّ ذلك كلَّه مِن معانِي وأوصاف الحادثات.

فيَتَلَخَّصُ مِمّا مَضَى أن القرءان له إطلاقان، وأنّ كلام الله له إطلاقان أيضًا، وكلا الإطلاقين من باب الحقيقة[1]. فأما تسمية الكلام الذاتي

(١) الحقائق إما لغوية وإما شرعية وإما عرفية:=

لله «كلام الله» فظاهِرٌ لا يحتاج إلى تأويل، وأما تسمية اللفظ المنَزَّل «كلام الله» فهو لِأَمْرَين: كونُه يَدُلّ على كلام الله الذاتي الذي لا يُشْبِه كلام غيره، وكونه ليسَ من تأليف جِبْرِيل عليه السلام ولا مِن تأليف سَيِّدنا محمد ﷺ.

فائدة جليلة: قال الإمام محمّد بن إسماعيل البُخاريّ في كتابه «خَلْق أفعال العباد» ما نَصُّه: «القُرءان كلام الله وليس بِمَخْلُوق»، ثم ساق الكلام في ذلك إلى أن قال: «سَمِعتُ عبدَ الله بن سعيد يقول: سمعت يحيى بن سعيد[1] يقول: ما زلت أسمع أصحابنا يقولون: إن أفعالَ العباد مخلوقة، قال أبو عبدِ الله[2]: «حركاتُهم وأصواتُهم واكتِسابُهم وكِتابَتُهم مَخْلُوقةٌ، فأَمَّا القرءانُ الْمَتْلُوُّ الْمُبَيَّنُ الْمُثْبَت في المصاحِف المسْطُورُ المكتوبُ الْمَوْعِيُّ في القلوب فهو كلام الله ليس بِخَلْقٍ، قال الله: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾، وقال إسحاق بن إبراهيم[3]: فأما الأَوْعِيَة فمَن يَشُكُّ في خَلْقِهَا؟!»، ثُمّ قال

= فاللفظ إذا كان يستعمل لمعنى واحد أو لأكثر من معنى، فإذا استعمل في معناه الحقيقي يقال له حقيقة لغوية، وإن نقل إلى معنى ءاخر فذلك المعنى الآخر مجاز بالنسبة لهذا اللفظ.

وأما الحقيقة الشرعية فالمراد بها أن حَمَلة الشرع يستعملون تلك الكلمة أحيانًا في معنى معروف عندهم اصطلحوا عليه، فهذا الإطلاق الذي اصطلحوا عليه يقال له حقيقة شرعية بحيث إذا أُطْلِقَ هذا اللفظ يتبادر منه هذا المعنى الذي تَعَارفه حَمَلَة الشرع.

وأما الحقيقة العرفية فالمراد بها في عرف الناس وعاداتهم، مثال ذلك كلمة الدابة في الأصل معناها كل ما يدب على وجه الأرض من إنسان وبهائم وحشرات ونحو ذلك، ثم الناس جعلوه للحمار وشبه ذلك، فعلى الحقيقة العرفية هذه الكلمة معناها الحمار وشبه ذلك.

(١) يعني الحافظَ يحيى بنَ سعيدٍ القَطّان التَّمِيميَّ المتوفَّى سنة ١٩٨هـ.

(٢) هو الإمام البخاريّ.

(٣) يعني الحافِظَ إسحاقَ بنَ راهوَيْهِ الحَنْظَلِيَّ التَمِيمِيَّ المتوفَّى سنة ٢٣٨هـ.

البُخاريّ: «فأَمّا الْمِدَاد[1] والرَّقّ[2] ونحوه فإنه خَلْقٌ كما أنَّك تَكْتُب «الله»، فالله في ذاته هو الخالق، وخَطُّك واكتِسَابُك مِن فِعْلِك، والمسطورُ والمكتوبُ والْمَوْعِيُّ الدِّلَالاتُ» اهـ.

وليس المراد أنَّ اللفظ الْمَتْلُوَّ غير مخلوق وأنّ أشكال الحروف قَدِيمة، ولا يريد البخاريّ بـ«الْمَوْعِيّ» اللفظ المتَخَيَّل في الصدور، كل ذلك ليس عين كلام الله القائم بذاته بل كلها دِلَالات، فلْيُفْهَم ذلك ولا يُتَوَهَّم أنَّ اللفظ قديم غيرُ مخلوق، فإنّ ذلك خروج عن العَقْل وتكذيب لصَرِيح النقل.

الصفات المعنويّة عند القائلين بأنَّها غيرُ صفات المعاني

ولَمّا فَرَغ الناظم رحمه الله من الكلام على الصفات الثلاث عشرة الواجبة لله تعالَى، لم يستكمل الكلام على السبعة المعنوية: كونُه قادِرًا ومُريدًا وحَيًّا وسَمِيعًا وبَصِيرًا ومُتَكَلِّمًا وعالِمًا، وهي المفهومة من صفات المعاني السبعة: القُدرة والإرادة والحياة والسَّمْع والبَصَر والكلام والعِلم، وقد أعاد نظم صفات المعاني السبعة في شطرَين أو بَيتَين من مجزوء الرَّجَز، فقال: وواجِبٌ **(لَهُ)** أي للهِ سبحانه وتعالَى مِمّا يجب له من صفاتِ ذاتِه **(صِفَاتٌ سَبْعَةٌ)** تُسمَّى عند علماء الكلام الصفاتِ المعنويَّةَ وقد ذَكَرها الناظم على نَظم **(تَنْتَظِمُ)** به أي تُذكَر منظومة في شَطرين أو بيتَين مُتعاقِبَين. وهذه السبعة هي صفات وُجودِيّة يَصِحّ رُؤيتُها لو كُشِف الحجاب عن العِباد، وقد سبق الكلام عليها وأنّها سبعة عند مَن عَدَّ البقاء من الصِّفاتِ السَّلْبِيّة وثمانٍ عند مَن عَدَّها مِن صفات المعاني.

---

(١) أي الحِبْر.

(٢) أي الوَرَق الذي يُكْتَب فيه.

ومذهب القائل بالصفات المعنوية السبعة، وأنّها غير صفات المعاني السبعة، هو مذهب بعض مُتَأَخِّرِيْ الأشاعرة والباقِلّاني من مُتَقَدِّمِيهم وبعض من وافقهم مِمَّن ذَهَبَ إلى إثبات الأحوال في حَقِّ الله تعالى على ما يليق به عندهم فيما اصطلحوا عليه من القول في تعريف الأحوال، وغيرهم ولا فرق عند جمهور المتقَدِّمِين في المعنَى بين صفات المعاني أو الصفات المعنوية.

وأمّا القائلون بالأحوال من الأشاعرة وغيرهم من أهل السُّنّة فإنّهم يعتبرون الأحوال أمورًا ثابتة، لأنّ الأصل في ذلك عندهم راجع إلى أنّ الأمور ثلاثة: موجودات، ومعدومات، وأمور اعتبارية، بخلاف غيرهم الذين يقولون بالموجودات والمعدومات فقط وأنّه لا واسطة بين الوجود والعَدم. فذهب هؤلاء القائلين بالأحوال إلى أنّ الله تعالى له صفات ثُبُوتية ليست بموجودة ولا معدومة وإنما هي أُمُور اعتبارية لا تقوم إلا بموجود وتُسَمَّى في حقه تعالى «الصفات المعنوية» ووصفوها بأنّها «صفات الذات الملازمة لصفات المعاني».

لكنّ الذي عليه غالب المتكلِّمين أنَّ الصفات ثلاث عشرة، وأنّ من عَرَف أنّ الله له عِلم عرف أنه عَالم فلا حاجة لأن يقال العلم صِفة وكونه عالِمًا صفة. قال الحافظ محمد مرتضى الزبيدي الماتريدي في كتابه «الإتحاف» ما نصُّه: «واعلم أن هذه الصفات العشرين في الحقيقة أقسام أربعة: نفسية وسلبية ومعانٍ ومعنوية، وهذا على القول بثبوت الأحوال، والأصحُّ أنه لا حال، وحينئذٍ تكون الأقسام ثلاثة وعليه دَرَج غالب المتكلمين» اهـ.

فإن قيل: «لِمَ قال الناظم: «لَهُ صِفَاتٌ سَبْعَةٌ تَنْتَظِمُ» مع أنه قال أوَّلًا: «عِشْرِينَ صِفَةْ» ولم يَسْتَوْفِ العدد الذي نَصّ عليه، فلم يذكر المعنوية صريحًا على مذهب القائلين بالأحوال، وما فائدة التكرار؟»، فقد أجاب عن ذلك بعض شُرّاح هذه المنظومة بأنّ ذلك من باب

الاهتمام بشأن هذه الصفات السبع، وأنّ الناظم قد ذكرها مع كونها داخلة في الأسماء السبعة لأن المقصود في هذا العلم ذِكر العقائد على وجه التفصيل، لأنّ خطر الجهل فيه عظيم، وللردّ على قول المعتزلة فإنهم أنكروها فقالوا: إنه تعالى قادر بذاته مريد بذاته من غير قدرة ولا إرادة وهكذا إلى ءاخرها. وجمهور أهل السُنّة على أنَّه تعالى قادر ومريد بصفات وجودية قائمة بالذات يصح أن تُرَى.

٩- فَـقُـدْرَةٌ إرادَةٌ سَـمْـعٌ بَـصَـرْ حَـيَـاةٌ الْـعِـلْـمُ كَـلامٌ اسْـتَـمَـرْ

مسائل تتعلَّق بصفات المعاني

ثم شرع الناظم في تَعْداد الصفات السبعة المعنوية، وفي الكلام تقدير أي إذا أردتَ أن تعرفَ صفاتِ المعاني منظومة في بيت واحِدٍ يَسهل عليك حِفظ ألفاظها[1] **(فَـ)**ـأقول لك هي **(قُـدْرَةٌ)** الخ.

- **فأمّا القدرة: فإنّه يتعلَّق بمعرفتها مسائل تفصيلية كثيرة يمكن جمعُها في سبعة، وهي:**

كون قُدْرَة الله تعالى موجودة، وأزلية، وأبديّة، وواحدة، ومخالِفة لقُدرة غيره تعالى، ومتعلِّقة بجميع الممكِنات، ولم يَفْتَقِر الله إلى مَن خَصَّه بها.

- **ويجب لله تعالَى (إرادَةٌ)**: ويتعلَّق بمعرفتها مسائل تفصيلية كثيرة يمكن جمعُها في سبعة أيضًا، وهي:

كون إرادَتِه موجودة، وأزلية، وأبديّة، وواحدة، ومخالِفة لإرادَة غيره

(١) لا يَجِبُ حِفظ ألفاظ الصفات وجوبًا عَيْنِيًّا بل يجب معرفتها على كلِّ مُكَلّف واعتقاد معناها، إنما حِفْظ ألفاظها داخل في الفروض الكفائية.

تعالى، ومتعلِّقة بجميع الممكِنات، ولم يَفْتَقِر الله إلى مَن خَصَّه بها.

- **ويجب لله تعالَى (سَمْعٌ)**: ويتعلَّق بمعرفته مسائل تفصيلية كثيرة يمكن جمعُها في سبعة أيضًا، وهي:

كون سَمْعِه موجودًا، وأزليًّا، وأبديًّا، وواحدًا، ومخالِفًا لِسَمْعِ غيره تعالى، ومتعلِّقًا بجميع المسموعات على قول متقدِّمِيْ الأشاعرة وبجميع الموجودات على قول متأخِّرِيهم، ولم يَفْتَقِر الله إلى مَن خَصَّه به.

- **ويجب لله تعالَى (بَصَر)**: ويتعلَّق بمعرفته مسائل تفصيلية كثيرة يمكن جمعُها في سبعة أيضًا، وهي:

كون بَصَرِه موجودًا، وأزليًّا، وأبديًّا، وواحدًا، ومخالِفًا لِبَصَرِ غيره تعالى، ومتعلِّقًا بجميع الْمُبْصَراتِ على قول متقدِّمِيْ الأشاعرة وبجميع الموجودات على قول متأخِّرِيهم، ولم يَفْتَقِر الله إلى مَن خَصَّه به.

- **ويجب لله تعالَى (الحَيَاةُ)**: ويتعلَّق بمعرفتها مسائل تفصيلية كثيرة يمكن جمعُها في ثمانية، وهي:

كون حَياتِهِ موجودة، وأزلية، وأبديّة، وواحدة، ومخالِفة لِحَياة غيره تعالى، ولم يَفْتَقِر الله إلى مَن خَصَّه بها، وَلا تَعَلُّق لها بشيء وإنما هي صفة من صفات المعاني التي تَجِب لهُ تعالى، واتِّصافه بها يقتضي صحة اتصافه بالعلم والقدرة والإرادة وغيرها، لأنّ الاتصاف بهذه الصفات التي ذكرناها لا يَصِح لِمَن لا يُوصَف بالحياة.

- **ويجب لله تعالَى (العِلْمُ)**: ويتعلَّق بمعرفته مسائل تفصيلية كثيرة يمكن جمعُها في سبعة، وهي:

كون عِلْمِهِ موجودًا، وأزليًّا، وأبديًّا، وواحدًا، ومخالِفًا لِعِلْم غيره تعالى، ومتعلِّقًا بالواجب والممْكِن والمستحيل، ولم يَفْتَقِر الله إلَى مَن خَصَّه به.

- **ويجب لله تعالَى (كَلَامٌ)**: ويتعلَّق بمعرفته مسائل تفصيلية كثيرة يمكن جمعُها في سبعة، وهي:

كون كلامِهِ موجودًا، وأزليًّا، وأبديًّا، وواحدًا، ومخالِفًا لِكلام غيره تعالى، ومتعلِّقًا بالواجب والممْكِن والمستحيل، ولم يَفْتَقِر الله إلَى مَن خَصَّه به.

وقد سبق الكلام مُفَصّلًا على كلِّ صفة من هذه الصفات، لا سيّما على كلام الله عزّ وجلّ وأنّه أزليّ أبديٌّ كسائر صفاتِه تعالَى، وهذا معنَى قول الناظم عن كلام الله عزَّ وجلَّ أنَّه (**اسْتَمَرّ**) أي اسْتَمَرَّ وجودُهُ بمعنَى أنّه أبَدِيٌّ باقٍ كسائر صفاته لا يلحقه انقطاع، فاستمرار الوجود هو البقاء.

فلا يَتَوَهَمَنَّ أحَدٌ أنّ كلام الله تعالَى متعاقِب متتابع يسبق بعضه بعضًا وأنّ فيه سابِقًا ولاحِقًا، لأنّ مَن كانت هذه صِفَتُه لم يَكُن كلامًا أزليًّا، والله تعالَى مُنَزَّه عن ذلك كُلِّه.

وَلَمّا فَرَغ الناظم مِن الكلام على ما يجب لله تعالَى وهي الصفات العشرون، وعُلِمَ أنَّ المستحيل عليه ضِدُّ الصفات العشرين أيضًا، شرع في الكلام على ما يجوز في حقِّه عزّ وجلّ فقال رحمه الله:

١٠- وَجَـائِـزٌ بِـفَـضْـلِـهِ وعَـدْلِـهِ تَـرْكٌ لِـكُـلِّ مُـمْـكِـنٍ كَـفِـعْـلِـهِ

ما يَجوز في حقِّ الله تعالَى

(**وَجَائِزٌ**) عَقْلًا وشَرْعًا أن يُثِيبَ من أطاعَه مِن عِبادِه (**بِفَضْلِهِ**) وجُوده وكَرَمِه وإنعامِه مِن غير وجوب عليه، فإنه سبحانه لا ينتفع بطاعة الطائعين ولا يَنْضَرّ بعِصْيَان العاصِينَ، والفضل هو الإعطاء عن اختِيار لا عن إيجاب. وقد جاء في صحيح البخاري وغيره من حديث أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «**لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الجَنَّةَ**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله، قال: «**لَا وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ**» ومعناه العمل الصالح لا يُوجِبُ للعباد دخول الجنة إنما

بِرَحمة الله يَدخلونها، لأنّ الله ليس لزامًا عليه أنْ يدخلهم الجَنّة، إنما ذلك بِفَضْلِهِ ورحمته، وقد وعد مَن ءامَن وعَمِل صالِحًا ومات على ذلك أن يكون في الجنّة، فالعمل الحسن الذي يعمله المؤمنون هو بفَضْلٍ من الله، هو خَلَقَهُ فيهم لَيسُوا هم خلقوه، وهو يُدخِلهُم الجنّة بفضلٍ منه أيضًا.

وقد خالفت المعتزلة في هذه المسألة فقالوا: «يجب على الله تعالى مِن طريق الحِكمة أن يَخْلُق الخَلْق ابتِداءً، وإذا خلق الذين عَلِم أنه يُكَلِّفُهم فإنّه يجب أن يُكَمِّل عقولهم ويُزِيح العلل حتى يؤمنوا به، ويجب عليه أن يفعل ما هو أصلح لهم في دينهم ودنياهم، وأنه إذا أطاع العبدُ رَبَّه فيما أمره به فقد وجب عليه أن يُثِيبَه عليه وأن يُعَوِّضَه عَمَّا لَحِقَه مِنْهُ» وهذا كُفرٌ صريح وتكذيب لدِين الله عزّ وجلّ، ومُؤَدَّى كلامهم أنه إذا ترك ما هو أَصْلَح لعباده - على زعمهم - أو أنّه إذا اختار الصلاح بين صلاح وأَصْلَحَ فقد حصل منه بزعمهم بَخَلٌ وَسَفَهٌ يَسْتَحِقُّ الذمَّ عليه، فلَمَّا كان مُسْتَحِقًّا للمدح زعموا أنه لا بُدَّ أنْ يفعل الأَصْلَح لا غير، والعياذ بالله مِن هذا القياس الشيطانيّ الفاسد.

(وَ)مَن يشاءُ الله تعالَى أن يعاقِبَه فإنّه يُعاقِبه بِـ(**عَدْلِهِ**) لا ظُلْمًا مِنه عَزَّ وجلَّ لأن الظلم مستحيل عليه سبحانه، وقد قال في القرءان العظيم: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾، فهو مالك العالَم ويَفعل فيه ما يشاء، وقال لعباده: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾، وقال أيضًا: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًاۗ﴾، وقال ﷺ فيما رواه أبو داود وابن ماجه وغيرهما: «**لَوْ أَنَّ اللهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ لَعَذَّبَهُم وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُم، وَلَوْ رَحِمَهُم لَكَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُم مِنْ أَعْمَالِهِم**»، فلا يجوز الاعتراض عليه، ومن اعترض على الله فقد كَفَر وَاتَّبَع إبليس فيما اختارَ وَفَعل، وقد أَخْبَرَنا الله

تعالى عن حال إبليس كيف أنّه خرَج مِن الإسلام باعتراضه على الله، فقال عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ﴾ سجودَ تحية لا سُجودَ عِبادة ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وهو لم يَكُن يومًا مِن الملائكة كما يزعم بعضُ المفَسِّرين والمؤرِّخين فضلًا عن أن يكون طاووسَهم وهو كلام فاسد، لأن إبليس أبُو الجِنّ لكنّه كان أوَّل أَمْرِه يَعْبُد الله مع الملائكة، فلما اعْتَرَض على الله وكَفَر طُرِدَ إلى الأرض، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾. ثُمَّ كيف يكون من الملائكة وقد اعتَرض على الله وكفر به، والملائكة لا يحصل منهم معصية ولا كُفْرٌ، بل مدحهم الله في القرءان الكريم بقوله: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

فاللهُ تعالَى يفعل ما يشاء، ويجوز في حَقِّه تعالَى **(تَرْكُ لِكُلِّ مُمْكِنٍ)** مِن الممكنات كترك خَلْق الإيمان في زيدٍ وإبقائه على ما هو عليه مِن الكفر، فمنعُ ذلك عن أحدٍ مِن الخلقِ هو بمشيئة الله يحصل لا غيرُ **(كَفِعْلِهِ)** لِضِدّ ذلك أي كمشيئته إسلامَ زيدٍ بعد أن كان كافِرًا، إذ لا شيء في هذا العالم يحصل إلا بإرادة الله ومشيئته وتقديره وقضائه وتخليقه وعِلْمِه، سواء كان هذا الحادِث خيرًا أو شَرًّا فإنّه بإيجاد الله تعالَى يُوجَد لا غير، ويدُلُّ على ذلك صريح قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

النُّبُوَّات

الوَاجِبُ فِي حَقِّ الرُّسُلِ وَالْمُسْتَحِيلُ وَالجَائِزُ

لَمَّا فرغ الناظم رحمه الله من الكلام على توحيد الله وما يتعلق بصفات الله ونحو ذلك، وهو المعروف عند أهل الكلام بالإلهيات، شرع في الكلام على القسم الثاني وهو النُّبُوّات وما يجب للأنبياء وما يستحيل عليهم وما يجوز في حقِّهم فقال:

١١- أَرْسَلَ أنبياْ ذَوِي فَطَانَهْ بِالصِّدْقِ وَالتَبْلِيغِ والأَمَانَهْ

الفَرْق النُبُوّة والرِّسالة

لقد (**أَرْسَلَ**) الله تعالَى إلى الناس (**أنبِيا**)ءَ مِن البَشَر ليدعُوا الناس إلى عبادة الله وحدَه وأن لا يُشْرَك به شيء، وأن ينتهوا عن المحَرَّمَات، وأن يُؤَدُّوا ما فرض الله عليهم من الواجبات، فكان هؤلاء الأنبياء قدوة للناس في دينهم ودنياهم.

والأنبياء جَمْعُ نبيّ، ويقال نبيء بالهمز، فمن جعله فَعِيلًا كان عندَهُ بمعنى فاعل مِن النَّبَأ وهو الخبر لأنه أَنْبَأَ عن الله تعالى، ومذهب هؤلاء هَمْزُهُ «نَبِيْء»، وأما مَن سَهَّله «نَبِيّ» بدون همز فقد أخَذَهُ مِن النَّبْوَة وهي الارتفاع وذلك لرفعة منزلةِ النبيّ على الخَلْقِ.

والفرق بين النبيّ والرسول مِن البشر أنّ النبيّ هو إما نبيّ رسول أو نبيّ غير رسول، ويجتمع النبيّ والرسول في أنَّ كُلًّا مِنْهُما أوحي إليه بشرع وأُمِرَ بتبليغه، ويفترق الرسول عن النبيّ بأنه أُوحِيَ إليه بشرع جديدٍ أو بِنَسْخِ بعضِ أحكام شريعة مَن قَبْلَه، وأَمَّا النَّبيّ فيَتبع شرع الرسول الذي كان قَبْلَه.

ولا يصح قول بعض المصنِّفين: «النّبيّ إنسان أُوحِيَ إليه بشرع وإن لم يُؤْمَر بِتَبْلِيغه، فإنْ أُمِرَ بِتَبْلِيغِهِ فرَسُول»، لأَنَّ كُلًّا مَأمُور بالتبليغ كما

بيَّنَّا، وعَدَمُ التبليغ مِن الخيانة، والأنبياءُ مُنَزَّهُون عن ذلك.

فالتعريف الصحيح الذي ذكرناه ءانِفًا هو الذي جرى عليه جمهور السلف ومُحَقِّقوْ الخَلَفِ كالشَّيْبَانِيّ وأبي منصور البغدادي والفخر الرازي والبياضي الحنفي والمفسِّر البيضاوي والقونوي الحنفيّ شارِحُ العقيدة الطحاوية وغيرهم مِن أفذاذ العلماء المحقِّقين الْمُعْتَبَرِين في ذلك المقام.

والدليل من النصوص الشرعية على إبطال القول بأن «النبيّ إنسان أوحي إليه بشرع وإنْ لم يُؤْمَر بِتَبْلِيغِه» قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ أي إلا إذا بَلَّغ قومه، وذلك يدل على أنَّ النبيَّ مُرْسَل ومأمور بالتبليغ، وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ﴾ الآية، وقوله: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾.

ثُمّ إنّ النبوّة لا تكون في النساء ولا في غير البشر، فقد قال تعالى: ﴿مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾، وأمّا مَن قال بنبوّة ءاسية ومريم فقولُه مخالِف للجمهور، وقد قال النوويّ في شرحه على صحيح مسلم ما نصُّه: «والجمهور على أنهما ليستا نَبِيَّتَين بل هما صِدِّيقَتان ووَلِيَّتَان مِن أولياء الله تعالى» اهـ، وهذا هو المعتمد فلا عِبرةَ بخلاف ذلك، وقد نقل في نفس الكتاب الإجماع على أنّه لا نبيَّ مِن الجنّ وإنما من البشر فقط.

وأمّا الرسالة فتكون في البشر والملائكة، ورسالة الملائكة تكون إلى الأنبياء، وأمّا رسالة البشر فهي إلى الثَّقَلَين أي الإنس والجِنّ، وأمّا الملائكة فلا يحتاجون إلى رسل مِن البَشَر يُنذِرونهم تَخْويفًا بالنار والعقوبة على المخالفة والمعصية، بل هم كما قال الله فيهم: ﴿لَّا

يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

ثمَّ كُلُّ نبيّ يأخذ الشرع من جبريل وغيره من الملائكة، والدليل على أن غيرَ جبريل من الملائكة ينزل بالوحي أيضًا قول الله تعالَى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾، وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾، فقيل: هو عامّ فِي جميع الملائكة، وقيل: هو خاصّ بجبريل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل، وقيل: غير ذلك.

ما يَجِب للأنبياء عليهم الصلاة والسلام

إنّ مِمّا يَجِب للأنبياء عليهم السلام أن يكونوا (**ذَوِي فَطَانَةْ**) أي موصوفون بالذكاء وقُوّة الفهم وحِدّة العقل، وقد عَرّفها بعضهم بأنّها التيَقُّظ لإلزام الخصوم وطُرق إبطال تَحَيُّلهم ودعاوِيهم الباطلة، لأنّ ذلك هو اللائق برتبتهم العَلِيّة وبدَرَجَتِهم السَّنِيَّة.

ومِمّا يَدُلّ على فطانة الأنبياء وقُوَّتِهم في إقامة الحُجَج وقطع الخِصام والفصل بين الحق والباطل ونَصْب الأَدِلّة لإحقاق الحَقّ قَصَصٌ وَءاياتٌ مثل قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾، وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ الآيةَ، وغير ذلك من الآيات. فلا يجوز على الأنبياء الغباوة لأنهم أُرسلوا لإقامة الحُجّة وتبليغ الدعوة، ولا يقيم الحُجّة غَبِيٌّ كما أنّه لا يَقدر على تبليغ الدعوة أبْلَه، كما أنّ الناس مأمورون بالاقتداء بهم ولا يكون المقتَدَى به بليد الذِّهْنِ مُعَطَّل الفِكْر.

وقد أرسل الله عزّ وجلّ أنبياءَه مُزَيَّنِينَ (**بالصِّدْقِ**) وهو مطابقةُ خَبَرِهم الوَاقِعَ، فليس في الأنبياء من يكذب قبل النبوّة ولا بعَدها، قال الله تعالى: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾، وأمّا ما جاء في القرءان حِكاية عن قول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ فليس معناه أنّ إبراهيم كان يكذب ثم طلب من الله أن يزيل عنه هذه الخصلة

القبيحة، حاشا، وإنما معنى ذلك: يا ربِّ اجْعَلْ لي ثَنَاءً حَسَنًا وذِكْرًا جَمِيلًا في الأمم التي تَجيء بَعْدِي، وقال بعض المفسرين: معناه اجْعَل لِي ذَلِك في أُمّة محمد ﷺ وقد اسْتَجَاب الله دُعاءَه.

فلا يَتَوَهَّمَنَّ جاهِل أنّ إبراهيم كان يَقَع في الكذب المباح أو المحرَّم أو الواجب، لأنّ ذلك كُلَّه يستحيل صدوره من أيِّ نبيّ مِن أنبياء الله عليهم السلام، فكيف بِمَن هو ثانِيْ أفضل الأنبياء بعد أفضلية سيّدنا محمّد ﷺ وعلى جميع الأنبياء.

وأما قول إبراهيم عليه السلام عن زوجته سارة في حادثةٍ حصلت معهُمَا: «إِنَّها أُخْتِي» مع أنها ليست أخته في النسب فذلك لأنَّها أُخْتُه في الدِّين وهذا ليس كَذِبًا منه بل هو مِن حيث الباطن والحقيقة صِدْقٌ، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

وكذلك ما وَرَد مِن أمر إبراهيم عليه السلام في القرءان الكريم: ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ فليس هذا كَذِبًا بل هو صِدْقٌ مِن حيث الباطنُ والحقيقة، لأنّ كبير الأصنام هو الذي حَمَلَهُ على الفَتْكِ بالأصنام الأخرى، وذلك مِن شِدّة اغتياظه منه لمبالغتهم في تَعْظِيمه بتَجْمِيل هَيْأَتِه فَحَمَلَ ذلك إبراهيمَ على أن يُكَسِّر الصِّغَار ويُهِينَ الكبير فيضع الفأس في رَقَبَتِه، فكان إِسْنَادُ الفعل إلى الكبير إِسْنَادًا مَجَازِيًّا لا كَذِبَ فيه، وذلك كالمجاز الذي ورَد في قوله تعالى: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ لأنّ الجدار لا يكون له إرادة، فمعناه كاد أن يَسْقُطَ، فكلام إبراهيم عليه السلام كان في الحقيقة صِدقًا ليس كَذِبًا إنما صُورَتُه صُورَة كَذِبٍ.

وأما حديث: «**لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتَ**» فقد اعترض عليه بعض العلماء وأَوَّلَهُ بعضهم على أنه أتى بما صُورَتُه صورة كَذِب. ثم ينبغي التنبُّه إلى أنّه لا عبرة بما في بعض الكتب كما في كتاب المعلم

بفوائد مسلم للمازري المالكي ونَصُّه: «وأمَّا ما لا يَتَعَلَّقُ بالبلاغ ويُعَدُّ من الصغائر كالكَذْبَة الواحدة في شيء مِن أمور الدنيا فيَجْرِي ذلك على الخلاف في عصمتهم من الصغائر»، نَعُوذ بالله من هذا الكلام القبيح المردود الذي فيه تجويز نسبة الكذب صريحًا إلى نَبِيّ مِن أنبياء الله، ونحن لا نعتقِدُ أنّه مِن كلام المازِريّ، فلعلّه دُسَّ عليه، والله أعلم.

وقد خالف في هذه المسألة بعض فِرَق الضلال الكرامية من المرجئة فقالوا: «إنّ رُسُل الله يعصون الله في جميع الكبائر والصغائر عَمْدًا حاشا الكَذِب في التبليغ فقط» وهذا كفر وضلال مبين.

ويُؤَيِّدُ الحقّ الذي ذكرناه ما قاله الحافظ ابن الجوزي في كتابه «كَشْف الْمُشْكِل» وَنَصُّه: «اعْلَمْ أَنَّ الكَذِبَ لَا يَجُوز عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِحَالٍ، فهذا أصل ينبغي أن يعتقد ولا يناقض بأخبار الآحاد، فإنه ثابت بدليل أقوى منها، وإنما المعنى أن إبراهيم قال قولًا يُشْبِهُ الكَذِبَ» اهـ.

ولْيُتَنَبَّه أيضًا إلى أنَّ الكذب الواجب الذي يكون لدفع الضرر عن المسلم لا يجوز على الأنبياء ولا يحصل منهم ولا يليق بهم، فلو كان يحصل هذا منهم لَرُبَّما قال قائل: «وما يُدْرِينا أنَّ هذا النبيَّ يقول ما يقوله صِدْقًا أو كَذِبًا لِدَفْعِ ضَرَرٍ ما»، ومَعَاذَ الله أن يحصل كذِبٌ مِن أدنى نَبِيٍّ مِن أنبياء الله، إنّما الله تعالَى يُلْهِمُ الأنبياء فيدفعون الضَّرَر عن المسلم ما أمْكَن بدون كذِبٍ.

(وَ)يَجِبُ للأنبياء عليهم السلام أن يكونوا موصوفين بـ(**التَّبْلِيغِ**) لِمَا أمَرَهم الله تعالى أن يبلِّغوه للعباد، فليس فيهم مَن يَترك التبليغ أي إيصال ما أُمِروا بإيصاله، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾، وقال أيضًا حكاية عن قول نوح عليه السلام لقومه: ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ﴾، والآيات في ذلك كثيرة.

فلا يحصل مِن أحدٍ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن يكتم شيئًا أُمِرَ بتبليغه، فذلك مستحيل في حقِّهم. ولا تَنَافِيَ بين ذلك وبين قول

النبي ﷺ: «**لَوْ تَعْلَمُون مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُم قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُم كَثِيرًا**» فهو ﷺ قد بَلَّغَ كُلَّ ما أُمِرَ بتبليغه، كما فعل ذلك سائر الأنبياء عليهم السلام، لكنّ هذا الحديث كما قال النووي في شرحه: «معناه لو تعلمون مِن عِظَمِ انتقام الله تعالى من أهل الجرائم وشِدّة عقابه وأهوال القيامة وما بعدها كَمَا عَلِمْتُ وتَرَوْنَ النار كما رَأَيْتُ في مقامي هذا وفي غَيْرِهِ لَبَكَيْتُم كَثِيرًا وَلَقَلَّ ضَحِكُكُم لِفِكْرِكُم فِيمَا عَلِمْتُمُوه» اهـ.

فعُلِمَ مِمّا مَرّ أنّه لا يجوز على النبيّ أن يُبَلِّغ خلاف ما أمره الله، ويدخل في ذلك أنه يستحيل على النبيّ أن يتلُوَ على الناس شيئًا على أنّه مِن كتاب الله وهو ليس كذلك في الحقيقة، فمِن هُنا يُعْلَم أنّه لا يصِحُّ ذِكر قصّة الغرانيق على النحو الذي وضعه كثير مِن المفسِّرين في كُتُبِهم، فيقولون: إنّ الرَّسول كان يقرأ سورة النجم بمجلس من قريش فلَمَّا بَلَغ ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ أَلْقَى الشَّيطانُ على لِسَانه مِن غَيْرِ عِلْمِه: «تِلْكَ الغَرَانِيقُ العُلَى، وَإِنَّ شَفَاعَتَهُنَّ لَتُرْتَجَى» فَقرأَ هذه الكلماتِ فَفَرِحَ المشرِكُون وكانوا بالقُرْبِ مِنْهُ مع المسلمين وقالوا: مَا ذَكَرَ ءالِهَتَنَا بِخَيْرٍ قبلَ اليوم، فجَاء جِبْرِيل وقال له: هذا ليسَ مِنَ القُرْءَان، فَحَزِنَ رَسُول الله، وأَنْزَلَ الله الآية التي في سورة الحَجّ تَسْلِيَةً لَهُ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾، وهذه الرواية غيرُ صحيحة وحصول قراءة شيء غير القرءان على ظَنِّ أنه قرءان مُستحِيلٌ على الرسول، فهو معصوم من ذلك.

وقال الفخر الرازيّ في تفسيره عند كلامه على بُطلان هذه القِصّة مُخْتَصَرًا: «أما أهل التحقيق فقد قالوا هذه الرواية باطلة موضوعةٌ، واحتَجُّوا عليه بالقرءان والسُنَّة والمعقُول:

- **مِن القرءان**: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ فلو أنه قرأ عَقِيب هذه الآية تلك الغرانيق العلى لكان قد ظهَرَ كَذِب الله

تعالى في الحال وذلك لا يَقُولُه مُسْلِمٌ.

- **مِن السُنّة**: ما روي عن محمد بن إسحاق بن خزيمة أنه سُئِل عن هذه القصة فقال: هذا وَضْعٌ مِن الزنادقة، وصَنَّف فيه كتابًا. وقال الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي: هذه القصة غير ثابتة مِن جهة النقل، ثم أخذ يَتَكَلَّم في أنَّ رواة هذه القصة مَطْعُون فيهم، وأيضًا فقد روى البخاري في صحيحه أنَّ النبي عليه السلام قرأ سورة النجم وليس فيه حديث الغرانيق، وروى هذا الحديث من طرق كثيرة وليس فيها ألبتة حديث الغرانيق.

- **وأمّا من المعقول**: فمِن وجوه:

مِنها: أنّ مَن جَوَّز على الرسول ﷺ تعظيم الأوثان فقد كفر.

ومِنها: وهو أقوى الوجوه، أنّا لو جَوَّزنا ذلك لارتفع الأمان عن شَرْعِه وجوزنا في كل واحد من الأحكام والشرائع أن يكون كذلك، ويبطل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾»، اهـ كلام الرازي مُختَصَرًا.

وقَد ردّ الإمام أبو منصور الماتريديّ في تأويلاته هذه القِصّة من عِدة وجوه، أحَدها قوله: «لو كان ما ذَكَرَ هَؤُلَاءِ، كيف عَرَفه في المرة الثانية أنه جبريل وأنه ليس بشيطان، ولا يُؤْمَن أنه يلبس عليه في وقت ءاخَر في أمثاله» أي على زعم الذين قالوا بأنّ جبريل كان هو الذي نبّهَهُ في المرّة الثانية.

وقال القاضي عياض: «كان سبب سجودهم فيما قال ابن مسعود: إنها أَوَّل سَجْدَة نَزَلَتْ. وأَمَّا ما يَرْوِيه الإخباريون أنَّ سَبَبه ما جرى على لسان رسول الله ﷺ مِنَ الثَّنَاء على الأصنام بقوله «تِلْكَ الغَرَانِيق العُلَا» فبَاطِل لا يَصِحُّ لا نَقْلًا ولا عَقْلًا، لأَنَّ مدح ءالهة غَير الله كُفْرٌ، ولا يَصِحّ نِسبة ذلك إلى رسول الله ﷺ ولا أن يَقُولَه الشيطان بلِسانه حاشاه منه» اهـ.

(وَ)يَجِبُ للأنبياء عليهم السلام أن يكونوا مَوصُوفِين بـ(الأَمَانَة) وهي عصمتهم عن الخيانة في القول والحال والفعل، ولا يستقيم تفسير الأمانة بأنّها العصمة من جميع الذنوب الكبيرة والصغيرة ومن المكاره، لأنّ الأنبياء قد يحصل منهم معصية صغيرة لا خِسّة فيها ولا دناءة كما حصل مع سيّدنا ءادم عليه السلام وقد أخبر الله تعالى عن ذلك في القرءان فقال: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ فلا معنَى «لعَصَى» إلا أنّه وقع في ذنب صغير لا يدلّ على خِسّة ولا دناءة، وأمّا «فَغَوى» فمعناه أخطأ في قضيّة الشجرة، وكان ذلك قبل أن يُنَبَّأ، وكان قد أخبرَه الْمَلَك قبل ذلك بأنّ الله نهاه عن أن يَقْرَب مِن شجرة مُعَيَّنة لكن لم يثبت لنا ما نوع هذه الشجرة، فليس لنا أن نخوض في البحث عن ذلك ولم يُكَلِّفْنا الله بهذا.

فالأنبياء عليهم السلام لا يَتَلَبَّسُون بالمعصية الصغيرة التي تدل على خساسة النفس ودناءتها ولا بالذنب الكبير ولا بالكفر، فلا يحصل منهم هذا قبل النبوة ولا بعدها، ولا يخونون الله تعالى الذي اصطفاهم بتعطيل فرائضه وأحكام شرعه ولا يتركون الدعوة إلى دينه ولا يتكاسلون عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يخونون الناس في الأقوال والأفعال والأحوال، وإذا استنصحهم شخص فلا يكذبون عليه فيوهمونه خلاف الحقيقة، وإذا استأمنهم شخص أمانة لا يضيّعونها، وقد كان نَبِيُّنا محمَّد ﷺ يدعى في قومه مِن قَبْلِ أن ينزل عليه الوحي «مُحَمَّدًا الأمين».

١٢- وَجَـائِزٌ فِـي حَـقِّـهِـمْ مِـنْ عَـرَضِ بِـغَـيْـرِ نَـقْـصٍ كَـخَـفِـيْـفِ الْـمَـرَضِ

ما يجوز في حقّ الأنبياء

(**وَجَـائِزٌ فِي حَقِّهِمْ**) أي في حقِّ الأنبياء عليهم السلام ما كانَ (**مِنْ عَرَض**) مِن الأعراض البَشَريّة التي قد تطرأ عليهم (**بِغَـيْـرِ نَقْصٍ**) قادِح في مراتبهم العلِيّة، لأنّه لا يجوز عليهم أن يتّصفوا بأيّ وَصْف ظاهر أو باطن يَقدح ويَحُطّ مِن مرتبتهم، فمِن الجائز في حَقِّهم الأكل الحلال والشرب الحلال ونَوْم العينين لأنّ قلوبهم لا تنام، وهذا من خصائصهم عليهم الصلاة والسلام وليس ذلك للأولياء فمَن دُونَهم، والدليل على أنهم يأكلون ويشربون كغيرهم مِن البَشَرِ قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾، وقوله أيضًا: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ وفي هذا رَدّ على الكفار الذين قالوا: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧﴾.

ويؤخَذ أيضًا مِن هذه الآيات السابقة الردُّ على الجَهَلَةِ القائلين بأنّ سيّدَنا محمَّدًا صلّى الله عليه وسلم خُلِقَ مِن نُور وأنّه أوَّل المخلوقات، ويُؤَيِّد رَدَّ ادّعائهم ما جاء في الحديث الذي رواه ابن حبان في صحيحه وأحمد في مسنده والبيهقي في الأسماء والصفات والحاكم وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، إنّي إذا رأيتُكَ طابت نَفْسِي، وَقَرَّت عَيْنِي، أَنْبِئْنِي عن كُلِّ شيء، قال: «**كُلُّ شَيْءٍ خُلِقَ مِنَ الْمَاءِ**»[1]. **وقال القَسْطَلّاني في شرحه على البخاري: «وهذا يَدُل عّلى أنّ الماء أصلٌ لجميع المخلوقات ومادَّتِها وأنّ جميع المخلوقات**

(١) قال الحافظ العسقلاني في فتح الباري: «**إسناده صحيح**» اهـ.

خُلِقَتْ منه» اهـ.

ثُمَّ لا يجوز على الأنبياء أن يُصيبهم شيء مِن الأمراض المنَفِّرة كالجُذام والبَرَص والجُنون وخُرُوج الدُّود من أجسادهم مع كونهم أكثر الناس بلاءً وأكثر الناس صَبْرًا، فنَبِيُّنَا محمَّد عليه الصلاة والسلام كانت تَصِيبُه الحُمَّى كَحُمَّى رجلين لأنَّ مَرْتَبَتُه أعلى وصَبْرَه أقوى، وكذلك كُلُّ الأَنْبِيَاءِ كان يُشَدَّدُ عليهم مِن أَلَم الجِسْم فيصيبهم المرضُ القَوِيُّ الذي لا يُنَفِّرُ كالحُمَّى الشديدة وما دُونَ ذلك (**كَخَفِيفِ الْمَرَضِ**) الذي لا يقدح في منصبهم ولا ينفّر ذوي الطباع السليمة منهم، وذلِكَ كلُّه لِزِيَادة دَرَجَاتِهِم عند الله تعالَى.

فمِن هنا يُعْلَم أن ما يرويه بعض المؤرِّخين والمفسِّرين مِن أنَّ نبي الله أيوب عليه السلام قد خَرَج مِن بَطْنِهِ الدُّود لَمَّا مَرِض فهو افتراء وكذب عليه، لأنه لا يليق بنبيّ من أنبياء الله عز وجل أن يحصل له هذا، لأنّ هذا شيء يُنَفِّر ذَوِي الطباع السَّلِيمة من الناس عن قَبُول الدعوة مِنهم، فلذلك كان يَسْتَحِيل أَنْ يُصِيبَ الأَنبياءَ هذا المرض وما كان على شاكِلَتِه مِن الأمراض المنفِّرة.

وقال القاضي عياض في «إكمال الْمُعلِم» ما نَصُّه: «الأنبياء مُنَزَّهون عن النقائص في الخَلْق والخُلُق، سالِمُون مِن الْمَعايب، ولا يُلْتَفَت إلى ما قاله مَن لا تحقيقَ عِنْدَه في هذا الباب مِن أصحاب التواريخ في صفاتِ بعضهم[1]، وإضافة بعض العاهات إليهم، فالله تعالى قد نَزَّهَهُم عن ذلك ورَفَعَهُم عن كل ما هو عَيْب ونَقْص مما يَغِضُّ العُيون[2] ويُنَفِّر القُلوب» اهـ.

---

(١) يعني بعضَ الأنبياء.

(٢) أي منَزَّهون عَمّا يجعَل لعيون تغُضّ عنهم لنقص فيهم. قال في الصَحاح: "وغَضَّ منه يَغُضُّ بالضم إذا وضَع ونَقَص من قدره، يقال: ليس عليك في هذا الأمر غَضاضَةٌ أي ذِلَّةٌ ومنقصةً" اهـ.

وقال الشيخ محمد بن درويش الحوت البيروتي الحسيني (ت ١٢٧٦هـ) في كتابه «أسنى المطالب» ما نصُّه: «قِصّة سيدنا أيوب عليه السلام وأنَّ الله سَلَّط عليه إبليس فنفخ عليه فأصابه الجُذَام حتى تناثر الدود مِن بَدَنِه إلى ءَاخِرِ ما يَذْكُرُه أهل القصص وبعضُ المفسِّرين مِنَ الْمُنَفِّرَاتِ طَبْعًا، كُلُّ ذلك زُوْرٌ وكَذِب وافتراء مَحْضٌ ولا عِبْرَة بِمَنْ نَقَلَ ذلك وإن كان مِنَ الأَجِلاّء[1]، حيث إنّ هذا لم يَرِد لا في كتاب الله وفي سُنَّةِ رَسُولِه حتى ولا في طَرِيقٍ ضَعِيف ولا وَاهٍ بل هو مُجَرَّدُ نَقْلٍ بِغَيرِ سَنَدٍ، وقد ذكر بعضهم أنَّ النَّصَبَ المذكور في قوله تعالى: هو الضُّرُّ[2] اهـ.

وقد أفردنا لهذه القضيّة والدفاع عن نبي الله أيوب فيما افتروا عليه كتابًا خاصًّا أسميناه: «**إسعاد الأرواح والقلوب بتبرئة نبيّ الله أيّوب**» فانظره تجد فيه ما يكفيك صاحب الحق.

١٣- عِصْمَتُهُمْ كَسَائِرِ الْمَلائِكَهْ وَاجِبَةٌ وَفَاضَلُوا المَلائِكَهْ

و(**عِصْمَتُهُمْ**) أي الأنبياءِ واجبة لهم من الكُفر والكبائر وصغائر الخِسّة قبل النُبوّة وبعدها. والعِصمة في اللغة مُطلَق الحِفظ، وهي في اصطلاح المتكلِّمين في هذا المقام حِفْظُ اللهِ أنبياءَه من أن يَقَعُوا في ذنب يستحيل عليهم أن يَصدُر منهم، كالكفر والذنب الكبير والذنب الصغير الذي يدلّ على خسّة نفْس ودناءة مثل سَرِقة حَبّة عِنَب.

قال الفخر الرازيّ: «واجتمعت الأُمّة على أن الأنبياء معصومون عن الكفر والبدعة إلا الفَضِليّة من الخوارج فإنهم يُجَوِّزون الكفر على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وذلك لأنّ عندهم يَجُوز صُدور الذنوب عنهم وكلُّ ذنب فهو كفر عندهم، فبِهذا الطريق جَوَّزُوا صدور الكفر عنهم» اهـ.

---

(١) لِأَنَّ العِبْرَةَ بِمَا وَافَقَ الكِتَابَ أَوِ السُّنَّةَ أَوِ الإِجْمَاعَ.

(٢) أَيِ البَلَاء الَّذِي نَزَلَ بِه، ولم يَكُن شَيْئًا يُنَفِّرُ النّاس مِنه.

وقد اختَلف أهل السنّة والمبتدعة في هذه المسألة، وبيان ذلك على النحو الآتي:

- ذهب مُحَقِّقُوْ أهل السنّة والجماعة: إلى عِصمة الأنبياء عن الكفر والكبائر وصغائر الخِسّة قبل النُبوّة وبعدها وأنه يجوز عليهم أن يفعلوا ما هو صغيرة لا خِسّة فيها ولا دناءة، وهو مذهب معظم الفقهاء والمحدِّثين والمتكلِّمين من السَّلف والخلف، كما نقله النووي وسيأتي نصّ كلامه فيما بعدُ، وهو القول المعتمد الموافِق لكلام أبي الحسن الأشعري رضي الله عنه لكنه قيَّد في بعض الكتب في الكلام عن حصول الصغيرة التي لا تقدح بمنصبهم بما قبل النُبُوّة. وقد جاء في القرءان ءايات تَدُلّ على ما ذكرنا، منها:

أ) قول الله تعالى حكاية عن حال ءادم: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾، قول ءادم وحواء: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾: وكان خطأ ءادم أنّه أكل من الشجرة التي نُهِي عن الأكل مِنها.

ب) وقوله تعالى حكاية عن موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾: وكان خطأ موسى عليه السلام أنه ضرب ذلك الشخصَ الذي كان كافرًا قبل أن يأتيه الإذن بالضرب، لأنّ الأنبياء ينتظرون الإذن، فموسى عليه السلام ضرب ذلك الشخص وكان ذلك الشخص مُعْتَدِيًا خَبِيثًا لم يكن من الأتقياء، لكن ضرَبَهُ لا بِنِيّة قتله إنما بِنِيّة دَفْعِه، فمات ذاك من هذه الضربة.

ت) وقول الله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه الصلاة والسَّلام: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾. فإذا كان إبراهيم الذي هو أفضل الأنبياء بعد محمد يعترف بالخطيئة فكيف نقول عن أبي بكر أو عمر أو عثمان أو علي أو الحسن والحسين أو جعفر أو زين العابدين ونحوهم إنّهم لا يصدر منهم ذنب بالمرة، فقول الله تعالى:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ لا يَدُلّ على أنّهم لا يعصون بالمرّة.

ث) وقول الله تعالَى حكاية عن يونُس عليه الصلاة والسلام: فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ: وكانت خطيئته أنه لَمّا غضب على قومه ترَكَهم قبل أن يأتيه الإذن من الله عز وجلّ.

ج) وقال الله تعالَى حكاية عن داود عليه الصلاة والسلام: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾.

- وذهب بعض أهل السُنّة إلى القول بأنّ الأنبياء معصومون أيضًا من الصغائر بعد النبّوة، وهم في استدلالهم على ذلك فريقان:

أ) استدلّ بعضهم لذلك بأمور مِنها أنّ الذنب الصغير الذي وقع من ءادم إنما كان قبل النبّوة لا بعدها ناهيك عن أنّه ذنب صغير لا يدلّ على خِسّة ولا دناءة.

ب) واستدلّ غيرُهم باستدلال مردود وهو أنّ ءادم إنما كان نهيُه عن الأكل من الشجرة إرشادًا إلى الأفضل وأنّه لَمّا زلّ بأَكْلِه مِن الشجرة فقد تَرَكَ الأفضل لا أنّه عصَى، وهذا تأويل مردود. وقد رَدّ عليهم الجمال الغزنوي فقال: «لأنّ الأفضل يقتضي فاضِلًا في مقابلته فيقتضي أن يكون أكْلُ الشجرةِ مِن ءادم عليه السلام فاضِلًا مع كونه مَنْهِيًّا عنه مع قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾» اهـ.

هذا هو تفصيل الكلام على مذاهب أهل السُنّة والجماعة في هذه المسألة، وأمّا أهل الضلال:

- فقد ذهب قُدامَى الحشْوِيّة المجسِّمة إلى أنّه يجوز على الأنبياء الإقدام على الكبائر والصغائر.

- وذهب الجُبّائيّ مِن المعتزلة إلى أنّه لا يجوز عليهم تَعَمُّد الكبيرة والصغيرة، ولكن يجوز صدور الذنب منهم على سبيل الخطأ في التأويل.

- وذهب أبو إسحاق النّظّام وجعفر بن مُبَشِّر الـمُعتَزِلِيَّان إلى أنه لا يجوز على الأنبياء الكبيرة ولا الصغيرة لا بالعمد ولا بالتأويل ولا بالخطأ، وأما السهو والنسيان فقالوا هو جائز عليهم.

- وذهب الأزارِقة مِن الخوارج إلى جواز بِعثة نبيّ يَكْفُر بعد نُبُوّتِه، بناءً على أصلهم الفاسِد في أنّ كلّ ذنبٍ هو كُفرٌ.

تِتمّة: نسوق هنا نُقولًا لبعض الفقهاء والْمُحَدِّثين أثبتوا جواز وقوع المعصية الصغيرة التي لا خِسّة فيها ولا دناءة من الأنبياء، سواء كان ذلك قبل النُبُوّة أو بعدها:

- قال أبو الحسن بن بطّال في شرحه على البخاريّ ما نصُّه: «وقال أهل السُنّة: جائز وقوع الصغائر من الأنبياء، واحتَجُّوا بقوله تعالى مخاطِبًا لرسوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ فأضاف إليه الذنب، وقد ذكر الله في كتابه ذنوب الأنبياء فقال تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾» إلى أن قال: «وقال إبراهيم: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾، وفي كتاب الله تعالى مِن ذِكْر خطايا الأنبياء ما لا خَفاء به» اهـ.

- وقال القاضي عياض: «وأما الصغائر فجَوَّزَها جماعة من السلف وغيرُهم على الأنبياء، وهو مذهب أبي جعفر الطبري وغيرِه من المفَسِّرين والفقهاء والمحدثين» اهـ.

- وقال النوويّ في شرحه على صحيح مسلم ما نصُّه: «وكذلك لا خلاف أنهم معصومون من الصغائر التي تُزْرِي بفاعلها وتَحُطّ مَنزِلتَه وتُسْقِط مروءَته، واختلفوا في وقوع غيرها من الصغائر مِنهم، فذهب معظم الفقهاء والمحدِّثين والمتكلِّمين من السَّلف والخلف إلى جواز وقوعها منهم وحُجَّتُهم ظواهر القرءان والأخبار» اهـ.

خاتِمة فِي ذِكْر بعض ما يجوز على الأنبياء وما لا يجوز

وهذه فوائد منثورة في مُنتَخبات من الكتب، مجموعة في صدور بعض المحقِّقِين من العلماء، رأينا أن نجمعها هنا للفائدة الْمَزيدة على ما ذكرناه قبل ذلك. فنقول وبالله نستعين:

- يجوز خروج المني من النبيّ عند الجماع، وفي ذلك أثر ورد في البخاري أن عائشة كانت تَحُكُّ الْمَنِيَّ مِن ثَوْبِ النبي ﷺ.

- لا يجوز أن يتلاعب الشيطان بالنبيِّ فيَحْتَلِمَ، إنما قد يخرج من النبي مَنِيٌّ مِن امتلاء الوعاء.

- يجوز على الأنبياء العمى الطارئ من بعد النبوة كالذي أصاب سيدنا يعقوب عليه السلام حيث عَمِيَ مِن شِدّة حزنه على يوسف عليهما السلام، وليس هذا العَمَى هو الذي يمتنع في حَقِّ الأنبياء، إنما العَمَى الممتَنِع عليهم هو ما يكون في الابتداء مع البِعثة وقبل نزول الوحي، أَمّا الطارئ بعد النُّبُوّة فلا يمتَنِع عليهم.

- لا يجوز أن يخطئ النبيّ فيما يجلب على المسلمين ضررًا لكن يجوز عليه الخطأ في بعض الأمور الدنيوية، ومِن ذلك ما ورد أن النبي ﷺ مَرَّ بقوم يُلَقِّحُون، فقال: «**لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلَحَ**»، فخرج شِيصًا أي رَدِيئًا لا يَشْتَدُّ نَوَاهُ، فَمَرَّ بهم فقال: «**ما لِنَخْلِكُم؟**»، قالوا: قلتَ كذا وكذا، قال: «**أَنْتُم أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُم**»، وفي رواية: «**إِذَا أَمَرْتُكُم بِشَيْءٍ مِنْ دِيْنِكُم فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا أَمَرْتُكُم بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيٍ** - أَيْ أَمْرِ دُنْيَاكُم - **فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ**».

- لا يجوز على النبيّ أن يخطئ في الاجتهاد في الدِّين وأمور التشريع، ومَن قال بخلاف ذلك كَفَرَ لتكذيبه قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ

عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾. وقال بعض علماء الأصول: قَد أَذِنَ اللهُ للنَّبِيِّ أن يَجْتَهِد في أمور التشريع ولا يُخْطِئ إذا اجْتَهَد.

- يجوز حصول النِّسْيان مِن الأنبياء لَكِنّه قليل بالنِّسْبة لِغَيْرهم، أمّا أنْ يَنْسَى شيئًا مِن القرءان مما أنزل عليه كنِسيان ءاية أو ءايتين في أثناء سُورة بعد أنْ يُبَلِّغ أُمَّته فإنّه يجوز عليه ذلك لكن لا بُدَّ أن يَتَذَكر، فقد جاء في البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمع رسول الله ﷺ رَجُلًا يقرأ في سورة بالليل، فقال: «**يَرْحَمُهُ اللهُ، لَقَدْ أَذْكَرَنِي كَذَا وَكَذَا ءَايَةً كُنْتُ أُنْسِيتُهَا**[1] **مِنْ سُورَةِ كَذَا وَكَذَا**» معناه أَنْسَانِيهَا اللهُ.

- لا يجوز في حقّ الأنبياء أن يُشَجِّعوا الناس على الحرام، فلا صحة لِمَا يُرْوَى عن عيسى عليه السلام أنه قال: «مَن ضَرَبَكَ عَلَى خَدِّكَ الأَيْمَنِ فَأَدِرْ لَهُ خَدَّكَ الأَيْسَرَ» فلا يَصِحّ مِن نَبِيّ أنْ يأمر بإعانة الضارِب بغير حقّ على مَعْصِيَتِه.

- يجوز على الأنبياء أن يقولوا في بعض المسائل أي في غيرِ الضَّرُورِيّات «لا أدري»، فقد روى البيهقي وابن حبان وغيرهما من حديث ابن عمر قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أيُّ البِقاع خَيْرٌ؟ قال: «**لا أَدْرِي**»، قال: فأيُّ البِقَاع شَرٌّ؟، قال: «**لا أَدْرِي**».

- لا يجوز على الأنبياء هُرُوبُ الجُبْن، أما الْهُروب مِن الشَرّ أي الفِرَار مِنَ الأَذَى لا لِلجُبْن فَيجوز عليهم، وقد قال تعالى حكاية عن قولِ موسى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾.

- لا يجوز أن يُؤَثِّر سِحْرٌ في عقل نَبِيّ ولا أن يَخْتَلّ فِكْرُه بسبَبه أو بِسَبَبِ أَمْرٍ ءاخَر.

---

(١) هو مِن باب الأدب وليس من باب التحريم، الأحسن أن لا يقال: نَسِيت كذا من القرءان، بل يقال: أُنْسِيت كذا مِن القرءان.

- يجوز على الأنبياء الإغماء، فالرَّسول ﷺ كان يُغْمَى عليه في مرض وفاته مِن شِدّة الألم، ولكن لا يجوز عليهم الجنون لأن ذلك لا يليق بمنصب النُبُوّة.

عِصمة ملائكة الله الكرام

لقد عَصَم اللهُ الأنبياءَ أي حَفِظَهم مِن الكفر والكبائر وصغائِر الخِسّة (كـ)ـعِصْمَتِه تعالَى لـ(ـسَائِر الْمَلَائِكَة) وهذه العِصمة (وَاجِبَةٌ) مُطلَقًا مِن كُلِّ ذنبٍ لجميع الملائكة الكِرام البَرَرة، فلا يجوز عليهم الصغيرة مُطلَقًا فضلًا عمّا هو أشنَع منها كالكبائر والكفر، فلا يصدر منهم معصية قَطُّ.

والنصوص التي تدلّ على عِصمة الملائكة صريحًا ومفهومًا كثيرة، منها:

- قول الله تعالى في صفة الملائكة: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٥٠﴾ وهذا يتناول جميع الملائكة في فعل جَمِيع المأمورات وترك جميع المنهيات، كما قال الفخر الرازيّ. ومعنَى هذه الآية كما قال أبو القاسم القشيري وتاج القراء الكرماني: «يخافون الله أن يُنَزِّل عليهم عذابًا مِن فوق رءوسهم. وقال ابن عطية: وقوله «من فوقهم» يحتمل معنيين: أحدهما: الفوقية التي يُوصَف بها الله تعالى فهي فَوقِيّة القَدْر والعَظَمة والقَهْر والسُّلْطان. والآخَر: أنْ يَتَعَلَّق قولُه ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾ بقوله ﴿يَخَافُونَ﴾ أي يخافون عذابَ رَبِّهم مِن فَوقِهم» اهـ، فلا مُتَمَسَّك للمجسِّمة المشبِّهة الوهابيّة ومن وافقهم في قولهم بأنّ هذه الآية تدلّ على وجود الله فوق السماوات، لأنّ صريح قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ يدلّ على أنّ الله تعالى لا مكان له ولا يحتاج إلى ذلك.

- **وقوله جلّ جلاله:** ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

- وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ

مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

- وقوله أيضًا: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾، قال الفخر الرازيّ: «وما كانت صفته كذلك لا يَصْدُر عنه الذنب» يريد أنّ الذي يدلّ على ذلك أنّهم منشغلون بخالص العبادة كلّ الوقت.

وقد نقل الإجماع على ذلك غيرُ واحِدٍ منهم الخازِن المفسِّر، والفخر الرازيّ في كتابه «عصمة الأنبياء»، وغيرهما.

وأمّا هاروتُ وماروتُ فالكلام فيهما أنّهُما مَلَكانِ من الملائكةِ كَريمان على الله، لا يعصُونَ الله ما أَمَرَهُم ويَفْعلونَ ما يُؤْمَرون. وأَمَّا مَا يُرْوَى عنهما أنهُما شرِبا الخمرَ ثم قَتَلا الطِفلَ الذي كانت تَحْمِلُهُ المرأةُ ووقعا عليها فهو فاسِد غيرُ صحيح، وما يذكُرهُ كثيرٌ منَ الْمُفسِّرينَ مِن أهل السُّنّةِ في قصةِ هاروتَ وماروتَ أنهما مُسْتَثنيانِ مِنْ عصمةِ الملائكةِ وأَنّ الزُهَرةَ امرأةٌ راوَدَاها عن نفسِها فأبَتْ إلا أن يُعَلِّماها الاسمَ الأعظَمَ فعلّماها إيّاه فرُفِعَتْ كَوكَبًا إلى السماءِ فهوَ كَذِبٌ ولعلهُ مِنْ وضعِ الإسرائيليينَ. وكذلك ما يُروَى أنهما رَأَيا امرأةً فرُكّبَتْ فيهما الشهوةُ فأرادا الوقوعَ بها فقالت حتى تُشْرِكا فقالت: اشْرَبَا الَخْمَر فشَرِبا فسَكِرا وقتَلا الصبيَّ وسَجَدا لِلصَّنَمِ فهذا كذِبٌ وخُرافةٌ لا أساس له.

قال الشيخ محمد الحوت في أسنى المطالب في خبر هاروت وماروت وقصتهما مع الزُّهَرة ما نصُّه: «قال المفسِّرون كالفخر الرازي والبيضاوي وأبي السعود والخازن إنها لم تثبت بِنَقْل مُعْتَبَر، فلا تعويل على ما نُقِل فيها لأنّ مداره رواية اليهود مع ما فيه مِن المخالفة لأدلة العَقْل والنَّقْل» اهـ.

وقال الشيخ عبد الله الغماري في قصة هاروت وماروت في كتابه «بِدَع التفاسير» ما نَصُّه: «وتَتَبَّع الحافظ السيوطي طُرُقَها في التفسير المسند وفي الدُرّ المنثور فأَوْصَلَها إلى نَيّف وعشرين طريقًا أغلَبُها ضَعِيف أو واهٍ. وَقد تَتَّبَعْتُ طرقها المشار إليها وأعْمَلْتُ فيها فكري

فوجَدْتُها قصة شاذّة منكرة الْمَعْنَى تخالف القرءان والسنة وقواعد العِلم، هذا إلى ما فيها مِن تَضَارُب ألفاظها ورِواياتها» اهـ.

ثم إن الملائكة الكرام مُوكَلون بأعمال شتّى: منهم من هم موكلون بالقطر والنبات، ومنهم من هم موكلون بكتابة أعمال بني ءادم، وبعضهم موكلون بتَوَفِّي الأرواح، وبعضهم بحفظ بني ءادم مِن تَلَاعُب الجِنّ بهم إلا أنَّ ما قدِّر أنه يصيبهم لا يمنعون وقوعه.

(وَ)يجب اعتقاد أنّ الأنبياء عليهم السلام قد (**فَاضَلُوا**) أي كانوا أفضل مِن (**الْمَلائِكَه**) عند الله تعالَى، والدليل على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وكان قد ذكر قبل ذلك عِدَّةً من الأنبياء والرُّسل. فأفضل خلْق الله هم الأنبياء، وأفضل الأنبياء الرُّسُل، وأفضل هؤلاء الرُّسل خمسة وهم على الترتيب: محمّد وإبراهيم وموسى وعيسى ونوح ﷺ، وأفضل الخمسة محمَّد ﷺ، فيكون محمد أفضل خلق الله أجمعين.

ثُمّ يلي الأنبياء في الفضل رؤساءُ الملائكة أي رُسُلهم وخَواصُّهم وهم نحو: جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، ثمّ يلي رؤساء الملائكة في الفضل خواصّ أولياء البشر، ثم يلي هؤلاء عوامّ الملائكة ثم عوامّ أولياء البشر، وقال بعضهم: عامّة أولياء البشر أفضل من عوامّ الملائكة، كذا ذكره النسفي في عقيدته المشهورة.

١٤- وَالْمُسْتَحِيلُ ضِدُّ كُلِّ وَاجِبِ فَاحْفَظْ لِخَمْسِينَ بِحُكْمٍ وَاجِبِ

(**وَالْمُسْتَحِيلُ**) هو (**ضِدُّ كُلِّ وَاجِب**) فيجب اعتقاد أنه لا يكون.

وقد ذُكِرَ في الكلام على ما يجب في حقِّ الله تعالَى وكذلك ما يجب في حقِّ الأنبياء والرُّسل عليهم السلام. فعِدّة المستحيلات كعِدّة الواجبات، وبيان ذلك أنّ:

- الواجب لله عشرون صفةً، ثلاث عشرةَ إجماعًا وسبعًا أفرَدَها

القائلون بالأحوال، وضِدّ هذه عشرون أيضًا.

- والواجب في حقّ الأنبياء أربعة أمور كُلِّيَّة يدخل تحتها فرعيّات كثيرة، وضِدّ هذه الأربعة مثلها عِدَّة أي أربعة تستحيل عليهم أيضًا.

وقد سبق أنّه يجوز في حقّ الله عزّ وجلّ فعِل كلِّ ممكِن وتَرْكُه، وأنّه يجوز على الأنبياء الأعراض البشرية غير المنفِّرة عن قبول الدعوة على التفصيل الذي ذكرناه، فصارت جملة العقائد خمسين، وهذا معنَى قول الناظم (**فَـاحْـفَظْ لِخَمْسِينَ**) عقيدةً أو حُكمًا مُبيَّنًا في هذه المنظومة حيث أتى لفظ بعضها صريحًا والآخَر منها مبيَّنًا بالمفهوم من الضِدّ كما بيّنا ذلك مِرارًا، والحِفظ لما يجب لله وللرسول لا يعني وجوب حِفظ ألفاظ معيَّنة على كلِّ مكلَّفٍ كألفاظ الصِّفات ونحو ذلك، بل ذلك يدخل في فرض الكفاية، إنما الواجب هو معرفتها واعتقاد معناها، وهذا أمر لا يخفى على الناظم رحمه الله وإن كان قد غَلِط في ذلك بعض الشُرّاح وعسَّروا الأمر على الناس مطالِبين إيّاهم بحفظ ألفاظ الصفات والعقائد الخمسين، فكيف يطيق الشيخ العجوز وضعيف الذِّهن ذلك؟! فالحُكم كما بيّنا وعليه يكون توجيه كلام الناظم: فاحْفَظ هذه الخمسين من العقائد بمعنَى صنْها عندك أي لا تَحِدْ عنها بعد أن عرفتَهَا واعتقدتَ معانيَها، والأمر بمعرفتها معلومٌ (**بِحُكْمٍ وَاجِبِ**) في شرع الله معلوم مِن الأدلّة القطعيّة.

الأنبياء والرُّسُل عليهم الصلاة والسلام

عقد الناظم فصلًا لبيان أسماء الأنبياء المذكورين في القرءان الكريم وعِدَّتُهم خمسة وعشرون، فقال:

١٥- تَـفْصِيلُ خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ لَزِمْ كُـلَّ مُـكَـلَّـفٍ فَـحَـقِّـقْ وَاغْـتَـنِـمْ

أي يَجِب الإيمان بنبوّة جميع الأنبياء على الإجمال وأمّا (**تَـفْصِيلُ**) أسمائهم فـإنّهم إذا عُلِموا عِند المكلَّف أنّهم أنبياء الله الذين جاء ذِكرهم في القرءان الكريم فإنَّ الإيمان بنُبوّة هؤلاء أعنِي نُبوَّةَ (**خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ**) نَبِيًّا مِن أنبياء الله (**لَزِمْ**) وُجوبًا (**كُـلَّ مُـكَـلَّـفٍ**) عَرَف أنّهم أنبياء ثابتة نبوَّتهم في القرءان العزيز (**فَحَقِّقْ**) أي فَتَيَقَّن عدد هؤلاء الرُّسُل الخمسة والعشرين المذكورين في القرءان الكريم (**وَاغْـتَنِمْ**) أي اكتَسِب لَنفسِك معرِفَتَهُم. وخلاصة القولِ أنَّ الأنبياءَ جميعًا يجب الإيمان بهم جملةً، فكلُّ من ثبتت نبوَّته ـــ مَن ذكرهم القرءان ومن لم يذكرهم ـــ يجب الإيمان بهم إجمالًا، ولا يجب معرفة ولا حفظ أسمائهم على الأعيان، وإنَّما الذي يجب وجوبًا كفائيًّا حفظ أسماء من ذكرهم القرءان الكريم، والقول بوجوب حفظ أسمائهم على كلِّ مكلَّفٍ غير صحيح وغير معتمد، وكذلك في أمر الملائكة، فلا يجب على المكلفين حفظ أسماء ثمانية منهم أو أكثر، بل هذا من فروض الكفاية، وليس من فروض العين، والذي يجب هو الإيمان بهم جملةً.

١٦- هُـمْ ءَادَمُ إِدْرِيْـسُ نُـوْحٌ هُـوْدُ مَـعْ صَـالِـحْ وَإِبْـرَاهِـيْـمُ كُـلٌّ مُـتَّـبَـعْ

١٧- لُـوْطٌ وَإِسْـمَـاعِـيلُ إِسْـحَـاقٌ كـذا يَـعْـقُـوبُ يُـوسُـفٌ وَأَيُّـوْبُ احْـتَـذى

١٨- شُعَيبُ هارونُ وموسى وَالْـيَسَعْ ذو الْـكِـفْـلِ دَاوُدُ سُـلَـيْـمـانُ اتَّـبَـعْ

١٩- إِلْـيَـاسُ يُـونُـسْ زَكَـرِيـَّا يَـحْـيَـى عِـيْـسـى وَطَـه خـاتِـمٌ دَعْ غَـيَّـا

وهؤلاء الأنبياء الخمسة والعشرون المذكورون في القرءان الكريم (هُمْ) على التفصيل:

(ءَادَم) وهو أوّل البشر وأوّل الأنبياء والرُّسُل، والدليل على رسالته ونبوّته قول الله تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ﴾، فلا يجوز إنكار نبوة ءادم عليه الصلاة والسلام، فهو من جملة الأنبياء الذين مَن أنكر نبُوَّتهم يكفر، فكما أنّ مَن أنكر نبوة إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد يكفر كذلك يكفر من أنكر نبوة ءادم عليه الصلاة والسلام، قال التفتازاني في شرح العقائد: «أما نبوة ءادم عليه السلام فبالكتاب وكذا بالسنة والإجماع» اهـ، فهو نبيّ رسول كما ورد ذلك في حديث أبي ذر الذي أخرجه ابن حبان وصححه وأقره الحافظ ابن حجر. وهو ﷺ نبيّ رسول، لأن النبيّ يؤمر باتّباع شرع مَن قَبْلَه، وءادم لا نَبِيّ قَبْلَه بل هو أوّل البشر وأوّل الأنبياء، وقد أنزل الله عليه شرعًا، فهو نبيّ رسول بإجماع المسلمين.

ولا معنى لإنكار مجسمة هذا العصر الوهّابيّة رسالة ءادم عليه السلام، ولعلّ بعضهم يُنْكِر نُبُوَّته، ولا حجة لهم في حديث الشفاعة الذي فيه أنّ الناس يأتون ءادم ليشفع لهم ثم نوحًا فيقولون لنوح: أنت أوّل الرُّسل اشفع لنا إلى رَبِّك، والحديث رواه البخاري وغيره، لأنّ معناه أنت أوّل الرسل إلى قومه المنتشرين في الأرض، لأنّ الأنبياء الذين بعده كان النبي يُرسل إلى قَوْمِه كما حكى الله عن عيسى أنه قال: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم﴾، وقد قال الله عز وجل: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾، وقد قال الفخر الرازي في تفسيره: «وأجمعوا على أن المراد بهذا الاصطفاء إنما هو النبوة» اهـ. وفي الحديث الذي رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وغيرهم عن أبي سعيد أنّ النبي ﷺ قال: «**وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ ءَادَمَ فَمَنْ سِوَاهُ إِلَّا تَحْتَ لِوَائِي**».

وأمّا بالنسبة لحياة ءادم عليه السلام فقد اختلف العلماء في مقدار إقامته في الجَنّة، فروى الحاكم في مستدركه أنّ ءادم لم يمكث في الجنة إلا ما بين العصر إلى الغروب، والأقوى أنه مكَث مائة وثلاثين سنةً. ولا ينافي هذا بالنسبة لتلك الأيام السِتّة أن يكون أَدْرَك فيها مائة وثلاثين عامًا ثم أكمل الأَلْفَ في الأرض، كما يفهم ذلك من بعض الآثار. وقد ورد في حديث مرفوع رواه مسلم في صحيحه أنّ اليوم الذي أُهْبِطَ فيه ءادم عليه السلام مِن الجَنَّة إلى الأرض كان يوم الجمعة.

ثمّ لَمّا مات ءادم عليه السلام بَقِيَتْ ذُرِّيَتُه على دين الإسلام يعبدون الله تعالى وحده ولم يشركوا به شيئًا، فعاش البشر ألفَ سنة أخرى على دين الإسلام، ولم يكن فيهم كُفر ولا شِرك، وإنما حصل الكفر والشرك بعد نبيّ الله إدريس عليه الصلاة والسلام، فكان سيدنا نوح عليه السلام أوَّل نَبِيّ بُعِث إلى الكفار.

وقد ورد في الأثر أنّ ءادم عليه السلام دُفِنَ في مكة أو في مِنًى قرب مسجد الخَيْف حيث دُفِن سبعون نَبِيًّا، وقبورهم مُخْفَاةٌ ولا يوجد علامات تَدُلُّ عليها، وقيل دُفِنَ عند الجبل الذي أُهْبِط عندَه في الهند، وقيل بجبل أبي قُبَيْسٍ بِمَكَّة. ويروى أنّ زوجته السيّدة حَوّاء عليها السلام عاشت بعد سيّدنا ءادم عليه السلام سَنَةً واحِدةً ثم ماتت، ويقال إنها مدفونة في جُدّة.

وتنوين النّاظِم «ءادم» بالرفع مصروفًا لأجل ضرورة النّظم وإلا فهو ممنوع مِن الصرف في الأصل للعَلَمِيّة والعُجْمة، فدَمُ اسمٌ أعجَمِيٌّ ليس عَرَبِيًّا.

وأمّا (**إِدْرِيْسُ**) عليه الصلاة والسلام فهو أحد الأنبياء والرُّسل الكرام الذين أخبر الله عنهم في القرءان الكريم في بضعة مواطن نحو قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا

عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾، فهو ممن يجب الإيمان والاعتقاد بنُبُوّته ورِسالته على سَبِيل القَطْع والجَزْم.

وقد اختُلِف في نَسَبِه، وأشهر ما قيل هو إدريس بن يَرْد بن مهلاييل، ويسمى أيضًا أَخنُوخ، وينتهي نسبه عليه السلام إلى نبيّ الله شيث بن ءادم عليهم الصلاة والسلام. وقيل سُمِّي إدريسَ لأنه مُشْتَقّ من الدراسة، وذلك لكثرة دَرْسِه الصحف التي أُنْزِلت على سيدنا ءادم وابنه شيث عليهم الصلاة والسلام.

وقيل إن إدريس هو أوّل مَن خَطّ بعد ءادم عليه السلام وقطع الثياب وخاطها، وينسب إلى هذا النبي الكريم أشياء كثيرة مما هي كذب وافتراء عليه مِما لا يليق بهذا النبيّ الكريم فَلْتُحْذَر.

وقد أقام سيدنا إدريس عليه الصلاة والسلام في العراق وفي مصر يدعو إلى دين الإسلام، وجاهد في سبيل الله، وصبر في الدعوة إلى الله الصبر الجميل، وتحمل مِن قومه الكثير وهو يدعوهم إلى الالتزام بالشريعة وبطاعة المولى سبحانه وتعالى وعدم معصيته. ثم رفعه الله تبارك وتعالى إلى السماء، قال عزّ وجلّ: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾. وقد اختلف المؤرخون في السماء التي رفع إليها، فعن ابن عباس أنها السماء السادسة، وعن مجاهد أنّها الرابعة.

وأمّا (**نُوْحٌ**) عليه الصلاة والسلام فهو نبيّ رسول، وهو نوح بن لامَك بن مَتُّوشَلَخ بن أخنوخ - وهو إدريس - بن يرد بن مهلاييل بن قَينان بن أنُوش بن شِيث بن ءادم أوّل البشر. وقد كان بين نوح وءادم عَشَرة قُرُون أي ألف سَنة، كما جاء ذلك في حديث ابن حبان.

والدليل على رسالة نوحٍ عليه السلام قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾، وقد بعثه الله إلى هؤلاء القوم الكُفّارِ ليدعوَهم إلى الدين الحق وهو الإسلام والعبادة الحقة وهي عبادة الله وَحْدَه وترك عبادةِ غيره، فكان يدعوهم إلى الله في الليل والنهار والسِرّ والإجهار بالترغيب

تارة وبالترهيب أخرى، لكن أكثرهم لم يؤمن بل استمروا على الضلالة والطغيان وعبادة الأوثان ونصبوا له العداوة ولمن ءامن به وتوعدوهم بالرجم، وقالوا له فيما قالوا بعد أن تَعَجَّبُوا أن يكون بَشَرًا رسولًا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾.

فلبث سيّدنا نوح عليه السلام في قومه يدعوهم إلى الإسلام تسعمائة وخمسين عامًا، قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾، وكان قومه يَبْطِشون به فيخنقونه حتى يُغْشَى عليه. وتمادَوا في معصيتهم وعظمت منهم الخطيئة فلا يأتي عليهم قرن إلا كانوا أخبث من الذي قبله، حتى إنّ الواحد منهم كان يقول للآخر: «قد كان هذا مع ءابائنا وأجدادنا مَجْنُونًا لا يَقْبَلُون منه شيئًا»، لكنّ نوحًا بقي يجاهد في إبلاغ الرسالة ويبيّن لهم البراهين، فلم يؤمن به إلا جماعةٌ قليلة استجابوا لدعوته وصدقوا برسالته وهم نحو ثمانين.

ثم أوحَى الله إليه أنه لن يؤمن مِن قومك إلا مَن قد ءامن، فدعا عليهم نوح فقال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ فأوحى الله تعالى إليه: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي بعِنايتِنا وحِفْظنا ﴿وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾.

فأَقْبَل نوح على عَمَلِ السفينة وجعل يُهَيّئ عَتادها مِن الخشب والحديد والقَارِ وغيرها، وجعل قومُه يَمُرُّون به وهو في عمله فيسخرون منه وكانوا لا يعرفون الفُلْك قبل ذلك، ويقولون: يا نوح قد صرت نَجّارًا بعد النبوة. فَأَعْقَم الله أرحام نسائهم فلم يَعُدْ يُولَدُ لَهُنّ.

ثمّ لـمَّا جاءه الأمر ورَكِبَ السفينة هو ومَن ءامَن معه وجعل فيها من البهائم مِن كلٍّ زوجَين اثنين، أرسل الله المطر أربعين يومًا، فجعلت الفُلْك تجري بهم في موج كالجبال، وذلك أنّ الله تعالى أرسل من

السماء مطرًا لم تعهده الأرض قَبْلَ ذلك وأمر الأرض فنبعت من جميع فِجاجها، وقد عم جميع الأرض سَهْلَها وحَزَنَها وجِبالها وقِفَارها، فلم يَبْقَ على وجه الأرض أَحَدٌ مِمَّن عَبَدَ غير الله عزّ وجل. وطافت السفينة بالأرض كُلِّها لا تستقر حتى أتت الحَرَم المَكِّيّ فدارت حوله أسبُوعًا، ثم ذهبت في الأرض تسير بهم حتى انتهت إلى جبل الجُودِيّ وهو بأرض الموصل فاستقرت عليه، قال تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾. ثُمّ لَمّا غَاضَ الماء أي نَقَص عمّا كان هبط نوح ومن معه من السفينة التي استقَرّت على ظهر جبل الجُودِيّ.

وقد عاش نوح عليه السلام بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة، فأتمّ ألفًا وسبعمائة وثمانين سنةً مِن عمره ثم تَوفّاه الله عزّ وجلّ.

وأمّا **(هُوْدُ)** عليه الصلاة والسلام فهو عَرَبِيّ في أصله، وقيل إنه هود ابن عبد الله بن رباح بن الجلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، وقيل غير ذلك، وقد جاء في صحيح ابن حبان عن أبي ذرّ في حديث طويل في ذكر الأنبياء والمرسلين قال: «**وَأَرْبَعَةٌ مِنَ العَرَبِ: هُودٌ وَصَالِحٌ وَشُعَيبٌ وَنَبِيُّكَ مُحَمَّدٌ**». وقد جاء ذِكْر هود عليه الصلاة والسلام في القرءان الكريم سبع مرات، منها قوله تعالَى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ﴾.

وقد أرسله الله تعالَى إلى قبيلة عادٍ وهي قبيلة عربية كانت باليمن، وكانت منازلهم ومساكنهم وجماعتهم أرض الأحقاف، والأحقاف هي الرَّمل فيما بين عُمَان وحضرموت من أرض اليمن بأرض يقال لها الشحر، وقيل كانوا ثلاث عشرة قبيلة ظلموا وقهروا العباد بسبب قُوّتِهم التي ءاتاهم الله إيّاها، فقد زادهم الله في الخلقة والقوة، وبسط لهم في أجسادهم وعظامهم فكانوا طِوَالًا في أجسامهم وقِوَامهم، قيل: كان أطولهم مائةَ ذراع وأقصَرُهم سِتّين ذِراعًا، قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ

جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾. وكانوا أصحاب أوثان وأصنام يعبدونها من دون الله، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝٨﴾.

وَلَمّا تَجَبَّر قوم هود عليه السلام ولم يستجيبوا لدعوته بل عصَوْه وكذَّبوه وجحدوا بآيات الله التي أقامها هود عليه السلام دلالة على صِدْقِهِ في أنه مُرْسَل مِن رَبِّه واتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبّار عنيد من ملإ قومهم وأصَرُّوا على عبادة الأصنام أحَلّ الله تبارك وتعالى بهم نقمته وعذابه في الدنيا بعد أن أنذرهم سيّدنا هود عليه السلام بالعذاب القريب الذي ينتظرهم، فأمسك الله عنهم المطر حتى جَهِدُوا، وكان كلما نزل بهم الجَهْد ذَكَّرَهُم هود بدعوة الله وأنه لا ينجيهم من البلاء والعذاب إلا الإيمان والاستماع لنصائحه بالقبول، فكان ذلك يزيدهم عُتُوًّا وعِنادًا فازداد العذاب عليهم وصاروا في قَحْط وجفاف شَدِيدَيْن فطَلَبُوا السُّقْيَا والمطر وأوفدوا وفدَهم إلى مكة يَسْتَسْقُون لهم، فأنشأ الله سَحابًا أسود وساقه إلى عاد فخرجت عليها مِن واد فلَمَّا رأوها اسْتَبْشَرُوا أنه سحاب مَطَرٍ وسُقْيا رحمة فإذا هو سحاب عذاب ونِقْمة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٢٥﴾ أي أنّ الله أرسل عليهم رِيحًا شديدة عاتِية حملت رحالهم ودوابهم التي في الصحراء وقذفت بها إلى مكان بعيد، فدخل قلوبَهم الفزَعُ وهَرَعوا مُسْرِعين إلى بيوتهم يَظُنّون أنهم ينجون، ولكن هيهات إذ حملتهم هذه الرياح الشديدة وأهلكتهم. وكان العرب بعد ذلك إذا بَعَثُوا وفدا لهم قالوا: لا تكن كوافد عاد، روى الإمام أحمد في مسنده أن الحارث بن حسّان البَكْرِيّ قال لرسول الله ﷺ: «أَعُوذُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ أَنْ أَكُونَ كَوَافِدِ عَادٍ» الحديثَ.

تنبيه: هذا الحديث ممّا استدل به أهل السنّة على جواز الاستغاثة

برسول الله ﷺ، ووجهُ الدليل في هذا الحديث أن الرسول ﷺ لم يقُل للحارث: أشركتَ لقولكَ: «وَرَسُولِه» حيث استَعَذْتَ بي. وقد جمعَ الحارث الاستعاذة بالرسول مع الاستعاذة بالله وذلك لأنّ الله هو الْمُسْتَعاذُ به على الحقيقة، وأما الرسول فمُستعَاذٌ به على معنى أنه سَببٌ، ومعنَى قولِ الصحابيّ: «أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد» أي أعوذ بالله أن أكون خائبًا في أَمَلِي الذي أَمَّلْتُ.

ثمّ نَجَّى الله هودًا عليه السلام ومن معه من المؤمنين. وقد حجَّ هود عليه السلام بعد ذلك كما رواه ذلك أبو يَعْلَى في مسنده، أما موضع قبره ففيه خلاف، فقيل: بحضرموتَ في بلاد اليمن، وقيل: بالحِجْرِ مِن مَكّة، وقيل: بدمشق، والله أعلم.

وَيَجِب الإيمان (**مَعْ**) مَن ذكَرنا من الأنبياء بـ(**صَالِح**) عليه الصلاة والسلام، قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾. وقد قيل في نسبه عليه السلام إنه صالح ابن عبيد بن ماسح بن عبيد بن حادر بن ثمود بن عاثر بن إرم بن سام ابن نوح، وقيل غير ذلك. وقد أرسل الله نَبِيّه صالِحًا إلى ثمود وهم قبيلة مشهورة سُمِّيَت باسم جدهم ثمود أخي جديس، وهما ابنا عاثر بن إرم بن سام بن نوح وهم من العرب الذين كانوا يسكنون الحجر الذي هو بين الحجاز والأردن، وقد مَرَّ به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه من المسلمين، وما زالت ءاثارهم باقية هناك تعرف باسم مدائن صالح.

وقد بعث الله تبارك وتعالى نَبِيَّه صالِحًا وكان مِن أَشْرَفِهم نَسَبًا وأصفَاهُم عَقْلًا وأوسعهم حِلْمًا، فدعاهم إلى عبادة الله وَحْدَه وحَضَّهم على توحيده وعبادته، وبَيَّن لهم أنّ الأوثان والأصنام لا تَمْلِك لهم ضُرًّا ولا نَفْعًا ولا تُغْنِي عنهم من الله تعالى شيئًا.

واستمر سيدنا صالح عليه الصلاة والسلام يدعو قومه إلى الإيمان،

واستمَرّ قومه على عنادهم وتَكَبُّرهم مِن اتّباع الحَقّ، ولَمَّا وجدوا منه استمساكًا برأيه وإصرارًا على دَعْوَتِه إيّاهم إلى عِبادة الله وَحْدَه وترك عبادة الأصنام خاف المستَكْبِرُون من قومه أن يَكْثُر أتباعه وأن ينصرفوا عنهم إليه، وفي ذلك ذهاب لسُلطانهم وتفتيت لِقُوَّتِهم، فأرادوا أن يُظْهِرُوا للناس أنه عاجز غير صادق في دَعْوَاه وهذا مِن خُبْث نفوسهم وظلام قلوبهم عن اتّباع الحقّ، فطلبوا منه معجزة تكون دليلًا على صِدْقه وقالوا له: أَخْرِج لنا من هذه الصخرة - وأشاروا إلى صخرة كانت هناك - ناقة ومعها ولدها وصِفَتُها كَيْتَ وَكَيْتَ، فذكروا لها أوصافًا، وقالوا له: إن أَخْرَجْتَ لنا من هذه الصخرة ناقة ومعها ابنُها ءامَنّا بك وصدَّقْناك، فأخذ سيِّدُنا صالح عليه السلام عليهم عهودهم ومواثيقهم على ذلك، وقام صالِحٌ وصَلَّى لله تعالى ثم دعا ربه عز وجل أن يُعِينه ويُجِيبه إلى ما طَلَب قومه فاستجاب الله دعوته فأخرج لهم سيدنا صالح عليه السلام بقُدْرة الله ناقة ومعها وَلَدُها من الصخرة الصَّمَّاء، فلَمَّا رأى قومُه هذا الأمر الخارق للعادة الذي فيه الدليل القاطع والبرهان الساطع على صِدْقِ سَيِّدِنا صالح عليه السلام ءامَن قِسْمٌ منهم واستَمَرَّ أكثَرُهم على كُفْرِهم وعِنادهم وضلالهم. وأمرهم أن يتركوها تأكل في أرض الله تعالى وحذَّرهم أن يتعرضوا لها بالقتل أو الأذى، وأخبَرَهم أنهم إنْ هم تعرضوا لها بالسوء يأخذهم عذاب وهلاك عظيم.

فاتَّفَق الحال على أن تبقى هذه الناقة بين أظهرهم ترعى حيث شاءت مِن أرضهم، فَتَرِد الماء يومًا بعد يوم، ويقال إنها كانت إذا وردت الماء تشرب ماء البئر يومها ذلك فكانوا يرفعون حاجتهم من الماء في يومهم لغدهم. ثم تمَر بعض الكُفَّار على قتل الناقة ورصدوها، فأسرع أشقاهُم فشَدَّ عليها بِسَيْفِه وكشف عن عرقوبها فخَرَّت ساقطة على الأرض ميتة بعد أن طَعَنها في لَبَّتِها فنَحَرها، وأما فَصِيلها فصعد جبلًا مَنِيعًا ثم دخل في صخرة وغاب فيها.

ثمّ إنهم اتفقوا على قتل نبيّ الله صالح وأهله وتمروا على ذلك وتحالفوا فيما بينهم وتبايعوا على هذه المؤامرة وأن يغتالوه ليلًا ثم يجحدوا قتله إن طالبهم أولياؤه بدمه، ولكن الله تبارك وتعالى أنقذ نَبِيَّه صالِحًا من كيدهم وتمرهم فأرسل على أولئك النفر الذين قصدوا قتله حجارة أهلكتهم تعجيلًا قبل قومهم ورد كيدهم في نحورهم.

ثمّ أنذَر سيّدُنا صالح عليه الصلاة والسلام قومه الذين كذبوا بالعذاب وأوعدهم بأنّه يأتيهم ذلك بعد أن يتمتعوا في دارهم ثلاثة. فلَمّا أشرقت الشمس جاءتهم صَيْحة مِن السماء مِن فوقهم ورَجْفة من تحتهم ففاضت أرواح هؤلاء الكافرين وزَهِقت نفوسُهم، وسَكَنَتِ الحركات وهَدَأَتِ الأصوات، وأصبح هؤلاء الكافرون في دِيارهم جاثمين جُثَثًا هامدِةً لا أرواح فيها.

ثمّ إنّ نَبِيّ الله صالِحًا عليه السلام خاطبهم بعد هلاكهم قائِلًا لهم: «لقد جَهِدتُ في دعوتي إيّاكم إلى الإيمان وترك عبادة الأصنام بكل ما أَمْكَنَنِي، وحَرِصتُ على ذلك بكل ما أستطيع ولكنكم أَبَيْتُم نُصْحِي وما دعوتُكم إليه، لأنكم لا تُحِبُّون الناصحين».

ويُقال إنّ صالِحًا عليه السلام انتقل إلى الشام فنزل بِفلسطين ثم انتقل إلى مكّة فأقام بها يَعْبُد الله حتى تَوَفّاه الله تعالَى.

(**وَإِبْرَاهِيْمُ**) بن ءازَر وكان يكنى أبا الضِّيفان لأنه كان مِضْيافًا كثيرَ الكَرَم لمن استَضَافه، وكان أهل بابل في العراق في ذلك الوقت يتنعمون بِرَغَد العَيْش ويتفَيَّئُون ظِلال النِّعَم الكثيرة التي أَنْعَم الله بها عليهم، ولكنهم كانوا يتخبطون في الضَّلال والكفر، فنَحَتُوا بأيديهم الأصنام واتَّخَذُوها من دون الله ءالهة وعَكَفُوا على عبادتها. وقيل: كانوا يعبدون الكواكب السبعة وكان لهم أصنام بشكل الشمس والقمر وأصنام بشكل الكواكب، وكان عليهم حاكِم ظالِم مُسْتَبِدّ يقال له نُمْرُود بن كَنْعان، وكان أحد الملوك الذين مَلَكُوا الأرض وأحاط ملكه مشارق

الأرض ومغاربها، فلَمَّا رأى ما هو عليه مِن الزَّعامة وما يَتَمَتَّع به من سَطوة الْمُلْك وقوّة السُّلْطان ورأى ما أطبق على قومه من الجهل والفساد ادعى الألوهية ودعا قومه إلى عبادته.

وقد كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام كغيره من الأنبياء منذ صغره ونشأته مسلِمًا مُؤمِنًا عارِفًا برَبّه معتقدًا عقيدة التوحيد منزِّهًا رَبَّه عن مشابهة المخلوقات، مُدْرِكًا أنّ هذه الأصنام التي يعبدها قومه لا تغني عنهم من الله شيئًا، وأنها لا تضرّ ولا تنفع لأنّ الضارّ والنافع على الحقيقة هو الله تعالى وحدَه، قال الله تبارك وتعالى في حقّ إبراهيم عليه السلام: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾، وقال تعالى: ﴿۞وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾.

وقد ذكر أهل التواريخ أن إبراهيم انطلق بزوجته سارة وابن أخيه لوط فخرج بهم من أرض الكَلْدَانِيين إلى أرض الكَنْعانيين وهي بلاد بيت المقدس، فنَزلوا حَرّان وكان أهلها يعبدون الكواكب السبعة، فقام الخليل إبراهيم عليه السلام يدعو قومه إلى دين الله وترك عبادة الأصنام التي لا تَضُرّ ولا تنفع. وكان أول دعوته لأبيه ءازر الذي كان مُشْرِكًا يصنع الأصنام ويعبُدُها، فدعاه إلى عبادة الله وَحْدَه وإلى دين الحقّ الإسلام بعبارات لطيفة فيها من البيان والحكمة والموعظة الحَسَنة ما فيها.

لكنّ ءازر لم يقبل نصيحة نبيّ الله إبراهيم ولم يستجب لدعوته بل استَكْبَر وعاند وتوَعَّدَ وهَدَّدَ ابنه إبراهيم بالشّرّ والرجم والقتل، وقال له كما أخبرنا الله تعالى عنه في القرءان: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾، فعند ذلك قال له إبراهيم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ﴾ أي سَلَام عليك لا يَنالُك مِنِّي أذًى، وزاده بأن دعا له بأن يغفر الله له بالدخول في الإسلام فقال: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ

إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ فليس معناه أنّي أطلُب لك باللفظ كما يستغفر المسلم للمُسلم بقول: «الله يَغْفِرُ لك أو أستَغْفِرُ الله لك»، لأنّ الله لا يغفر الشِّرك ولا يمحوه إلا بالدخول في الإسلام. وهذا كان قبل أن يعلم إبراهيم بوحي من الله أنّ أباه ءازر لن يؤمن، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ أي لَمّا عَلِم أنه لا يُسْلِم بل يموت على الكفر تَبرَّأ منه.

وقد أظهر الله تعالَى على يد إبراهيم معجزة عجيبة، وذلك أنّ قومه أرادوا أن ينتقموا من إبراهيم عليه السلام لَمَّا كَسَّر أصنامهم وحَطَّمها وأهانها، فشرعوا يجمعون الحطب من جميع ما يمكنهم من الأماكن ليوقدوا نارًا فيُلْقُوه بها، وجعلوا ذلك قُربانًا لآلهتهم على زعمهم، حتى قيل إنّ المرأة منهم كانت إذا مَرِضت تَنْذُر لَئِن عُوفِيَت لتَحْمِلَنَّ حَطبًا لحريق إبراهيم.

فَعَمدوا إلى حفرة عظيمة فوضعوا فيها ذلك الحطب وأضرَمُوا النار فيها فتأَجَّجَت والْتَهَبَتْ وعَلَا لها شَرَرٌ عظيم، وكانوا لا يستطيعون لقُوّة لهيبها أن يتَقَدَّمُوا منها، فصنعوا المنجنيق ليرموه في النار من مكان بعيد، فلَمَّا وضعوه عليه السلام في كَفَّة هذا المنجَنِيق مُقَيَّدًا مكتوفًا وأَلْقَوه إلى وَسَط النار قال: «**حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ**»، روى ذلك البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما.

فلما ألقي إبراهيم لم تحرقه النار ولم تصبه بأذى ولا ثيابه، لأن ٱلنار لا تحرق بذاتها وطَبْعِها وإنّما الله يخلق الإحراق فيها، قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾، فكانت هذه النار الهائلة العظيمة بَرْدًا وسلامًا على إبراهيم فلم تُحْرِقْهُ ولم تُحْرِق ثيابه، وقيل: لم تحرق سِوى وثَاقه الذي أوثقوه به، ومع أنّهم رأَوا هذه المعجزة الباهرة ظَلُّوا على كُفْرِهم وعنادهم ولم يُؤمِنُوا بِنَبِيّ الله إبراهيم عليه السلام.

وقد جاء عن إبراهيم عليه السلام أخبار كثيرة في القرءان والسنّة الثابتة، منها: قصة وَلَدِه الذبيح إسماعيل عليه السلام، وقصّة زيارة بعض الملائكة له، وقصة بناء الكعبة الشريفة، وغير ذلك.

فـ(**كُـلٌّ**) مِن الأنبياء الذين سبَقَ ذِكْرُهُم (**مُـتَّبَع**) بما جاء من العقيدة أو يحتمل أنّ المراد به أنّ كلّ واحِدٍ منهم كان مُتَّبِعًا لِمَا جاء به.

وأمّا (**لُوْطٌ**) عليه السلام فهو لوط بن هاران بن ءازر، وهو ابن أخي نبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام. وكان لوط عليه السلام يدعو قومه إلى عبادة اللّه وينهاهم عن الفاحشة، لكنهم كانوا لا ينزجرون بوعيده ولا يزيدهم ذلك إلا عُتُوًّا، فسأل اللّه تعالى أن يَنْصُرَه عليهم، وكانت مدائن قوم لوط خمس: سدوم، وصبعة، وعمرة، ودوما، وصعوة، وسدوم هي القرية الأكبر بينها.

فبعث اللّه تعالى أفرادًا من الملائكة الكِرام، فأقبلوا إليهم مُشَاةً في صُورة رجال شباب نزلوا على إبراهيم عليه السلام. ثم انصرفوا من عنده بعد مدّة، ودخلوا مدينة قوم لوط. وكان قومه قد توعَّدُوه إن ضَيَّفَ رَجُلًا، فدخلوا عليه فلم يعلم إلا أهل بيت لوط، فخرجت امرأته فأخبرت قومها، وقالت لهم: قد نزل بنا قوم ما رأيت أحسَنَ وجوهًا منهم ولا أطيب رائحة، فجاءه قومه يُهْرَعُون إليه، فقال: يا قوم اتَّقُوا الله ولا تخزوني في ضيفي أليس منكم رَجُلٌ رَشِيد، فنهاهم ورغَّبَهم وقال: هؤلاء بناتي هُنَّ أَطْهَرُ لكم مما تريدون، أي بطريق الحلال، فلَمَّا لَم يقبلوا منه قال لهم لو أَنَّ لي أنصارًا أو عشيرة يمنعوني مِنْكُم. فلما قال ذلك أرسل الله له بعضًا مِن الملائكة فقالوا له: إنَّا ناصِرُوك، ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾.

فخَرَج لوط وأهله إلا امرأته إلى الشام، فلَمَّا كان الصبح أدخل

جبريل عليه السلام جناحه في أرضهم وقُرَاهم الخمسة فرَفَعها حتى سمع أهل السماء صياح دِيَكَتِهم ونُباح كلابهم، ثم قلبها فجعل عالِيَها سافلها، وأمطر عليهم حجارة مِن سِجِّيل. وسمعت امرأة لوط فقالت: واقوماه! فأَدْرَكَها حجر فقَتلها، ونَجَّى الله لوطا وأهله إلا امرأته، وذكر أنه كان فيها أربعمائة ألف.

(وَ)كذلك (**إِسْمَاعِيلُ**) بن إبراهيم بن ءازر هو نبيّ رسولٌ وابن رسول الله إبراهيم عليهما السلام. شَبّ إسماعيل عليه السلام بين قبيلة جُرْهُم العربية وتعَلَّم منهم العربية وترعرع بينهم، ولما أعجبهم سيرته وخلقه زوَّجُوه امرأة منهم، وأصبحت مكة مأهولة بالسكان منذ ذلك الحين بعد أن كانت جرداء وقَفْراء موحشة.

ولإسماعيل عليه السلام قِصص عجيبة مع أبيه إبراهيم صلوت الله وسلامُه عليه، مِنها أنّ الله تعالَى أمر إبراهيم بذبح ولده إسماعيل وذلك قبل أن يُنَبّأ إسماعيل، وذلك لحكمة وهي إظهار كمال انقياد إبراهيم وإسماعيل لله تعالى.

وفي القصة أنه لما هاجر إبراهيم عليه الصلاة والسلام من بلاد قومه إلى حيث يتمكن من طاعة الله وعبادته والجهاد في سبيله، سأل ربّه أن يَهَبَهُ وَلَدًا صالِحًا، فَبَشَّرَه الله تبارك وتعالى بغلام مبارك حَلِيم وهو إسماعيل عليه السلام، وكان وُلِدَ على رأس ست وثمانين سنة من عُمْر إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

ولَمّا شَبَّ وصار يسعى في مصالحه الدنيوية والأخروية كأبيه إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، رأى إبراهيم عليه السلام في منامه رؤيا أنّ الله تعالى يأمره بذبح ولده إسماعيل، ورؤيا الأنبياء وَحْي، فما كان من نبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام بعد أن استيقظ من النوم إلا أن سارع لتنفيذ أمر الله تبارك وتعالى دون تَرَدُّد، فقد قيل: لما أراد إبراهيم عليه السلام ذبح ولده إسماعيل قال له: انطلق فنُقَرِّب قُرْبانًا إلى الله عزَّ

وجلَّ، فأخذ سِكِّينًا وحَبْلًا ثم انطلق مع ابنه إسماعيل، وقيل إسحاق، حتى إذا ذهبا بين الجبال، قال له إسماعيل: يا أَبَتِ أين قربانك؟ فقال له إبراهيم: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ فكان جواب إسماعيل عليه السلام في غاية السداد والطاعة لأبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

لكنَّ إسماعيل قال لأبيه إبراهيم: يا أبتِ اجعل لي وَثاقًا وأَحْكِم رباطي حتى لا أَضْطَرِب، واكْفُف عَنِّي ثيابك حتى لا يَنْتَضِح عليك مِن دمي فتراه أمي فتَحْزَن، وأَسْرِع مَرَّ السِّكِّين على حلقي ليكون أَهْوَنَ للمَوت عَلَيَّ، فإذا أتيت أمي فاقرأ عليها السلام مِنِّي، فأقبل عليه إبراهيم برأفة وحنان الآباء يُقَبِّلُه ويَبْكِي وَيقول له: نِعْمَ العَون أنت لي يا بُنَيَّ على أمر الله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ۝١٠٣﴾ أي فلَمَّا استسلما لأمر الله وأَلْقَاه على وجهه، وقيل: أراد إبراهيم أن يذبحه مِن قَفَاه لِئَلّا يشاهده في حال الذبح، وأَمَرَّ إبراهيم السكين على رقبة ولده إسماعيل لكنَّها لم تقطع شيئًا لأنّ الله تبارك وتعالى لم يشأ لها أن تقطع، لأن السكين لا يقطع بِطَبْعِه وبذاته وإنما خالق القطع هو الله تعالى وَحْدَه، فالسِّكِّينُ سببٌ للقطع فلا تقطع إلا بمشيئة الله، فإنَّ الأسباب لا تخلق شيئًا وإنما الخالق هو الله تعالى وحده، فأرْسَلَ الله تعالَى لإبراهيم فِداءً لإسماعيل ذِبْحًا هو كَبْشٌ عَظِيم، قيل: كان قد رعى في الجنة أربعين سنة، وكان هذا الكبش أبيض عَظِيمًا أَقْرَن ذَبَحَهُ إبراهيم بِمنًى فداءً لابنه إسماعيل عليه السلام.

وكذلك (**إِسْحَاقُ**) وهو ابن إبراهيم عليهما السلام، وهو نبيّ من أنبياء الله الكِرام، وقد أخبر الله تعالَى عن نبوُّة إسحاق في مواضع عديدة من القرءان كقوله عزّ وجلّ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾.

وقد كانت البشارة بولادة إسحاق عليه السلام من الملائكة لإبراهيم

وسارة لَمَّا مَرُّوا بهم مجتازين ذاهبين إلى مدائن قوم لوط ليُدَمِّرُوا عليهم لكُفْر قومِ لُوطٍ وفجُورهم، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾، الآيات.

ولَمّا علِمَت سارة أنّ الذين زاروهم كانوا من الملائكة وأنّهم مَرُّوا بهم وهم ذاهبون لتدمير الكافرين استبشرت عند ذلك، وكانت قائمة على رؤوس الأضياف كما جرت به عادة الناس الكِرام، وقد قال تعالى إخبارًا عَمّا جَرَى: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾، أي فبَشَّرَتها الملائكة بذلك وكان إبراهيم وإسماعيل حينئذٍ حاضِرين معها، فقالت: كيف يَلِد مِثْلِي وأنا كبيرة وعَقِيم أيضًا، وهذا زوجي شَيْخٌ، فقالت لها الملائكة: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ﴾.

(كَذَا) مِن الأنبياء **(يَعْقُوبُ)** وهو إسرائيل بن إسحاق بن إبراهيم وكذا **(يُوسُفُ)** وَلَدُه هو مِن الأنبياء الذين أثنَى الله عليهم بالعفة والنزاهة والصبر والاستقامة، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، كما أثنى عليه أيضًا سَيِّدُنا محمَّد ﷺ بقوله: «**إِنَّ الكَرِيمَ ابْنَ الكَرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ يُوسُفُ بنُ يَعْقُوبَ بنِ إِسْحَاقَ بنِ إِبْرَاهِيمَ**» رَواه البُخَاريّ.

ويُوسُف عليه السلام مِن أشهر أنبياء بني إسرائيل، وقد ذُكِرَتْ قِصّتُه في سورة يوسف مُفَصَّلة، وفيها بيانٌ لمراحل مِن حَياته ومِحْنَتِه مع إخوته ومِحْنَتِه مع امرأة العزيز، ودُخوله السجن، ودَعْوَته فيه إلى الله تعالى، ثم خُروجه من السِّجن وفيها تفسيره الرؤيا لِلْمَلِك واستِلَامُهُ لخزائن أَرْضِ مِصْرَ، ثم مجيء إخوته إلى مصر بسبب القحط، وإبقاؤه لأخيه بنيامين عنده، ثم اجتماعه بأبيه وإخوته ودخولهم عليه وسجودهم له على وجه التحية والتعظيم وكان ذلك جائزًا في شريعتهم، إلى غير ذلك من إشارات دقيقة وعظات بالغة يستفاد بها من حياة هذا النبي

الكريم ﷺ.

(وَأَيُّوبُ احْتَذى) أي كان عليه السلام على طريق الهُدَى نَبِيًّا كالأنبياء قبلَه، وهو أيوب بن موص بن رَزاح بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل، وقيل هو أيوب بن موص بن رعويل بن العيص بن إسحاق بن يعقوب، وقيل غير ذلك. وقد نُصّ على نُبُوَّتِه في مواضع من القرءان الكريم، منها: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ﴾.

وقد ذَكَرْنا في هذا الكتاب قصّة ابتلاء أيّوب والتحذير من أشياء مفتراة عليه باختصار، ولنا في ذلك رسالة مُفرَدة في غير هذا الموضع أسميانها: «**إسعاد الأرواح والقلوب بتبرئة نبيّ الله أيّوب**».

وكذلك مِن الأنبياء **(شُعَيب)** عليه الصلاة والسلام، قال تعالَى: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧٦ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٧٧﴾. وقد اختلف في نسَبه على أقوال، فقيل: هو شعيب بن توبة بن مدين بن إبراهيم، وقيل: شعيب بن ميكائيل بن يزجر بن مدين بن إبراهيم، وقيل: هو شعيب بن يثرون بن مدين ابن إبراهيم. بعث شعيب إلى أُمّتَيْن: إلى قومه أهل مَدْيَنَ، وإلى أصحاب الأيكة، وقيل: أهل مدين هم أصحاب الأيكة، والأيكة شجرة من الأيك مُلْتَفّ.

وكان أهل مدين قومًا عربًا يسكنون مدينتهم مَدْيَن التي هي قرية من أرض معان من أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز قريبًا من بحيرة قوم لوط، وكانوا بعدهم بمدة قريبة. ومدين قبيلة عُرِفَت بهم، كان أهلها كفارًا يقطعون السبيل ويخيفون المارّة ويعبدون الأيكة، وهي شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها، وكانوا من أسوإ الناس معاملة، يبخسون المكيال والميزان ويُطَفِّفُون فيهما يأخذون الزائد ويدفعون الناقص إلى غيرهم، فبعث الله فيهم شُعَيبًا فدعاهم إلى عبادة الله وحده الذي لا

شريك له ونهاهم عن تعاطي هذه الأفاعيل القبيحة من بخس الناس أشياءَهم وإخافتهم لهم في سُبُلهم وطرقاتهم، فآمن به بعضهم وكفر أكثرهم، حتى أحَلَّ الله بهم البأس الشديد، فبعث عليهم حَرًّا شَدِيدًا، ورفع لهم العذاب كأنه سحابة، فلَمَّا دَنَت منهم خرجوا إليها رجاءَ بَرْدِها، فلما كانوا تحتها أمطرت عليهم نارًا، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾.

و(**هارونُ**) كذلك نبيّ من أنبياء الله عزّ وجلّ، قال الله تعالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾. وهو هارونُ بن عِمران بنِ يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهِيم الخليل.

(**وموسى**) وهو مِن أُولي العزم من الرُّسُل، وقد ذُكِرَ اسمُهُ مائة وستًا وثلاثين مرة في كثير من السور المباركة في القرءان الكريم.

وُلِد سيدنا موسى عليه السلام في عهد الطاغية الوليد بن مصعب فرعون في مصر الذي اشتهر بالطغيان والجبروت وادّعى الألوهية. وفرعون كان لقب كل ملك من ملوك مصر كما أنّ كِسْرَى لقب كل ملك من ملوك بلاد فارس، وقَيْصَر لقب كل ملك من ملوك بلاد الروم، ويقال إن فرعون هذا تولى الْمُلْكَ بعد موت أخيه «قابوس» فكان أعْتَى وأفْجَرَ وأَشَدَّ عِنادًا وطغيانًا منه، وقد ذاق بنو إسرائيل من أذاه وشرّه ما لم يذوقوه من قبل.

وقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يفرّج عن بني إسرائيل فبعث إليهم موسى بن عمران عليه السلام ليُنْقِذَهم مِن شَرّ هذا الْمَلِك ويخلّصهم من ظُلْمه وطغيانه، فكانت بعثته عليه الصلاة والسلام رحمةً لبني إسرائيل وإنقاذًا لهم من ظلم هذا الملك.

وكان فرعون هذا قد رأى في منامه رؤيا كأن نارًا قد أقبلت من جهة بيت المقدس حتى وصلت إلى بلاد مصر، وأحاطت بدُوْرها وبيوتها فأحرقتها وأحرقت الأقباط وتركت بني إسرائيل دون أذى، فلَمَّا استيقظ

هالَتْهُ هذه الرؤيا، لذلك جمع الكهنة والسحرة والمنجِّمين وسألهم عن تأويل هذه الرؤيا وتفسيرها، فقالوا له: هذا غلام يولد من بني إسرائيل يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه، ويكون ذهاب مُلْكِك على يديه أيضًا، ويخرجك وقومك من بلدك ويُبَدِّل دينك، فأمر فرعون الطاغية أن يُقْتَلَ كُلُّ غلام يولد في بني إسرائيل.

وأخذ جنوده الأشرار يعذبون الحَبَالى من نساء بني إسرائيل حتى كانت المرأة منهم تُسْقِط حملها خوفًا من التعذيب والتنكيل على أيدي جنود فرعون، ولما كثُر الموت في الشيوخ الكبار من بني إسرائيل، دخل وجهاء الأقباط ورؤساؤهم على فرعون وقالوا له: إن الموت قد وقع في شيوخ بني إسرائيل وأنت تأمر بقتل صغارهم لهذا يوشك أن يقع العمل والخدمة علينا ولا يبقى أحد للخدمة غيرنا، لذلك أمر فرعون أن يُقتل غِلْمانُ بني إسرائيل سَنَة ويُتركوهم سنة حتى لا يهلك جميع أبناء بني إسرائيل الذين كان فرعون يستخدمهم في أعماله.

وقد بعث الله تعالَى هارون عليه السلام مُعِينًا لنبيه موسى عليه السلام حين أراد أن يبعثه إلى فرعون لدعوته إلى الإيمان، وقد دعا موسى عليه السلام ربه بدعوات حين أمره تعالى أن يذهب إلى فرعون لدعوته إلى الإيمان وقد استجاب الله دعوته، قال تعالى حكاية عن موسى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾.

ووُلِد نبي الله هارون عليه السلام بعد ولادة موسى بثلاث سنوات في السنة التي لا يذبح فيها الأطفال، أي عام صَفْح فِرعون عن قتل الأبناء تُرِك هارون ولم يُذبح، وأما نبي الله موسى عليه السلام فقد ولد في السنة التي يذبح فيها الأطفال، لكنّ الله تعالَى حَفِظ موسى عليه السلام

فتَرَبَّى في بيت فِرعون.

ولَمّا بعث الله تعالَى موسى عليه السلام، طلب موسى مِن رَبّه أن يبعث معه أخاه هارون ليكون معه في طاعة الله ومعينًا له على تبليغ الرسالة، فاستجاب الله تعالى دعوته، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ أي اجعله معي مُعِينًا ورِدْءًا ووزيرًا يشدُّ ظهري ويُقَوِّيني ويساعدني على أداء رسالتي إليهم فإنه أفصح مِنّي لسانًا وأبلغ بيانًا. فاستجاب الله تعالى لنبيه موسى، قال تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

وأخبر الله تعالَى نبيَّه موسى بأنّ فرعون وجُنْدَه لن يصلوا إليه وإلى أخيه هارون بقتلٍ ولن ينالوا منهما، فسار موسى عليه السلام بأهله نحو مصر حتى وصلوها ليلًا وكان هارون عليه السلام يومئذ بمصر، فأوحى الله تعالى إلى موسى أنْ يَتَلَقَّى أخاه هارون عليه السلام ويخبره أنه قد جعله وزيرًا له ورسولًا معه، وتلقى هارون موسى فلما اجتمعا والتقيا قال موسى لأخيه هارون: إن الله أمرني أن ءاتي فرعون فسألته أن يجعلك معي فانْطَلِقْ معي إليه، فانطلق موسى وهارون عليهما السلام إلى قصر فرعون ليلًا، وطلب موسى من البَوّاب أن يأذن له بالدخول على الملك أي فرعون، وعندما سأله البواب بقوله: وماذا أقول لفرعون؟ أجابه موسى: قل له جاءك رسول رب العالمين، ففزع البَوّاب من كلام موسى ودخل على فرعون مرعوبًا وقال له: إن بالباب إنسانًا مجنونًا يزعم أنه رسول رب العالمين، فأخذت فرعونَ رِعْدةٌ وهيبة وأمر بَوابّه بإدخاله مع أخيه هارون عليهما السلام، فلما دخل موسى ومعه أخوه هارون على فرعون في قصره دَعَوَاه إلى عبادة الله وَحْدَه الذي لا شريك له في الألوهية وإلى الدخول في دين الإسلام، وبلّغاه ما أُرْسِلَا

به وأن يَفُكَّ أُسَارَى بني إسرائيل من قبضته وقهره وسَطْوَتِه ويتركهم يعبدون الله تعالى وحده ويتفرغون لعبادته، فَتَكَبَّر فرعون في نفسه وعتَا وطغى وأخذته العِزّة بالإثم ونظر إلى موسى وهارون بعين الازدراء، وقال لهما: وهل يوجد إله غيري؟ وعندما تَحَقَّقَ فرعونُ من موسى وعلم أنه الذي تَرَبَّى في بيته وقصره ثم كان مِن أمره ما كان، قال لموسى: ألم نُرَبِّكَ فينا وليدًا ولَبِثْتَ فينا مِن عُمُرِك سنين؟ وبعدها أخذ فرعون يجادل موسى عليه السلام ويجحد وجود الخالق الصانع ويزعم أنه هو وحده الإله، ولـمّا قامت الحجج عليه وانقطعت شبهه الواهية ولم يبق له إلا العناد والتكبر، فعدل إلى استعمال سلطانه وجاهه وسطوته وجبروته، فقال لموسى: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾، فأراه موسى عليه السلام ءايات بيّنات تدلّ على صِدْقه، ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾، ومع هذا كله لم يقتنع فرعون بشيء من ذلك بل استمر على كفره وطغيانه ودعواه أنَّ هذا كلَّه سحرٌ حتّى أهلكَهُ الله تعالى.

(وَ) كذلك (**الْيَسَعْ**) مِن الأنبياء وهو من ذرية يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم الصلاة والسلام، وقيل غير ذلك. وقد ذكَرَه الله تعالى في عِدّة مِن الأنبياء فقال: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

وذكر بعض المؤرّخين من قصته أنه كان بعد إلياس فقام بأمر بني إسرائيل، فكان فيهم ما شاء الله أن يمكث يدعوهم إلى عبادة الله متمسكًا بنهج إلياس وشريعته. ولَمّا كَثُرَتِ الجبابرة، وكان في قومِه التابوت فيه بَقِيّة مما ترك ءال موسى وءال هارون، كان لا يلقاهم عَدُوّ فيُقَدِّمون التابوت ويزحفون به معهم إلا هزم الله ذلك العدو. وقال بعضهم: إن اليسع ابن عم نبيّ الله إلياس عليه السلام، ويقال كان مستخفيًا معه بجبل قاسيون من مَلِك بَعْلَبَكَّ، ثم ذَهَب معه إليها فلَمَّا

مات إلياس خلفه اليسع في قومه ونبّأه الله بعده.

وكذلك (**ذُو الْكِفْلِ**) عليه السلام نبيٌّ مِن أنبياء الله الكِرام، وأمَّا نَسَبُه فقد قيل هو ذو الكفل عليه السلام ابن سيدنا أيوب نبي الله ﷺ، واسمه بِشْر، وقد بعثه الله نبيًا بعد أبيه أيوب، وسماه ذا الكفل لأنه كان قد تكفَّل لبني قومه أن يكفيهم أمرهم ويقضي بينهم بالعدل.

وقال بعض العلماء: إنّ ذا الكِفل رجل صالح ليس من الأنبياء، لكن الأقوى أنه من الأنبياء وأنّه يوجد رجل ءاخر اسمه «الكفل» له فضل كذلك وقد ورد في الحديث المرفوع ذِكْرُه، قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾، وقال أيضًا: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

ولم يأت في القرءان تفصيل القوم الذين أُرسِلَ إليهم، فينبغي السكوت عمّا لم يثبت فيه نقل. وقد قيل إنّه توفي وكان عمره خمسًا وسبعين سنة على ما يرويه بعض أهل التواريخ، ويقال إن قبره في قرية «كفل حارس» من أعمال نابلس في فلسطين.

و(**دَاوُدُ**) عليه السلام النبيّ الكريم هو داود بن إيشا بن عويد بن عابر الممتدّ النسَب إلى يهوذا ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل. وقد جمع الله تبارك وتعالى له بين النُبُوّة والْمُلْك أي كان مَلِكًا، وأنزل عليه الزَّبُور الكتاب السَمَاوِيّ، وكان له مِن العمر أربعين سنة، فدعا قومه بني إسرائيل إلى تطبيق الشريعة التي أنزلت عليه وهي شريعة التوراة التي تدعو إلى الإسلام لا غير، والإيمان بأنَّ رَبّ هذا العالم كله هو الله وأنه هو الذي خلقه وأبدعه وأنه لا أحد يستحق العبادة إلا الله تعالى وحده. وكان كِتاب الزَّبُور فيه مواعظ وعِبر ورقائق وأذكار، وءاتى الله تعالَى داودَ الحكمة وفَصْل الخطاب، قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾.

وقد أعطى الله تبارك وتعالى عَبْدَه داود عليه الصلاة والسلام فضلًا كبيرًا وحَباه مِن لَدُنه خيرًا عظيمًا، فكان عليه السلام عندما يصدح بِصَوته الجميل فيُسَبِّح الله تعالى ويحمَدُهُ تُسَبِّح معه الجبال والطَّير، وكان إذا قرأ الزَّبُور وما فيه من رقائق وأذكار تَكُفُّ الطيرُ عن الطيران وتقف على الأغصان والأشجار لتسمع صوته النَّدِيَّ العَذْبَ وتُسَبِّح بتسبيحه وتُرَجِّع بتَرْجِيعه، وكذلك الجبال تُردِّد معه في العَشِيِّ والإِبْكَار، تجيبُه وتسبح الله معه كُلَّما سَبَّح، وتَعْكِف الجن والإنس والطير والدوابُّ على صَوْتِه.

وكان مع ذلك الصوت الرخيم سريعَ القراءة مع التَّدَبُّر والتخشع فكان صلوات الله وسلامه عليه يَأْمُر أن تُسْرَجَ دَابَّتُه فيقرأ الزبور كلَّه قبل أن تُسْرَج. روى البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «**خُفِّفَ عَلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ القُرْآنُ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَوَابِّهِ فَتُسْرَجُ، فَيَقْرَأُ القُرْءَانَ قَبْلَ أَنْ تُسْرَجَ دَوَابُّهُ**».

ومِمَّا أَنْعَم الله تبارك وتعالى على داود عليه الصلاة والسلام أنْ عَلَّمه مَنْطِقَ الطَّيْر وَأَلَانَ لَهُ الحديد فكان بين يديه بإذن الله كالعجين، حتى كان يفتله بيده ولا يحتاج إلى نار ولا مِطرقة، فكان يصنع منه الدُّروع ليُحَصِّن بها جنوده من الأعداء.

ولِيُعْلَم أنّ بعض المفسرين أورد في تفسير بعض الآيات التي تكلَّمت عن داود عليه السلام في قصة الخصمين قَصَصًا إسرائيليات لا تليق بنبيِّ الله داود الذي خَصَّه الله تعالى بنبوته وأكرمه برسالته، لأنّ الأنبياء جميعهم تجب لهم العصمة من الكفر والرذائل وكبائر الذنوب وصغائر الخسة كما تَقَدَّم في مبحث العِصمة من هذا الكتاب، فلذلك لا يجوز الاعتماد على مثل هذه القصص المنسوبة للأنبياء ولا يجوز اعتقادها لأنها تنافي العِصْمة الواجبة لهم، بل ينبغي الاقتصار في فهم قصة الخصمين مع داود عليه السلام على ظاهر ما في القرءان، فقد جاء في

تفسيرها أن هذين الخصمين كانا في الحقيقة من البشر من بني ءادم وأنهما كانا مشتَرِكَين في نعاج من الغنم، وأنه بغى أحدهما على الآخر وظلمه على ما نصّت الآية، وقد تَسَوَّر هذان الخصمان مِحْرَاب داود عليه السلام وهو أشرفُ مَكَانٍ في داره، وكان داود عليه السلام مُسْتَغْرِقًا في عبادة ربه في ذلك المحراب فلَم يَشْعُرْ داود عليه الصلاة والسلام بالشخصين إلا وَهُمَا أَمامَه، فلَمَّا قال لهما: مَن أَدْخَلَكُمَا عليّ، طَمْأَنَاه وقالا له: لا تَخَفْ، ثم سألاه أن يحكم في شأنهما وقضيتهما إلى ءاخر القصة التي نص الله تعالى عليها في القرءان.

وأما استغفار داود عليه الصلاة والسلام فهو لأجل الذَّنْب الصغير الذي وقع فيه مِمّا لا خِسّة فيه ولا دَناءة وهو أنَّه تَعَجَّل بالحكم على الخصم الآخر قبل أن يسأل الآخر عَمَّا عنده فيها ولا يقضي عليه بالحكم قبل سؤاله، مع أنّ حُكم داود عليه السلام لم يكن خَطَأً، وقد تاب داود عليه السلام من ذلك الذي ليس فيه خسة ولا دناءة، وغفر الله تعالى له هذا الذنب، قال الله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾.

وأمّا عن وفاته عليه السلام فقد قيل إنّ عُمُرَه لَمَّا مات كان مائة سنة، والله أعلم.

تنبيه: إنّ مِن القصص المفتراة على نبيّ الله داود عليه السلام زُورًا وبهتانًا وهي من الإسرائيليات المدسوسة على الأنبياء ما يقولون فيه إنّ داود عليه الصلاة والسلام كان يومًا في محرابه إذْ وقعت عليه حمامة من ذهب، فأراد أن يأخذها فطارت فذهب ليأخذها فرأى امرأة تغتسل فوقع في حبها وعشقها وأعجب بها وأغرم، وكانت زوجة أحد قُوّاده ويُسَمَّى «أُوريا» فأراد أن يتخلص منه ليتزوج بها فأرسله في أحد الحروب وحمّله الراية وأمره بالتَّقَدُّم وكان قد أَوْعَز إلى جنوده أن يتأخروا عنه إذا تقدم نحو الأعداء حتى قُتل ذلك القائد وأنَّه بهذه

الوسيلة قد قتل القائد «أوريا» وتزوج زوجته مِنْ بَعْدِه، ويزيد بعضهم فيقول: إن داود زنى بهذه المرأة قبل تَدْبِير هذه المكيدة، والعياذ بالله تعالَى مِن هذا الكفر الشنيع لأنّ فيه نسبة الخيانة في الحال والفِعل والمقال لنبيّ مِن الأنبياء كما أنّه فيه نسبة الفاحشة إليه وغير ذلك مِن المثم التي لا تليق بنبيّ مِن أنبياء الله تعالَى.

وكذلك (**سُلَيْمانُ**) عليه السلام كان نبيًّا عظيمًا (**اتَّبَع**) النَهْجَ القَويم الذي كان عليه جميع الأنبياء. وسليمان عليه السلام هو ابن داود بن إيشا بن عويد بن عابِر، أحد أنبياء بني إسرائيل، وقد رزقه الله النُبُوّة والملك وأعطاه مُلْكًا لا ينبغي لأحد من بعده فكان مُلْكُه واسعًا وسلطانه عظيمًا، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾، وقد استجاب الله تعالى دعاءه.

وقد جاء في القرءان الكريم: ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ﴾ أي ورثه في الْمُلك والنُّبُوّة وليس المراد أنه ورثه في المال لأنه ثَبَت عن النبي ﷺ أنه قال: «**نَحْنُ مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ لَا نُوَرِّثُ مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَة**» أي أنّ الأنبياء لا تُورَث أموالهم عنهم كما يُورَث غيرهم بل تكون أموالهم صدقَةً مِن بَعْدِهم.

وقد قام سليمان عليه السلام بعِمارة بيت المقدس تنفيذًا لوصيّة أبيه داود عليه السلام بعد أربع سنين مِن تَوَلِّيه الْمُلْكَ وانتهى من بنائه بعد سبع سنين، وأقام السُّور حول مدينة القدس. وقد كان ءادم عليه السلام أَوَّل من بنى المسجد الأقصى بعد أربعين سنة من بنائه المسجد الَحرام، كما أخبر بذلك نبيّنا محمَّد عليه الصلاة والسلام.

وقد أكرم الله عز وجل نَبِيَّه سليمان عليه السلام بنِعَم كثيرة وخَصَّه بِمَزايا عجيبة، فمِن ذلك أنّه فضّله الله تعالى بالنُبُّوة والكتاب وتسخير الشياطين والجن والإنس، وأعطاه الله عز وجل عِلْمًا بالقضاء وتسبيح الجبال، وَعَلَّمَه مَنْطِقَ الطير وسائر الحيوانات، فكان يفهم عنها ما لا

يفهمه سائر الناس، وكان يتحدث معها أحيانًا كما كان الأمر مع الهدهد والنمل.

وقد سَخَّر الله تبارك وتعالى لنبَيِّه سليمان عليه السلام الريح فكانت تنقله إلى أيِّ أطراف الدنيا ثم تعود به إلى منزله بالشام. ومِن نِعَمِ الله تعالى على سليمان عليه السلام أن أسال له عين القِطر وهو النحاس الْمُذاب، فكان النُحاسُ يتدفّق رَقْراقًا مُذابًا لسليمان عليه السلام كتدفق الماء العذب، فيصنع منه سليمان عليه السلام ما يشاء من غير نار وكانت تلك العين في بلاد اليمن.

وقد ذكر الله تعالَى قِصَّته في القرءان مع النمل ومع بلقيس وماذا فعل بشأنها حتى أتت وقومها إليه مسلِمين تاركين الكفرَ الذي كانوا عليه. وقد أخبر الله تعالَى في القرءان عن وفاة نبيّه سليمان عليه السلام فقال: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾، وكان قد أخفى الله تعالى مَوْتَ سليمان على الجانّ المسخَّرين له في الأعمال الشاقة، لأنّ الجن كانوا يقولون للناس: إننا نعلم الغيب، فأراد إظهار كَذِبهم للنّاس فقُبِض سليمان وهو مُتَوَكِّئٌ على عصاه وظَلَّ ميتًا على عصاه سَنَةً كاملة، فلما أَكَلَت دابة الأرض وهي الأَرَضَة خَشَبَ عصاه خَرَّ وَسَقَط إلى الأرض، وعَلِمَت الجِنّ أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة. ويقال إن نبي الله سليمان عليه السلام حين توفاه الله كان عمره اثنتين وخمسين سنة، وكان لبث عليه الصلاة والسلام في الْمُلْك أربعين سنة، ودُفِن بعد وفاته في بيت المقدس بفلسطين.

وكذلك (**إِلْيَاسُ**) عليه الصلاة والسلام هو نبيّ مِن أنبياء الله الكِرام من أنبياء بني إسرائيل، وقد ذُكِر في القرءان الكريم ثلاث مرات، بعضها بلفظ إلياس وغيرها بلفظ إلياسين. وقد قيل في نَسَبِه إنّه إلياس

ابن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون الممتدّ نَسَبُه إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

وقد ذكر بعض أهل التاريخ والتفسير أنه لَمَّا كَثُرَتِ الأحداث بعد قبض النَّبِيّ حِزْقِيل عليه السلام وعَبَد بنو إسرائيل الأوثان والأصنام، بَعَث الله تعالى إليهم نَبِيَّه إلياس عليه الصلاة والسلام يدعوهم إلى دين الإسلام وعبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام، وكان إرساله إلى أهل بَعْلَبَكَّ من قرى لبنان، فدعاهم إلى ترك عبادة صنم لهم كانوا يسمونه بَعْلًا، ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ فلم يؤمن به إلا نَفَر قليل من بني إسرائيل، فدعا عليهم بِحَبْس المطر عنهم جزاءً لكفرهم. فَحُبِس عنهم ثلاثَ سنين حتى هلكت الماشية والشجر وجَهِد الناس جَهْدًا شَدِيدًا، واستخفى إلياس عليه الصلاة والسلام عن أَعْيُنِهم، وكان يأتيه رزْقُه حيث كان، وكان بنو إسرائيل كُلَّما وجدوا ريح الخبز في دار قالوا هنا إلياس فيطلبونه وينال أهل المنزل منهم الشّرّ والضُّرّ.

ثمّ إن نبيّ الله إلياس قال لبني إسرائيل: إذا تركتم عبادة الأصنام دعوتُ الله أن يُفَرِّج عنكم، فأخرجوا أصنامهم بعد أن دعوها فلم تَسْتَجِبْ لهم فعَرَفُوا ضلالهم، ثم طلبوا من نبي الله إلياس أن يدعو الله لهم ليفرج عنهم ما بهم من جُهد وضيق، فدعا الله تعالى لعلّهم يُسلِموا إذا رأوا ذلك، ففَرَّج الله عنهم كُرْبَتهم وأرسل عليهم المطر والرخاء وأغاثهم، فحَيِيَت بلادهم ولكنهم لم يرجعوا عما كانوا عليه من عبادة الأوثان ولم يستقيموا على الصراط المستقيم كما أمرهم نبيهم.

وأمّا وفاتُه عليه السلام، فقد قيل إنّه توفي ودفن في بعلبك، والله أعلم بالصواب.

وكذلك (**يُونُس**) بنُ مَتّى عليه الصلاة والسلام وهو نبيّ من أنبياء الله المذكورين في القرءان الكريم، وقد جاء القرءان بذِكر اسمه «يونس»

ووَصْفِه ولقبه بـــ«ذي النون» و«صاحب الحوت»، والذي عُلمَ من نسبه من الحديث ومن كتب التفسير والتاريخ أنه يُونُس بن مَتَّى وأنّ نَسَبَه متَّصِل ببنيامين أخي يوسف عليه السلام من أبيه وأمه.

وقد أرسل الله تعالى نبيَّه يونُسَ إلى أهل نينوى الذين كانوا في أرض الموصل بالعراق ليدعوهم إلى دين الإسلام ويعبدوا الله وحده، وكان أهل نينوى عددهم أكثر من مائة ألف أو أكثر في ذلك الوقت، قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾، وكان قد دخلت فيهم الوثنية وانتشرت فيهم عبادة الأصنام وكان لهم صنمٌ يعبدونه يسمى «عشتار»، فذهب نبي الله يونس عليه السلام إلى نينوى في العراق امتثالًا لأمر الله ليبلغ رسالة الله، فدَعَا هؤلاء المشركين إلى دين الإسلام وعبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام، فكذَّبوه وتَمَرَّدُوا وأَصَرُّوا على كفرهم ولم يستجيبوا لدعوته.

وبَقِي يونس عليه الصلاة والسلام بينهم صابرًا على الأذى يدعوهم إلى الإسلام ويُذَكِّرُهم ويَعِظُهم، لكن لم يَلْقَ مِنهم إلا عنادًا وإصرارًا على كُفْرِهم. وقيل إنّه أقام فيهم ثلاثًا وثلاثين سنة يدعوهم إلى الإسلام ولم يؤمن به خلال هذه المدة غير رَجُلين اثنَين، فَلَمّا أَيِس يونس عليه الصلاة والسلام منهم بعدما طال ذلك عليه مِن أمرهم خَرَج من بين أَظْهُرِهم ءايسًا منهم ومُغَاضِبًا لهم لِكُفْرِهم قبل أن يَأْمُرَه الله تعالى بالخروج، وظنّ أن الله تعالى لن يُضَيِّق عليه بسبب تَرْكِه لأهل هذه القرية وهَجْرِه لهم قبل أن يأمره الله تبارك وتعالى بالخروج، وهذا معنَى ما جاء في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، لذلك لا يجوز اعتقاد أن نَبِيّ الله يونس عليه السلام ذَهَب مُغاضبًا لِرَبِّه بل مُعتَقِدُ ذلك كافِر خارج مِن الإسلام لِنسبَتِه الكُفر إلى نبيّ مِن الأنبياء، كما أنّه لا يجوز أن يُعْتَقَد أنَّ يونس عليه السلام ظَنَّ أن الله تعالى لا يستطيع عليه فهذا كفرٌ وضلالٌ لا يُعْذَر فيه أَحَدٌ مِن

العَوَامّ الجُهَّال، فيستحيل أن يحصل مِن نبيّ مِن أنبياء الله تعالى مِن باب أولَى، فالأنبياء جميعهم عارفون بالله وقد عصمهم الله تعالى من الجهل به ومِن كُلِّ فِعْل وقول واعتقاد ينافي عِصْمَتَهم، فمَن نسب إلى نَبِيّ مِن أنبياء الله أنّه ظَنَّ أن الله تعالى لا يستطيع عليه فقد نَسَب إليه الكفر والجهلَ بالله وهو إنكار قدرة الله على كل شيء، وخَرَج بذلك مِن الإسلام. وقد جاء في القرءان شاهد لاستعمال «القَدْر» بمعنَى التضييق كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ أي مَن ضُيِّق عليه فيه، ومثله في قوله تعالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ﴾ يعني يوسع على من يشاء من عباده فيغنيه مِن فضله، ويُضيّق على من يشاء من عباده فيُفْقِره ويُقَتِّر عليه.

وسار يونس عليه السلام بعد أن تَرَك قومه حتى وصل إلى شاطئ البحر فوجد قومًا في سفينة في البحر، فطلب من أهلها أن يركبوه معهم فتَوَسَّمُوا فيه خيرًا وأركبوه معهم في السفينة، وسارت بهم السفينة حتَى توسطوا البحر فجاءت الرياح الشديدة وهاج البحر بهم واضطرب بشدة فقال مَن في السفينة: إنّ فينا صاحب ذَنْبٍ، فأَسْهَمُوا واقْتَرَعُوا فيما بينهم على أنّ مَن يقع عليه السهم يُلْقُونه في البحر، فلمّا اقترعوا وقع السهم على نبيّ الله يونس عليه الصلاة والسلام، ولكن لَمَّا توسموا فيه خيرًا لم يسمحوا لأنفسهم أن يلقوه في البحر، فأعادوا القرعة ثانيةً فوقعت عليه أيضًا، فشَمَّر يونس عليه السلام ليلقي بنفسه في البحر فأَبَوا عليه ذلك لِمَا عرفوا منه مِن الخير، فأعادوا القرعة ثالثة فوقعت القرعة عليه أيضًا، فما كان من يونس عليه السلام إلا أن أَلْقَى بنفسه في البحر لأنه كان يعتقد أنه لا يُصِيبُه هلاك بالغَرَق لأنّه لا يجوز أن يُظَنَّ أن ذلك انتحار منه فالانتحار أكبر الجرائم بعد الكفر، وذلك مستحيل على الأنبياء، وعلى هذا يحمل ما ورد في البخاري أنّ النبي ﷺ حين فَتَر[1]

(١) أي تأخَّر نزوله.

عنه الوحي في أوائل البعثة همَّ أن يُلْقِي بنفسه من ذِروة الجبل، فلم يَكُن هَمُّه بذلك إلا لتخفيف شِدّة الوجدِ الذي حصل له مِن إبطاء الوحي عليه لا الانتحار بل معناه أنه كان يظن أنه لا يتأذى إن فَعَل ذلك، فإنه حصل لكثير من الأولياء أنهم مَشَوا على الماء ولم يغرقوا، فمن حمل ما ورد في البخاري من هذه القصة أن الرسول أراد أن يَنْتَحِر فَقَد كَفَر.

ثم لَمّا ألقى يونس عليه السلام بِنَفْسِه في البحر وكّل الله تبارك وتعالى به حوتًا كبيرًا فالْتَقَمَه وابْتَلَعَه ابتلاءً له على تركه قومه الذين أغضبوه بدون إذنٍ، فدخل نبي الله يونس عليه السلام إلى جوف الحوت تحفُّهُ عنايةُ الله حتى صار وهو في بطن الحوت في ظلمات حالكة. ثم إن الحوت بقدرة الله تعالى لم يَضُرّ يونس ولم يجرحه ولم يَخْدِش له لحمًا ولم يكسر له عظمًا، وسار الحوت وفي جوفه يونس عليه السلام يشق به البحر حتى انتهى به إلى أعماقه، وهناك سمع يونس عليه الصلاة والسلام وهو في بطن الحوت حِسًّا وأصواتًا غريبة فقال في نفسه: ما هذا؟ فأوحى الله إليه وهو في بطن الحوت: إنَّ هذا تسبيح دَوَابّ البحر، فما كان من نبي الله يونس عليه السلام وهو في بطن الحوت وفي تلك الظلمات إلا أن أخذ يدعو الله عز وجل ويستغفره ويسبّحه تبارك وتعالى قائلًا ما ورد عنه في القرءان: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ثم نَجَّى الله يونُسَ عليه السلام من الغمّ والكرب والضِّيق الذي وقع فيه لأنه كان مِنَ الْمُسَبِّحين له في بطن الحوت والذاكرين، وأمر الله تعالى الحوت أن يلقيه في البرّ فألقاهُ الحوت بِمَكان قَفْر ولا ما يُتوارى به مِن شَجَر وغيره. وكان قد مكث نبي الله يونس عليه الصلاة والسلام في بطن الحوت ثلاثة أيام، وقيل: سبعة أيام، وقيل غير ذلك. قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ أي كان مريضًا كذلك

﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ١٤٦﴾ لأنّ يونس عليه السلام قد خرج من بطن الحوت ضعيفًا مريضًا وهزيلًا.

ثمّ عاد يونس عليه الصلاة والسلام إلى قومه أهل نينوى في العراق فوجدهم مؤمنين بالله تائبين إليه منتَظِرين عودة رسولهم يونس عليه السلام ليأتمروا بأَمْرِه ويَتَّبِعُوه، فمكث عليه الصلاة والسلام معهم يعلمهم ويرشدهم، ومتّع الله تعالى أهل نينوى في مدينتهم مدة إقامة يونس فيهم وبعده ءامنين مُطمئنين إلى حينٍ، ثم إنّهم لَمَّا ضَلُّوا بعد ذلك عن الصراط المستقيم الذي جاءهم به نبيهم وتوَلَّوا عن الإيمان دمّر الله تعالى لهم مدينتهم وأنزل عليهم العذاب وصارت مدينتهم عبرة للمعتَبِرين، قال تعالَى: ﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ١٤٨﴾.

ثُمّ توفَّى الله تعالَى سَيِّدَنا يونس عليه السلام، فقيل إنّه دفن على ساحل البحر قبل مدينة صيدا، وقيل: بل هذا هو الموضع الذي ألقاه فيه الحوت، والله أعلم بالصَواب.

وكذلك رسول الله (**زَكَرِيـَّا**) عليه الصلاة والسلام، وقد قيل في نسَبِه إنّه زكريا بن دان بن مسلم ابن صدوق الممتدّ نَسَبُه إلى سليمان بن داود المتّصل النسب بيَهوذا بن يعقوب، وقد ورد في الحديث المرفوع أنّه كان نَجَّارًا.

وقد بعث الله تعالى زكريا عليه الصلاة والسلام رسولًا إلى بني إسرائيل، فقام عليه السلام يدعو قومه إلى دين الله الإسلام وعبادة الله وحده ويخوفّهم عذابه في وقت اشتَدّ فيه الفسق والفجور وانتشرت فيهم المفاسد والمنكرات، وكان الملوك في ذلك الوقت قد تسَلَّطُوا على الصالحين والأتقياء والأنبياء حتى سفكوا دماءهم.

وكان نبي الله زكريا عليه السلام قد تقدمت به السِنّ وانتشر الشَّيْب في رأسه وبلغ من الكبر عتيًا ولم يكُن له وَلَدٌ، فقد كانت امرأَتُه عاقرًا لا تَلِد، فطلب من رَبّه أن يرزقه غلامًا تَقِيًّا يرثه في العِلْمِ والنبوة ويُعَلِّم

النّاس الخير، فاستجاب الله دُعاءَه وبَشَّرَه بيحيى نَبِيًّا بإخبار الملائكة عن الله حالَ كون زكريا قائمًا في محراب المسجد يصلي لله تعالى. وجعل الله له علامة وجود الحمل في زوجتِه أن لا يُكَلِّم الناس ثلاث ليال إلا رمزًا من غير علَّة ولا خَرَس، فكان يكلم الناس بيده وبالإشارة من غير أن يكون أصابَه عِلّة أو خرس أو مرض أو ءافة، فإذا أراد عليه السلام أن يذكر الله انطَلَق لسانه بمشيئة الله وقدرته الذي ينطق من يشاء.

وقد مات نبي الله زكريا عليه السلام قَتْلًا على أيدي يهود مجرمين، وقيل في سبب قتله: إنّه لَمّا شاع الخبر في بني إسرائيل أن مريم عليها السلام حامل اتَّهَمها بعض الزنادقة بيوسُف النَجّار الذي كان يتعبّد في المسجد، واتَّهَمها ءاخرون بزكريا عليه السلام، فعزموا على قتله، فأمسكوا به ثم نَشَرُوه بالمنشار فمات شهيدًا ﷺ، وقيل في قتلِه غير ذلك.

وكذلك (**يَحْيَى**) بن زكريّا عليه السلام نبيّ مِن أنبياء الله الكِرام، وكان يحيى عليه السلام قَوِيًّا في طاعة الله منذ صِباه، فقد كان بعيدًا عن مظاهر التَّرَف والنعيم، وكان في شبابه يأوي إلى القِفار والبراري ويكتفي بما يسهله الله له من الرزق، فكان طعامه العشب، وكان عليه السلام كثير العبادة والتضرع والبكاء من خشية الله تعالى كثير العزلة عن الناس.

وقد ءاتاه الله الحُكْمَ والنُبُوّة والعلم صَبِيًا وعلمه الله عَزّ وجل التوراة التي كانوا يتدارسونها فيما بينهم وقد كان سِنُّه إذ ذاك صَغِيرًا. وقد روي أنّ الصبيان الذين كانوا في سِنّ يحيى عليه السلام يقولون ليحيى عليه السلام: اذهب بنا نَلْعَب، فكان يقول لهم: ما لِلَّعِب خُلِقْنا.

وقد دَعا سيّدنا يحيى بن زكريا عليهما السلام بني إسرائيل إلى عبادة الله تعالى وحده بالحكمة والموعظة الحسنة الرقيقة والعمل بشريعة التوراة. وكان قد أُمر بخمس كلمات أن يعمل بِهِنّ ويأمر بني إسرائيل

أن يعملوا بهنّ، وهي: أن يعبدوا الله ولا يُشركوا به شيئًا، وبالصلاة، وبالصدقة، وبذِكْر الله عز وجلّ كَثِيرًا، وأنّ العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذِكْر الله عز وجل.

وقد مات سيّدنا يحيى بن زكريا عليه السلام مقتولًا، إذ قتله بنو إسرائيل ظلمًا وعدوانًا بأمر مَلِكهم حاكم فلسطين ءانذاك «هِيرُودس»، وسبب قتله أنّ هذا الملك كان متزوجًا من امرأة قد كَبِرت وذهب جمالها وقد كان لها بنت جميلة لم تكن بنته من صلبه ولكنها كانت ربيبة له فوقع في غرامها هذا الملك وأراد أن يتَزَوَّجها، فقالت له أمها: تَزَوَّج بنتي هذه حتى لا تكون بعيدة من النعمة التي تتقلب فيها، فقال لها الملك: حتى أستفتي يحيى أيجوز أم لا، فلما استفتى هذا الملكُ يحيى عليه السلام نهاه عن زواجها وأخبره بأن ذلك حرام في شريعتهم، فلما بلغ ذلك أمَّ الفتاة حقدت على يحيى عليه السلام ودبّرت له مكيدة قتل، فزَيَّنَت ابنتها وعطّرتها وألبستها أفخر لباس وأدخلتها على «هِيرُودس» الْمَلِك، فسقتْهُ الخمر وتَعَرَّضت له، فقال لها هذا الْمَلِك: تمنّي عليّ، فسألته أن يُؤتَى برأس يحيى في طَسْت، فقال لها الملك: ويحك! سَلِيني غير هذا؟ فقالت له: لا أريد غير هذا، فلَمَّا أَبَتْ عليه، زَيَّن له الشيطان سوء عملها وطلبها فاستجاب لها وأمَر بقتل يحيى عليه السلام والإتيان برأسه، فقتل يحيى عليه السلام على أيدي هذه الفئة الظالمة وهو في الصلاة فذبحوه ذَبْحًا، ثم قُدّم رأسه إلى الملك في الطبق والدم يَنْزِف منه، فلما رأت المرأة الرأس قالت: اليومَ قَرَّتْ عَيْنِي.

وقد انتقم الله تعالى لِنَبِيّه يحيى عليه السلام فلما صعدت هذه المرأة إلى سطح قصرها سقطت منه إلى الأرض وكان هناك كلابٌ ضارية فوثبت الكلاب عليها فأكلَتْها وهي تنظر إليهم، وكان ءاخرَ ما أُكِل منها عيناها. وظلّ دم نبي الله يَحيَى الذي قطر مِن رأسه وسال على الأرض

يغلي ويفور حتى سَلَّط الله تعالى على قَتَلَتِه بُخْتَنَصَّر أحدَ ملوك بابل، فقتل سبعين ألفًا حتَّى سكن دم يحيى عليه الصلاة والسلام. ويذكر بعض المؤرِّخين أنه بعد مقتل يحيى عليه السلام جاء تلاميذه وأخذوه ودفنوه، ثم جاءوا إلى المسيح عيسى بن مريم عليه السلام وأخبروه بمقتل نبي الله يحيى ﷺ، فحزن حزنًا شديدًا لقتله.

واختُلِف في مكان دفن يحيى عليه السلام، فقيل: إنّ رأسه دفن في دمشق في المكان المعروف اليوم داخل المسجد الأموي، وقيل في حلب، وقيل غير ذلك، والله أعلَم بالصّواب.

وكذلك (**عِيْسى**) ابن مريم هو نبيّ الله ورسولُه، وهو ءاخر أنبياء بني إسرائيل عيشًا في الأرض، وءاخر الأنبياء قبل سيّدنا محمَّد ﷺ.

وسَيِّدنا عيسى عليه الصلاة والسلام هو عَبْد من عباد الله خَلَقَهُ الله تعالى وصَوَّرَه في رَحِم أُمِّه مريم لكن خَلَقَه تعالى مِن غَيْرِ أَبٍ كما خلق ءادَم مِن غَيْرِ أَبٍ وَأُمٍّ، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾.

وروي أنّه ظهرت العجائب عند ولادة نبيّ الله عيسى عليه السلام، مِنها أنّ الأصنام التي كانت تُعْبَد من دون الله في زمان وِلادته بكل أرض قُلِبَت ونُكِّسَت على رؤوسها.

وكان عيسى ابن مريم عليهما السلام يظهر على يديه العجائب بقدرة الله تعالى، فلما ترعرع عليه السلام وفشا أمره بين اليهود أرادوا به سوءًا وأَغْرَوا ملك الروم «هِيرُودس» بِقَتْلِه، فلَمَّا عَلِمَت أمُّه مريم عليها السلام بمؤامرة اليهود خافت عليه وانطلقت به إلى مكانٍ بِمصرَ وهي «الرَّبْوَة» التي ذكرها الله تعالى في القرءان بقوله: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ أي يجري فيها الماء، فترعرع هناك ونشأ وعاش اثنتي عشرة سنة، وقيل: إنه لما بلغ سبع سنين أَسْلَمَتْهُ أُمُّه إلى الكُتّاب فجعل لا يُعَلِّمُه المعلم شيئًا إلا بَدَرَه إليه.

ثُمّ لَمّا مات ملك الروم «هِيرُودس» رجع عيسى عليه السلام إلى بيت المقدس في فلسطين، وقدم عليه ابن خالة أمه يوسُف النّجّار فحمله وأُمَّه على حمار حتى جاء بهما إلى بيت المقدس، وقيل: نزل هو وأمه بقرية يقال لها ناصرة. ولما بلغ عيسى عليه السلام الثلاثين من العمر أوحى الله تعالى إليه أن يَبْرُز للناس ويدعوهم إلى عبادة الله تعالى، فصار عليه السلام يدعو الناس إلى ذلك ويقول لهم: أيها الناس اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا وءامنوا بأني رسول الله إليكم، فمن به اثنا عشر شخصًا يُسَمَّون الحواريين، فأخذ عيسى عليه السلام يوزعهم في نواحي الأرض يدعون إلى عبادة الله تعالى وحده ونشر دين الإسلام الذي هو دين جميع الأنبياء والملائكة، وقد أيَّدَه الله تعالى بالمعجزات الباهرات فكان عليه السلام يَشْفِي المرضى والزَّمْنَى والأَكْمَه والأَبْرَص وغيرهم من المرضى بإذن الله، فأحَبَّه الناس وكَثُر أتباعه وعلا ذكره وشأنه بين الناس.

وروي أن سيّدنا عيسى عليه السلام كان شأنه في إحيائه للموتى بإذن الله أنّه يضرب بعصاه الميت أو القبر أو الجمجمة فيحيا الإنسان ويكلمه ويعيش. ومن معجزاته ﷺ أنه كان يُنَبِّئ قومه بما يأكلونه ويَدَّخِرُونه في بيوتهم، وذلك أنه لما أحيا الموتى بإذن الله، طلبوا منه ءاية أخرى، وقالوا: أَخْبِرْنَا بما نأكل في بيوتنا وما نَدَّخِرُ للغَدِ، فأخبرهم، فقال: «يا فلان، أنت أكلت كذا وكذا، وأنت أكلت كذا وكذا وادخرت كذا وكذا»، قال تعالى حكاية عن قول عيسى: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. وكان عليه السلام يقضي أيّامه في التَّجْوَال والسياحة في الأرض لدعوة الناس إلى دين الإسلام.

وَلَمّا أراد اليهود الفَتْكَ به أراد الله تعالى أن يرفعه إلى السماء، فخرج عيسى عليه السلام على أصحابه من عينٍ في البيت ورأسه يَقْطُر

ماءً وفي البيت اثنا عشر رجلًا من الحواريين، فقال: أيُّكم يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني فيكون رفيقي في الجنّة، فقام شاب هو أحدَثُهم سِنًّا، فقال له: اجلس، ثم أعاد عليهم فقام الشاب نفسه، ثم أعاد ثالثةً فقام هو هو، فقال: أنت هو، فألقي عليه شبه عيسى ورفع عيسى من رَوْزَنة في البيت إلى السَّماء. وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشَّبيه، فقتلوه ثم صلبوه، فكفر بعيسى بعض التلامذة الاثني عشر، وافترقوا ثلاث فرق. فقالت فرقة: «كان الله فِينَا ما شاء ثم صعد إلى السماء»، وهؤلاء هم اليعقوبية، وقالت فِرقة: «كان فِينَا ابن الله ما شاء الله ثم رفعه إليه»، وهؤلاء هم النَّسْطُورية، وقالت فرقة: «كان فِينَا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه الله إلى السماء»، وهؤلاء هم المسلمون. فتظاهَرَتِ الكافرتان على المسلمة فقتلوها، وعمّ الكُفر بعد ذلك شيئًا فشيئًا حتى بعث الله مُحَمَّدًا ﷺ شمسَ الأكوان والهُدَى ومِصباح الزمان الذي بدا.

وأمّا عيسى عليه السلام فلم يُقتَل بل رفعه الله حيًّا إلى السماء، وقال بعض العلماء هي السماء الثانية، قال الله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ﴾ أي إلى محَلِّ كرامَتِه وهي السماء، لا أنّ الله تعالَى يسكن مكانًا عاليًا وأنّ عيسى صَعِد إليه، حاشا لله، فالله تعالى لا يحتاج إلى المكان ولا إلى شيء من الحادثات.

(وَ)خاتم النبيين والمرسلين وسيّد ولَدِ ءادم أجمعين خير الخلائق هو مُحمَّد صلى الله عليه وعلى ءاله وصحبه الطيّبين الطاهرين، وهو لم يُسَمِّ نفسَه (طَـه) ولكنّ الناس سَمَّوه بعد ذلك بهذا. وقال بعض المفَسرين: طه معناه طائي الأرض، أي يا أيُّها الرجل الذي يطأ الأرض بقدميه هَوِّن على نفسك، فقد كان ﷺ يطيل قيام الليل.

وهو محمَّد ﷺ **(خاتِمٌ)** للنبيِّين أي ءاخرُهم بدليل قول الله عزّ وجلّ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، وقوله ﷺ: «**لَا نَبِيَّ بَعْدِي**»، وقوله في الحديث الآخر: «**وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ**»، وقد ردَدْنا على القاديانية ودعَوى رئيسهم غلام أحمد النبُوّة في هذا الكتاب عند الكلام على النبُوّة، فآمِن بذلك و**(دَعْ غَيَّا)** أي اترك وابتعد عن سبيل الغواية والضلال واتبَع سبيل الهدى والرَّشَاد.

٢٠- عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ وءَالِهِمْ ما دَامَتِ الأيامُ

جميع الأنبياء الخمسة والعشرين الذين ذكرتهم والذين لم أذكرهم **(عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ)** الزاكية **(والسَّلامُ)** التامّ مِن الله تعالى **(وَ)**علَى **(ءَالِهِم)** الطاهِرين **(ما دَامَتِ الأيامُ)** والليالي متعاقبة على التوالي، وقد سبق الكلام على الصلاة والسلام وتعريف الآل أوّل الكتاب مستوفًى فراجِعه إن شئتَ.

السَّمْعِيّات

الملائكة الكِرام

٢١- وَالْـمَـلَـكُ الَّـذِي بِـلا أبٍ وَأُمْ لا أَكْـلَ لا شـرْبَ وَلا نَـوْمَ لَـهُـمْ

(**وَالْـمَـلَـكُ**) هو الواحد مِن الملائكة وهو (**الَّـذِي**) خَلَقَهُ الله مِن نور في أصل الخِلقة (**بِلا**) واسِطة (**أبٍ وَأُم**) فيجب الإيمان بالملائكة وهم أجسام نورانيّة ذوو أرواح ليسوا ذُكُورًا ولا إناثًا، وقد أعطاهم الله القدرة على التشكُّل بصورة الذكور من البشر لكن بدون ءالة الذُّكورة، كما أنّهم قد يتشكّلون بأشكال بعض الحيوانات كالطائر الكبير وبعض الحيوانات المحترمة كالإبل، فقد جاء في الأثر أنّ أبا جهل أخذ حَجَرًا في صباح وجلس لرسول الله ﷺ ينتظره، وغدَا رسول الله ﷺ كما كانَ يَغدُو، وكان إذا صلَّى صَلَّى بين الركنين اليمانيّ والحجر الأسود ويجعل الكعبة بينه وبين الشام، فقام رسول الله ﷺ وقد قعدت قريش في أَنْدِيَتِهم ينتظرون ما أبو جهل فاعِل، فلَمَّا سجد رسول الله ﷺ احتَمَل أبو جهل الحَجَر ثم أَقْبَل نحوه حتى إذا دَنَا منه رجع مُنْهَزِمًا مُنْتَقِعًا لَوْنُه مَرعُوبًا قد يَبِسَت يداه على الحَجَر، فقذف الحجر عن يَدِه وقام إليه رِجَال قريش وقالوا له: مَا لك يا أبا الحكم؟ قال: قُمْتُ إليه لأفعل به ما قُلْتُ لكم البارحة، فلَمَّا دَنَوْتُ منه عَرَض دونه فَحْلٌ مِنَ الإِبِل واللهِ ما رأيتُ مثل هامته ولا قَصَرَته[1] ولا أنيابه لِفَحْلٍ قَطُّ فَهَمَّ أن يأكلني، قال ابن عبّاس: فذُكِرَ لي أنّ رسول الله ﷺ قال: ذلك جبريل، لو دنا مِنه لأَخَذَه.

وقد سبَق الكلام على مسألتين تتعلقان بالملائكة الكرام وهما:

(١) أي أصلِ عُنُقِه، قاله زين الدِّين الرازيّ في مختار الصّحاح.

عِصمة الملائكة وتفضيل الأنبياء عليهم والكلام على التفاضل بينهم وبين البشر، فانظرهما في مواضِعهما.

والملائكة عليهم السلام **(لا أَكْلَ)** لَهُم أي لا يأكلون و**(لا شُرْبَ)** لهم أي ولا يشربون **(وَلا نَوْمَ لَهُمْ)** أي لا ينامون، وكذلك لا ينكحون ولا يتكاثرون ولا يتعبون.

فالله تعالَى لم يجعل فيهم شهوة الأكل والشرب ولم يجعل التعب يسري إليهم حتى يشعروا بالحاجة إلى النوم، فهم لا يحتاجون إلى النوم ولا ينامون. وقد نقل الإجماع على ذلك الفخر الرازي في تفسيره فقال: «اتَّفَقُوا على أنَّ الملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا يَنْكِحون، يُسَبِّحُون الليل والنهار لا يَفْتُرُون» اهـ. والدليل مِن القرءان على أنّهم لا يتعبون مِن عبادة الله قول الله عز وجلّ: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ أي أنّهم يشتغلون بالعبادة في الليل والنهار، لا يتعبون ولا يَمَلُّون مِن الطاعة.

ثُمّ إنّه يجب التحذير من كلامٍ كفريٍّ جرَى على لسان بعضِ مدَّعِي العِلم وهو قولهم عن الملائكة «أعوان الله» وقولهم عن البشر «أبناء الله»، وهذا كلّه كفر، فالله تعالى لا يحتاج إلى أحد ويحتاج إليه كلُّ أحد، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. فهناك فرق بين قول من قال عن الملائكة «أعوان الله» وبين قول المسلمين كما جاء في القرءان: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ والمراد بهم هنا الملائكة، ومعنى ذلك أنّ الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله، حتى رؤساء الملائكة لا يحيطون بعدد الملائكة، وإذا كان الملائكة لا يحصيهم عددًا إلا الله فكيف بجميع الخلق، فتبارَك الله ربّ العالَمين.

٢٢- تَفْصِيلُ عَشْرٍ مِنْهُمُ جِبْرِيلُ مِيْكَالُ إِسْرَافِيلُ عِزْرَائِيلُ
٢٣- مُنْكَرْ نَكِيْرٌ وَرَقِيبٌ وكذا عَتِيدُ مَالِكٌ ورِضْوانُ احْتَذى

(تَفْصِيلُ) ذِكرِ أسماء بعضهم **(عَشْرٍ مِنْهُمُ)** أي الملائكة هو كالآتي:

الأوّل (**جِبْرِيلُ**) عليه السلام، ويقال جبرائيل أيضًا، وهو رئيس الملائكة وأمين الوحي، وقيل معنى اسمه عبد الله. وقد جاء وصفُه في أكثر من حديث مرفوع، ففي صحيح ابن حِبّان من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قَالَ ﷺ: «**رَأَيْتُ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ السِّدْرَةِ، وَعَلَيْهِ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ، يَنْتَشِرُ مِنْ رِيشِهِ تَهَاوِيلُ الدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ**»، والتهاويل هو شيء يهول المنظر أي يُبْهِر الأنظار كالدُرّ والياقوت يسقط من أجنحته، قاله الإمام الهرريّ.

وقد جاء في الحديث المرفوع أيضا عن ابن شهاب أنّ رسول الله ﷺ سأل جبرئيل[1] أن يتراءى له في صورته، فقال جبرئيل: إنّك لن تطيق ذلك، فقال: «**إِنِّي أُحِبُّ أَنْ تَفْعَلَ**»، فخرج رسول اللّه ﷺ إلى المصلّى في ليلةٍ مُقْمِرةٍ، فأتاه جبرئيل في صورته، فغشي على رسول اللّه ﷺ حين رءاه، ثمّ أفاق وجبرئيل مسنده وواضع إحدى يديه على صدره والأخرى بين كتفيه، فقال رسول اللّه ﷺ: «**سُبْحَانَ اللَّهِ مَا كُنْتُ أَرَى أَنَّ شَيْئًا مِنَ الْخَلْقِ هَكَذَا**».

والثاني (**مِيكَالُ**) عليه السلام، ويقال ميكائيل أيضًا، وهو الملَك الموكل بالقَطر أي الْمَطر والنبات، وقد جاء ذِكرُه في القرءان الكريم: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾، وكذلك في حديث أنس بن مالك مرفوعا قال: «استأذن ملك القطر ربّه أن يزور النّبيّ ﷺ فأذن له وكان في يوم أمّ سلمة، فقال النّبيّ ﷺ: «**يَا أُمَّ سَلَمَةَ احْفَظِي عَلَيْنَا الْبَابَ لا يَدْخُلُ عَلَيْنَا أَحَدٌ**» قال:

(١) يقال: جِبرِيل بفتح الجيم وكسرها، وجَبرئِيل بفتح الجيم، وجَبرَئِل بفتح الجيم وحذف الياء، وبهذه الأوجه قُرئ في القراءات القرءانيّة العشر المتواترة الصحيحة، وجاء في الشاذّ مِن القراءات: جبرائِيل، وجَبرئِلُّ بفتح الجيم وتشديد اللام، والكُلّ مِن لُغات العرب.

بينما هي على الباب إذ جاء الحسين بن عليٍّ فاقتحم الباب فجعل النّبيّ ﷺ يلتزمه ويقبّله، فقال الملك: أتحبّه؟ قال: «**نَعَمْ**»، قال: إنّ أمّتك ستقتله، إن شئت أريتك المكان الّذي تقتله فيه. قَالَ: «**نَعَمْ**»، قال: فقبض قبضة من المكان الّذي قتل به فأراه فجاءه بسَهْلةٍ أو ترابٍ أحمر فأخذته أمّ سلمة فجعلته في ثوبها.

وفي هذا الحديث بيان شيء مِن القُوّة التي أُعطِيَها هذا الملَك الكريم التي بها قبض قبضة من أرض بعيدة عن الحجاز مئات الأميال.

والثالث (**إِسْرَافِيلُ**) عليه السلام وهو الملَك الذي خَلَقَهُ الله وقد أُلْقِمَ البُوق أي الصُّور مُنذ خُلِقَ، والصُّور هو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل النفخة الأولى عند نهاية الدنيا وقيام الساعة على الكافرين وموت كلّ حيّ من المخلوقات إلا مَن شاء الله، والنفخة الثانية عند البعث من القبور بعد أربعين عامًا مِن النفخة الأولى. وقد وَرَد أنّ جناحًا من أجنحة إسرافيل مثل كل أجنحة جبريل حَجْمًا، لكن لم يثبت هذا فلا نجزم به، وكذا لم يثبت أنّ إسرافيل يتضاءل من خشية الله إلى أن يصير بحجم العصفور.

ثمّ إنّ إسرافيل إذا نفخ في البوق فالصوت الذي يصدر من ذلك يُمِيت مَن بقي مِن أهل الأرض وهم الكفّار مِن الإنس والجِنّ، وصوت أقوى الطائرات الحربيّة اليوم كلا شيء بالنسبة للصوت الذي يكون في ذلك اليوم يوم تتقطع قلوب الكافرين في صدورهم فزَعًا مِمّا يسمعون. وقد سمّى الله تعالَى البوق في القرءان الكريم باسم الناقور أيضًا، قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾.

والرابع (**عِزْرَائِيلُ**) عليه السلام وهو مَلَك الموت الكريم، وهو الذي يقبض كل روح، ويشمل ذلك أرواح الشهداء ولو شهيد بحر وأرواح البهائم ولو براغيث، لكن لا يصح ما يقال: إنه يقبض روح نفسه،

والصواب أن الله تعالى يميته بقدرته فيكون عزرائيل ءاخر الموتى.

وإنّ مما ابتليت به الأمة في هذا الزمان رَجُلًا يدعى محمد ناصر الألباني قد مات وترك قبل وفاته طامّات وأباطيل وادعاءات ليس له فيها إلا الهوى مستندًا ومُتَمَسَّكًا، ومن جملة ذلك قوله في تعليق له على متن العقيدة الطحاوية عند قول الطحاوي «وَنُؤْمِن بِمَلَكِ الموت»: «وأما تسميته بعزرائيل كما هو الشائع بين الناس فلا أصل له وإنما هو من الإسرائيليات» اهـ.

وقد اشتهر هذا القول عن مُدَّعِي السلفية في هذا العصر وهم الوهابية المجسِّمة، وبذلك صرح شيخ الوهابية محمد العثيمين في كتابه المسمى «الشرح الْمُمْتِع» مُخالِفًا بذلك ابنَ كثير المجسِّم محبوبهم الذي قال في تفسيره ما نصه: «وقد سُمِّي في بعض الآثار بعزرائيل، وهو المشهور، قاله قتادة وغير واحد» اهـ، وقال نحو ذلك في كتاب البداية والنهاية أيضًا. ولم يقتصروا على مخالفتهم ابن كثير بل وخالفوا في ذلك متبوعهم الأوّل ابن تيمية، فإنه سئل: هل جميع الخلق حتى الملائكة يموتون؟ فأجاب: «الذي عليه أكثر الناس أن جميع الخلق يموتون حتى الملائكة وحتى عزرائيل ملك الموت. وروي في ذلك حديث مرفوع إلى النبي ﷺ. والمسلمون واليهود والنصارى متَّفِقون على إمكان ذلك وقدرة الله عليه»[1]

والعجب كيف أن الألباني يدّعي العلم والتبحُّر وأنه محدث، ناهيك عن أنه لا يحفظ حديثًا بالسند الكامل كما اعترف هو، ولعلَّه لم يَطَّلِع على النصوص الخالية من الإسرائيليات التي جاء فيها تسمية ملك الموت بعزرائيل، وها نحن ننقل بعضها هنا لنزيل الشُّبهة التي زرعها:

- قال السيوطي في شرحه على صحيح مسلم والسِّندي في حاشيته

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية الحراني (٤/ ٢٥٩) و(١٦/ ٣٤).

على سنن النسائي: «ورد في أثر عن وهب اسمه عزرائيل».

- وقال المناوي في فيض القدير: «وثبت أن عزرائيل عليه السلام ملك الموت».

- وقال الثعلبي في تفسيره: «قال الكلبي: بلغنا أن اسم ملك الموت عزرائيل».

- وقال أبو الشيخ بن حَيَّان الأصبهاني في العظمة: «عن أشعث قال: سأل إبراهيم صلى الله على نبينا وعليه وسلم تسليما ملك الموت عليه السلام واسمه عزرائيل».

- وقال الفخر الرازي في تفسيره: «وثبت بالخبر أن عزرائيل هو ملك الموت».

الخامس والسادس (**مُنْكَرْ**) و(**نَكِيْرٌ**) عليهما السلام وهما فَتّانا القبر أي اللّذان يمتحنان الناس في القبر بالسؤال، وقد سُمِّيا «مُنكَرًا ونَكِيرًا» لأن الذي يراهما يفزع منهما.

وتسميتهما مأخوذة: من الحديث ومن الإجماع، وقد منع هذه التسمية أكثر المعتزلة كما ذكره القرطبي في التذكرة.

فأما من الحديث المرفوع فقوله ﷺ: «**إِذَا قُبِرَ أَحَدُكُم أَوِ الإِنْسَانُ أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا الْمُنْكَرُ وَالآخَرِ النَّكِيرُ**»، الحديثَ.

وأما الإجماع: فقد قال الآمدي في «الأبكار» والإيجي في «المواقف» ما نصه: «وتسمية أحد الملكين منكرًا والآخر نكيرًا فمأخوذ من إجماع السلف مِن الأُمَّة وأخبار مَرْوِيّة عن النبي ﷺ» اهـ.

وقد ذكر بعضهم أن الملائكة الذين يأتون إلى الميّت في قبره للسؤال أربعة هم: منكر ونكير ونَاكُور ورُومَان، وحصرهم البعض في ثلاثة هم: منكر ونكير وأَنْكَر، وكلا القولين لا يصح ولا ثبوت له عند الحُفّاظ، والصحيح أن الذين يسألان الناس في قبورهم هما ملكان: مُنْكَرٌ ونَكِير لا غير، وقد صرح الحافظ السيوطي بتضعيف ما سوى

القول الصحيح.

وأمّا بالنسبة لعددهم فقد قال الحَلِيمي: «إنّ الأشبه أن يكون ملائكة السؤال جماعة كثيرة يسمى بعضهم منكرًا وبعضهم نكيرًا، فيبعث إلى كل ميّت اثنان منهم» اهـ.

مسألة مُهِمّة تتعلَّق بسؤال المَلَكَين في القبر

معلومٌ عند المسلمين أنّه لا يجوز أن يقال للكافر «ما دِينُك» مع العلم بأنه سيجيب أنا يهودي أو مجوسي أو نحو ذلك، فإن قيل: كيف يسأل الملكان الكافر في القبر «من ربك» وهما يعلمان أنه سيقول لا أدري؟ ثم كيف يقول هو لا أدري، مع أنه كان في الدنيا يقول كيت وكيت؟

قلنا: قبل الجواب على ذلك فهذه مقدمة فيها قاعدتان من القواعد التي أجمع عليها العلماء المحققون في أصول الدين، نذكرها هنا لما لها من تعلق بفهم ما يأتي:

- **القاعدة الأولى**: الرضى **بالكفر كفر**: سواء كان الكفر صدر منه أو من غيره، وقد فسر ابن عباس رضي الله عنهما الآية: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ بقوله: «لأنّ الرضى بالكفر كفر» وكلامه محمول على أن من رضي بكفر الذي يكفر بآيات الله ويستهزئ بها هو كافر كذلك، ونص الآية: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾، أمّا إن جلس الشخص مع مشاهدة الكفر وهو قادر على الإنكار لكنه لم يفعل ذلك ليس عن رضا بالكفر فإنه لا يكفر لكنه يأثم.

وأقر قاعدة «الرضا بالكفر كفر» المفسِّر الخازن الحنفي في تفسيره سورة يونس، والقرطبي في تفسير سورة النساء، والفخر الرازي في تفسير ءال عمران والتوبة ويونس وفي الزمر ونقل في هذا الأخير

الإجماع على هذه القاعدة: «**اجتمعت الأمة على أن الرضى بالكفر كفر**»، وأبو حيان في البحر المحيط في تفسير سورة النساء وقال في تفسير سورة يونس: «من كره الإيمان للكافر وأحب بقاءه على الكفر فهو كافر، لأن الرضى بالكفر كفر».

فليحذر مما هو في «فيض القدير» للمناويّ وشرح القسطلاني على البخاري من قول فاسِدٍ منسوب للماتريدي وفيه أنه قال: إنما يكون الرضى بالكفر كفرًا إذا رَضِي بكفر نفسه لا بكفر غيره، **فهذا كلام مردود** مخالف للصواب الذي كان عليه الإمام أبو منصور والإمام الأشعري، لأن الرضى بالكفر كفر سواء كان الكفر صدر منه أو من غيره، فلا يصح نسبة هذا الكلام إلى أبي منصور الماتريدي، بل الثابت عن أبي حنيفة وجمهور الحنفية أن الرضى بالكفر منه أو مِن غيره كفر، وعلى هذا جرى أبو بكر الجَصّاص الحنفيّ (ت **٣٧٠**هـ) في أحكام القرءان ومُلّا علي القاري الحنفيّ في شرح المشكاة وابن نجيم منهم في البحر الرائق وابن عابدين الفقيه في حاشيته والتفتازاني الماتريدي الحنفيّ في شرح العقائد والزبيدي الماتريدي في شرح الإحياء والشيخ الخرشي المالكي في شرحه على مختصر خليل وقال فيه: «ولا يقال: يمنع كون الرضى بالكفر كفرًا ضرب الجزية على الكفار»، وقد نص على تلك القاعدة كثير من الشافعية كالبغوي في التهذيب والقزويني في العزيز والنووي في الروضة ونقله عن المتولي والشمس الرملي في نهاية المحتاج والمليباري في فتح المعين والتقي الحِصْني في كفاية الأخيار وغيرهم.

وقال البدر الرشيد محمد بن إسماعيل الحنفي (ت ٧٦٨هـ) في رسالة في التحذير من الألفاظ المكَفِّرة ما نصه: «وقد عثرنا على رواية أبي حنيفة أن الرضى بكفر الغير كفر من غير تفصيل»[١] اهـ.

- **القاعدة الثانية: الأمر بالكفر كفر**: فلو أمر شخصٌ غيرَهُ بالكفر فإنه يكفر بذلك، قال الشمس السفيري في شرح البخاري: «والأمر بالكفر كفر»، وقال الزيلعي الحنفي في تبيين الحقائق: «والأمر بالكفر كفر»، وقال ابن عابدين في منحة الخالق على البحر الرائق: «وفي غرر المعاني لا خلاف بين مشايخنا أن الأمر بالكفر كفر»، وقال السعد

(١) قلت: والعجب كيف أن مدَّعي تحقيق هذا الكتاب الدكتور محمد بن عبد الرحمن الخميس يتجرأ وينقض هذا الكلام في حاشية رسالة البدر الرشيد لمجرد هوى نفسه، وكلام في الحاشية ما نصه: «**لا يجوز قبول هذه الرواية فإنها غير مبرهنة، فلا يجوز قبول أقوال الأئمة بالتقليد الأعمى بل لا بد من معرفة مخذها وعرضها على الكتاب والسنة فما وافقهما قُبِل وما خالفهما رُدَّ كما هو وصية هؤلاء الأئمة**»، وقد يقول قائل: لا عجب من أن يقول الدكتور كلامًا كالذي قاله لأنه هو من هو، هو صاحب كتاب سماه «**حوار مع أشعري**» وكتاب سماه «**اعتقاد الأئمة الأربعة**» قد صدره بنقل كلام ابن تيمية الذي ينسبه زورًا إلى الإمام أحمد: «**نحن نؤمن بأن الله على العرش كيف شاء وكما شاء**». ولهذا الدكتور كتاب أيضًا سماه «**شرح اعتقاد أهل السنة أصحاب الحديث**» يزعم فيه أن أبا الحسن الأشعري كان على عقيدة أن الله في السماء فوق العرش، كما أنه تهجم على الأشاعرة فقال: هذه عقيدة أهل السنة قاطبة وعقيدة الأشعري كما ترى ومع ذلك كله خالفت الأشعرية إمامهم خاصة وسائر أئمة السنة عامة، وهذا من عجائبهم وتناقضهم لأنهم إما على التفويض الذي هو جهل وتجهيل، وإما على التأويل الذي هو تحريف وتعطيل»، فاتضح من كل ذلك أيها القارئ أن هذا الدكتور هو من أتباع المجسمة ويعتمد على المطالعة في كتبهم بل وحري بالشخص إذا أراد اقتناء رسالة في التحذير من الألفاظ المكفرة للبدر الرشيد أن لا يقتني النسخة التي عليها تعليقات هذا الدكتور، فإن المجسمة يدأبون ليل نهار لنشر عقيدتهم. على أنَّ هذا الدكتور لم يكتفِ بنشر عقيدة التجسيم في عدة كتب ألفها لذلك بل قد ألَّف كتابًا سماه «**الذكر الجماعي بين الاتّباع والابتداع**» ومنع فيه الذكر الجماعي وزعم أنه بدعة في الدين ممنوعة ولنا في الرد على ذلك وإثبات جواز الذكر الجماعي رسالة ننشرها قريبًا إن شاء الله تعالى.

التفتازاني في شرح العقائد: «وكذا لو أمر رجُلًا أن يكفر بالله أو عزم على أن يأمره بكفر - أي فإنه يكفر - وكذا لو أفتى لامرأة بالكفر لِتَبِينَ من زوجها» ونقل ذلك عنه الحطاب المالكي في شرح مختصر خليل وأقره على ذلك.

ويدخل في ذلك الذي يقول للكافر[1] «ما دينك؟» حتى يقول الكافر أنا كافر، نصراني أو يهودي أو مجوسي، فهذا الذي سأله يكفر لأنه طلب منه أن ينطق بالكفر، لكن إذا كان الكافر رجع عن كفره، غَيَّرَ عقيدتَه تلك، فقال له شخص: ماذا كنت تقول؟، فقال: أنا كنت أقول كذا من الكفر، ويكون هو ترك ذلك الاعتقاد الفاسد، فإن هذا الذي سأله لا يكفر، لأنه هذا المسؤول يقول: «كنت فيما مضى»، معناه أنا الآن لا أعتقد ذاك الاعتقاد الكفري، إنما كنت فيما مضى، فلا يكفر هذا الذي سأله.

وبناءً على ما مَرَّ، ومن باب الجواب على ما استشكل عند بعض الناس في قضية سؤال الملكين للكافر في القبر، نقول:

الملكان الكريمان منكر ونكير كسائر الملائكة الكرام لا يصدر منهم كفر ولا معصية، ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾، وقوله أيضا: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾، ثم منكر ونكير حالُهما أنهما يعرفان أن هذا الكافر الذي يسألانه في القبر تلك الساعة لا يعتقد ما كان يقوله في الدنيا من تكذيب سيدنا محمد لأنه ينكشف له الأمر ويعلم أن الذي كان عليه باطل، إذ يجد عذاب القبر وضيقه ويرى الملكين اللذين منظرهما غريب فيطير عنه الاعتقاد الفاسد الذي كان عليه ويعرف أنه كان على باطل، فعند ذلك يسأله

(١) أي السائل يعرف أن هذا الشخص كافر.

الملكان السؤال ولا يتجرأ هو أن يقول: «أنا كنت مسلمًا مؤمِنًا بالله ورسوله» ولا يتجرأ أن يقول: «الإسلام باطل، محمد كاذب» لا يتجرأ، فيسألانه في القبر: ما دينك؟، **وهما يعلمان أنه يجيب عن الذي كان يعتقده قبل هذا والآن لا يعتقده، بهذا يزول الإشكال، لأنه يجيب مُخْبِرًا عمّا كان يعتقده قبل الموت والآن لا يعتقده حَقًّا.**

وقال بعض العلماء[1]: هو يقول: «لا أدري»، وفي رواية عند أحمد وأبي داود «فيقول: هاه هاه، لا أدري»، ومع ذلك هما يسألانه، لأنهما يعرفان أنه لا يقولها عن اعتقاد إنما يقولها عن دَهشة وسبق لسان من شدة الفزع أي مِن غير ضبط لسانه يقولها ولا يعتقد ذلك، والله تعالى أعلم.

(وَ)السادس في ترتيب الناظم (**رَقِيبٌ**) عليه السلام وهو كاتِب الحسنات على قول بعض العلماء (**وكذا**) مَعهُ الثامن (**عَتِيد**) عليه السلام كاتب سيّئات العباد في صحفهم جريًا على نفس القول عند بعض العلماء، أو أنّ أحدهما يكتب الحسنات والآخَر يكتب السيّئات من دون تعيين مَن يكون منهما لهذه ومَن للأخرى. والذي عن يمين العبد هو الذي يكتُبُ الحسناتِ والذي عن شِماله يكتبُ السيئات، والدليل على وجودهما لهذه الوظيفة قول الله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾.

والتاسع (**مَالِكٌ**) عليه السلام وهو خازن النّار ورئيس الملائكة الموكلين بتعذيب الكفّار في النار، وهو مِن المستَثنَين مِن الموت على قول بعض العلماء، فيدخل تحت قول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾. وقد أثبت الله تعالَى وجوده في القرءان الكريم فقال حكاية عن حال الكافرين في

(١) انظر: شرح المشكاة للطيبي: الحديث (١٣١).

النّار: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾، ومع مالِكٍ عليه السلام أعوانٌ هم رؤساءُ على الملائكة الذين يعذِّبون الكفّار في النار، وهؤلاء الرؤساء هم الزبانية وعِدّتهم تسعة عشر ملَكًا، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾﴾. قال البيهقي في «البعث والنُّشور»: «وأكثر أهل التفسير على أنها تسعة عشر مَلَكًا مع مالك خازن النار» اهـ.

وقد جاء في الحديث مرفوعًا: «**تَلَقَّتْنِي الْمَلَائِكَةُ حِينَ دَخَلْتُ السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَلَمْ يَلْقَنِي مَلَكٌ إِلَّا ضَاحِكًا مُسْتَبْشِرًا يَقُولُ خَيْرًا وَيَدْعُو بِهِ حَتَّى لَقِيَنِي مَلَكٌ مِنْ الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ مِثْلَ مَا قَالُوا، وَدَعَا بِمِثْلِ مَا دَعَوْا بِهِ، إِلَّا أنه لم يضحك، ولم أر منه مِنَ الْبِشْرِ مِثْلَ مَا رَأَيْتُ مِنْ غَيْرِهِ، فَقُلْتُ لِجِبْرِيلَ: يَا جِبْرِيلُ مَنْ هَذَا الْمَلَكُ الَّذِي قَالَ لِي كَمَا قَالَتْ الْمَلَائِكَةُ وَلَمْ يَضْحَكْ وَلَمْ أَرَ مِنْهُ مِنَ الْبِشْرِ مِثْلَ الَّذِي رأيت من غيره؟**» **قَالَ**: «**فَقَالَ لِي جِبْرِيلُ: أَمَا إِنَّهُ لَوْ ضَحِكَ إِلَى أَحَدٍ كَانَ قَبْلَكَ أَوْ كَانَ ضَاحِكًا إِلَى أَحَدٍ بَعْدَكَ، لَضَحِكَ إِلَيْكَ، وَلَكِنَّهُ لَا يَضْحَكُ، هَذَا مَالِكٌ صَاحِبُ النّارِ**».

(وَ)العاشر في ترتيب الناظم (**رِضْوانُ**) عليه السلام (**احْتَذَى**) أي داخِل في جُملة الملائكة، ورِضوان هو خازن الجنّة دار السلام والنعيم، وهو مِن المستَثنَين مِن الموت على قول بعض العلماء. وتحت رضوان ملائكة خُزّان مُوَظَّفون لوظائف في الجنّة كما أنّ للنّار الزبانية التسعة عشر ورئيسهم مالِكٌ عليهم السلام. وقد ذكر الله تعالَى خَزَنَة الجنّة في الكتاب العزيز فقال: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

وهذا الملَك الكريم رِضوان عليه السلام لا يعلم كلّ أنواع النعيم التي في الجنّة، فثَمّة نعيم خاصّ لا يعلمه أحَدٌ إلا الله، قال ﷺ: «**قال**

الله تعالى: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ» رواه البخاري في الصحيح وغيرُه.

تنبيه: ليُعلَم أنّ مسَبَّة واحِد مِن الملائكة كُفر وخروج عن دين الإسلام، والدليل على ذلك من القرءان: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾. وقال القرافي من المالكية: «اعلم أنه يجب على كل مكلف تعظيم الأنبياء بأَسْرِهم، وكذلك الملائكة، وَمَن نال من أعراضهم شيئًا فقد كفر، سواءٌ كان بالتعريض أو بالتصريح» اهـ. نقله الحافظ السيوطي في «الْحَبَائِك فِي أَخبَارِ الْمَلَائِكِ»[1].

الصُّحُفُ والكُتُبُ الْمُنَزَّلَةُ

٢٤- أَرْبَعَةٌ مِنْ كُتُبٍ تَفْصِيلُها تَوْرَاةُ مُوسى بالْهُدى تَنْزِيلُها
٢٥- زَبُورُ دَاوُدَ وَإِنْجِيلٌ علَى عِيسَى وَفُرْقَانٌ على خَيْرِ الْمَلا
٢٦- وَصُحُفُ الخَلِيلِ وَالكَلِيمِ فِيهَا كَلامُ الْحَكَمِ الْعَلِيمِ

لقد أنزل الله تعالَى على أنبيائه كُتُبًا وصُحُفًا في المواعظ والحِكَم وبيان الشرائع والأحكام وقد جاءت كلُّها بدين الإسلام والدعوة إلى الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخِرة، وبشَّرَ جميعُ ما نَزَل قبل القرءان بظهور نبيّ ءاخر الزمان محمَّد عليه الصلاة والسلام، وعِدّة هذه الكُتُب مائة وأربعة، كما جاء ذلك في حديث أبي ذَرٍّ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَمْ كِتَابًا أَنْزَلَهُ؟ قَالَ: «**مِائَةُ كِتَابٍ وَأَرْبَعَةُ كُتُبٍ: أُنْزِلَ عَلَى شِيثٍ خَمْسُونَ صَحِيفَةً وَأُنْزِلَ عَلَى أَخْنُوخَ ثَلَاثُونَ صَحِيفَةً وَأُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ**

(١) الحبائك في أخبار الملائك، السيوطي، (ص٢٥٥).

عَشْرُ صَحَائِفَ وَأُنْزِلَ عَلَى مُوسَى قَبْلَ التَّوْرَاةِ عَشْرُ صَحَائِفَ وَأُنْزِلَ التَّوْرَاة وَالْإِنْجِيل وَالزَّبُور وَالْفرْقَان»، قلتُ: يَا رَسُول الله مَا كَانَت صحف إِبْرَاهِيمَ؟ قَالَ: «**كَانَتْ أَمْثَالا كُلُّهَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمُسَلَّطُ الْمُبْتَلَى الْمَغْرُورُ إِنِّي لَمْ أَبْعَثْكَ لِتَجْمَعَ الدُّنْيَا بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ وَلَكِنِّي بَعَثْتُكَ لِتَرُدَّ عني دَعْوَة الْمَظْلُوم فَإِنِّي لَا أردُّهَا وَإِن كَانَتْ مِنْ كَافِرٍ وَعَلَى الْعَاقِلِ مَا لَمْ يَكُنْ مَغْلُوبًا عَلَى عَقْلِهِ أَنْ تَكُونَ لَهُ سَاعَاتٌ سَاعَةٌ يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ وَسَاعَةٌ يُحَاسِبُ فِيهَا نَفْسَهُ وَسَاعَةٌ يَتَفَكَّرُ فِيهَا فِي صُنْعِ الله وَسَاعَةٌ يَخْلُو فِيهَا لِحَاجَتِهِ فِي الْمَطْعَم وَالْمَشْرَبِ وَعَلَى الْعَاقِلِ أَنْ لَا يَكُونَ ظَاعِنًا إِلا لِثَلاثٍ تَزَوُّدٍ لِمَعَادٍ أَوْ مَرَمَّةٍ لِمَعَاشٍ أَوْ لَذَّةٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّم وَعَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ بَصِيرًا بِزَمَانِهِ مُقْبِلا عَلَى شَأْنِهِ حَافِظًا لِلِسَانِهِ وَمَنْ حَسَبَ كَلامَهُ مِنْ عَمَلِهِ قَلَّ كَلامُهُ إِلا فِيمَا يَعْنِيهِ»**، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَا كَانَتْ صُحُفُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام؟ قَالَ: «**كَانَتْ عِبَرًا كُلُّهَا عَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالْمَوْتِ ثمَّ هُوَ يَفْرَحُ، عَجِبْتُ لِمَنْ أَيقَن بالنَّار ثمَّ هُوَ يضْحك عَجِبتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالْقَدَرِ ثُمَّ هُوَ يَنْصَبُ عَجِبْتُ لِمَنْ رَأَى الدُّنْيَا وَتَقَلُّبَهَا بِأَهْلِهَا ثُمَّ اطْمَأَنَّ إِلَيْهَا عَجِبتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالْحِسَابِ غَدًا ثُمَّ لَا يَعْمَلُ»**.

ثُمَّ (**أَرْبَعَةٌ مِنْ كُتُبٍ**) نَزَلَت وهي الأشهر و(**تَفْصِيلُها**) أي هذه الأربعة (**تَوْرَاةُ مُوسَى**) عليه الصلاة والسلام وقد نَزَلَت باللغة العِبرانيّة وكان (**بالْهُدى تَنْزِيلُهَا**) أي لهداية الناس من الظلمات إلى نُور الحقّ.

وثانيها في ترتيب النظم (**زَبُور**) بفتح الزاي وضمّها وهي كِتاب نبيّ الله (**دَاوُدَ**) عليه الصلاة والسلام وقد نَزلت بالعِبرانيّة أيضًا.

(**وَ**)ثالِثُها في ترتيب النظم (**إِنْجِيلٌ**) وهو الذي نزَل (**علَى**) رسول الله (**عِيسَى**) المسيح عليه الصلاة والسلام وقد نزل الإنجيل بالسُّريانية.

(**وَ**)رابع الكُتب في ترتيب النظم وءاخِرُها نُزولًا بين جميع الكتب السماوية وسيّدُها وأفضَلها هو (**فُرْقَانٌ**) يعني القرءان وقد سُمِّي الفرقان بذلك لأنّ به يفرق الناس بين الحق والباطل، وهو الكتاب الذي أنزله

الله (**على خَيْرِ الْمَلا**) أي الملأ وهم الناس وهو سيّد الأنبياء وخاتمُهُم محمَّد عليه الصلاة والسلام.

(**وَ**)كذلك (**صُحُفُ**) إبراهيم (**الـخَـلِيلِ**) وعِدَّتُها عشرة، وإبراهيم عليه السلام هو خليل الرحمن ومعناه الذي بلغ الغاية بعد سيدنا محمد في الانقطاع إلى الله بالعبادة، ومقام الخُلّة مقامٌ عالٍ جِدًّا لم يصل إليه إلا سيدنا محمد وسيّدنا إبراهيم عليهما السلام.

(**وَ**)كذلك أنزَلَ الله على سيّدنا مُوسَى (**الكَلِيم**) عشر صُحُف قبل التوراة، قال تعالَى: ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾، وسُمِّي الكليمَ لأنّ الله تعالَى أسْمَعَهُ كلامَه الذاتيّ الذي ليس حرفًا ولا صوتًا، وهذا على تفسير الأشاعرة، أما الماتريدية فقالوا: موسى لم يَسْمَعْ كلام الله الأزليَّ وإنَّما سمع صوتًا مخلُوقًا من الشجرة - بِغَيْرِ واسِطَةِ مَلَكٍ أو كِتَابٍ - وهذا الصوت الحادِثُ عبارة عن كلام الله ففَهِم منه موسى ما فَهِم، وقد قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾.

وجميع الكتب السماوية المائة والأربعة (**فِيهَا كَلامُ**) أي اللفظ المنزَّل الدالّ على الكلام الذاتيّ الأزليّ لله (**الْحَكَم**) أي الحاكم الذي لا رَادَّ لِحُكْمِه وهو (**الْعَلِيمْ**) أي المتَّصِف بالعِلْمِ الأَزليّ الذي لا يَعْتَرِيه تَغَيُّر.

الإيمان بما جاء عن رسول الله ﷺ

٢٧- وَكُـلُّ مَـا أَتَـى بِـهِ الـرَّسُـولُ فَـحَـقُّـهُ الـتَّـسْـلِـيـمُ وَالْـقَـبُـولُ

(وَكُـلُّ مَا أَتَى بِهِ الـرَّسُولُ) محمَّد ﷺ مِن أحكام الدِّين والإخبار عمّا حَدَث وما يحدث في زمانه وفيما بعده وفي الآخِرة **(فَـحَـقُّـهُ)** أي الواجب علينا واللازم شرعًا **(الـتَّـسْـلِـيـمُ)** أي الاعتراف له والإقرار بصِحَّة ما جاء به **(وَالْقَبُولُ)** أي التصديق به، وهو بفتح القاف وضمِّها، وقد دلّ على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾.

وقد بيَّنَّا من قبلُ أن الرسول عليه الصلاة والسلام مستحيٌ عليه أن يُخطئ في التشريع والاجتهاد، وقد بيّنا الحُكم في ذلك. وقد شذّ في هذه المسألة الدكتور يوسف القرضاوي المصري، حيث قال في حلقة تلفزيونية على قناة الجزيرة بتاريخ ١٢/٩/١٩٩٩م: «إنّ النبي ﷺ كان يجتهد أحيانًا ويخطئ في اجتهاده»، واستدلّ القرضاوي بحديث أنّ شخصًا سأل النبي عليه الصلاة والسلام عن الشهادة فقال ﷺ: «يُغْفَرُ لِلشَّهِيد كُلُّ ذَنْبٍ»، ثم بعد أنْ تَوَلَّى الرجل ناداه فقال له: «إِلَّا الدَّيْن»، فاعتبر القرضاوي أنه أخطأ بالأولى ونَبَّهَه جِبريل إلى ذلك فاستَثْنى.

ويكفي في الردّ عليه قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾، وأما ما ادّعاه القرضاوي فالجواب عليه أنّ الكلام الأول كان من النبيّ بوحي والثاني بوحي أيضًا، وليس ذلك عن خطأٍ في الاجتهاد كما ادَّعَى القرضاوي. وكذلك يقال في أخذه ﷺ الفِداء مِن أُسارَى بدر فإنه كان بتخيير من جبريل بين قتل الكفار وبين الفِداء على حسب حُكم الله تعالَى، وهذه القِصة رواها ابن حبان على هذا

الوجه، فلا حُجّة لمن ادَّعَوا أنَّ الخطأَ يجوز عليه في اجتهاده ﷺ.

وليست هذه الطامّة الوحيدة لمفتي الـ«نيتو» (NATO) الدكتور القرضاوي، ولو لم يكن له غيرها لكَفَى، ولكنّه شذّ في مسائل أخرى أيضًا، ومنها:

١- نِسبتُه الكَذِبَ إلى الله تعالَى.

٢- ذمُّه الفِقْهَ في الدِّين.

٣- تكفيره للمسلمين الذين يحكمون بالقانون في البلاد العربية.

٤- ذمُّه الوقوف لرسول الله ﷺ مع استحسانه الوقوف لجنازة اليهودي.

٥- امتداحُهُ الصهاينة مع استهزائه بالله.

٦- إباحتُهُ بيع الخمر ولحم الخنزير وأكله.

٧- ذمُّه للأدلة العقلية.

٨- تكفيره مَن يخاف غير الله ونسبته إيّاه للشرك.

٩- اعتبارُهُ مَن طَلَّق زوجته ثلاثًا بلفظ واحد منحرفًا عن الإسلام.

١٠- تكفيرُهُ الزاهد في الدُّنيا ويعتبر الزهد أمرًا مذمومًا.

١١- تكفيره من لم يدفع الزكاة إطلاقًا.

١٢- زَعْمُه أن الإسلام قد ذمّ الفقر مطلقًا.

١٣- زَعْمُه أنّ الرسول شَوّش على وحدة الأمة.

١٤- إنكارُه نُبُوّة ءادم عليه السلام.

١٥- زَعْمُه أنّ التبرك بثار الصالحين وبقبورهم بعد مماتهم أوسع أبواب الشرك بالله.

الإيمان باليوم الآخِر

٢٨- إِيـمَـانُـنـا بِـيَـوْمٍ آخِرٍ وَجَـبْ وَكُـلِّ مَـا كَـانَ بِـهِ مِـنَ الْـعَـجَـبْ

(**إِيـمَـانُـنا بِـيَـوْمٍ آخِرٍ**) أي بيوم القيامة (**وَجَب**) علَينا بلا رَيْب، وتُنقَل حركة الهمزة في «ءاخِر» إلى الساكن قَبلَها وهو النون مِن التنوين في «بِيَوم» مُراعاةً للوزن، وقد رمزتُ للمدِّ مع النقل هكذا «آ» خلاف ما كتبتُه في كلّ موضِع كان فيه مَدُّ البدل في المفتوح هكذا «ءا».

والإيمان بيوم القيامة أمْرٌ أوجَبَهُ الشارع علينا بنصّ الكتاب والحديث الثابت وإجماع الأمة، ومعناه التصديق بأنّ لأيّام الدنيا ءاخِرًا وأنها منقضِية، وهذا العالم مُنْقَضٍ يومًا ما، ففي الاعتراف بانتفائه اعترافٌ بابتِدائه إذ القديم لا يَفْنَى ولا يَتَغَيَّر، قاله الحَلِيمي.

قلتُ: فيَدخُل في ذلك الإيمان بأنّ الله تعالى يُعِيد عباده بعد أن يَفْنَوا إلى حياة باقية لا موت بعدها لِيُجازيهم على أعمالهم.

وقد جاء إيجاب الإيمان باليوم الآخِر كثيرًا في النصوص الشرعية، فأمّا من القرءان فكقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾، وغيرها الكثير، وأمّا مِن الحديث فكحديث جبريل في صحيح مسلم: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**»، فثبتت تسمية يوم القيامة باليوم الآخر في النصوص الشرعية.

وقد أخبرنا الله تعالى في القرءان الكريم عن حال الكافرين الذين كانوا يستهزئون بأمور الآخِرة ويُكَذِّبون بالبعث والنُّشور، فقال عزّ وجلّ حكاية عن قولهم: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُمْ

﴿تُخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾، وقد أوعدهم الله تعالَى على ذلك العذاب في الدنيا على أيدي المؤمنين فقال جلّ جلاله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية، وأَوْعَدَهم على ذلك العذابَ الأليم في الآخرة فقال: ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾، وقال أيضًا: ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾.

(وَ)يجب الإيمان بأنّ (**كُلِّ مَا كَانَ**) أي يكون (**بِهِ**) أي في ذلك اليوم (**مِنَ الْعَجَبْ**) أي من عجائب المواقف والأحداث مِمّا أخبرت نصوص الشرع الثابتة عنها ومِن ذلك: البعثُ والحشرُ والحسابُ والثوابُ والعذابُ والميزانُ والصراطُ والحوضُ والشفاعةُ.

وقد عَبَّر الناظم رحمه الله تعالى بلفظ «العَجَب» أي ما تَعجَّب منه النُّفوس، ويوم القيامة مليء بأمورٍ كذلك، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾. وقد ورَد ذِكر شيء مِن أهوال يوم القيامة في النُّصوص الشرعية، منها:

- النَّفخ في الصُّور وصياح إسرافيل بالناس إذا خرَجوا من القبور: «هَلُمَّ إلى حساب الرحمن».

- وتكوير الشمس وتساقُط النجوم واشتعال البحار نارًا وزلزلة الأرض وتبديلها.

- وحشر البهائم جميعها، فيُقْتَصّ من بعضها لبعض ثم تَصِير ترابًا.

- وحشر الناس وهم يومئذٍ على ثلاثة أفواج: فوج طاعمون كاسون راكبون على نوق رحائلها من ذهب وهم الأتقياء، وفوج حفاة عراة وهم المسلمون من أهل الكبائر، وفوج تسحبهم الملائكة على وجوههم.

- وحَشْر المتكَبِّرين بِصُوَر ءادَمِيّين لكن كأمثال النمل الأحمر الصغير في الحجم، فيطأهم الناس بأقدامهم ولا يموتون من الدَّوس بل يُعَذَّبون ويُهانون.

- ودُنُوّ الشمس يوم القيامة من العباد في الموقف حتى تكون منهم قدر ميل مَسَافيّ.

- وحشر بعض الناس في رشحه أي مُحيطًا به عَرَقُه مِن كل الجوانب بالِغًا أنصاف أُذُنَيه ومِنهم مَن يلجمه العرق إلى ما فوق الرأس وهو الكافر.

- وسؤال العبد عن أربع: عمره فيما أفناه، وجسده فيما أبلاه، ومالِه مِن أين اكتَسَبه وفيمَ أنفَقَه، وعن عِلمِه ماذا عَمِل به.

- ووَزْن أعمال العباد: فمن رجحت حسناته على سيئاته فهو من أهل النجاة، ومن تساوت حسناته مع سيئاته فهو من أهل النجاة أيضًا ولكنه أقل رتبة من الطبقة الأولى وأرفع من الثالثة، ومن رجحت سيئاته على حسناته فهو تحت مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له. وأما الكافر فترجح كَفّة سيئاته لا غير لأنه لا حَسَناتِ له في الآخرة.

- والمجيء بقطعة مِن جهنَّم إلى أرض المحشر لها سبعون ألف زِمام ويحمل كلَّ زِمام سبعون ألف ملك، فتكون هذه القطعة محمولة مِن قِبَل أربعة ءالاف وتسعمائة ألفِ ألْفِ مَلَك **(أي أربعة مليارات وتسعمائة مليون ملَك)** فيرتعب الكافر من ذلك المنظر رعبًا شديدًا ولو كان هناك موت لماتَ من هول ذلك المنظر ولكنّه لا موت بعد البعث.

ثُمّ إنّه يجب الحَذَر والتحذير مِمّا جاء في بعض كتب التفسير والرِّقاق مِن قولهم: «إِنَّ جَهَنَّمَ تَزْفِرُ زَفْرَةً لَا يَبْقَى مَلَكٌ وَلَا نَبِيٌّ إِلَّا خَرَّ تَرْعَدُ فَرَائِصُهُ حَتَّى إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَيَجْثُو عَلَى رُكْبَتَيْهِ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ إِنِّي لَا أَسْأَلُكَ الْيَوْمَ إِلَّا نَفْسِي»، فهذا كلام لا أصل له، فالأنبياء وصالح المؤمنين لا يكونون في عذاب أو نكد ولا يصيبهم الفزع في القبر ولا

في الآخرة، وقد أخبر الله تعالى بذلك وهو أصدق القائلين فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾، وقال أيضًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.

ويجب الحذر والتحذير أيضًا مِمّا هو في نسخة صحيح ابن حِبّان المطبوعة اليوم فإنَّ فيها حديثًا يتضمن لفظًا لا شكّ أنه مكذوب على رسول الله ﷺ وفيه أنّ ءادم ونوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى كلٌّ منهم يقول: «أَخَافُ أَنْ يَطْرَحَنِي فِي النَّارِ»[1]، فهذا الكلام مكذوب على النبيّ ومدسوس في صحيح ابن حِبّان ليس منه في الأصل، لأنه يستحيل على الرسول أن يقول كلامًا كهذا عن أنبياء الله ورُسُله الكِرام كالخمسة المذكورين الذين منهم مِن أُولِي العزم أو عن غيرهم من الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم أجمعين،على أنَّه يستحيل شرعًا أن يعذّب الله الأنبياء لأنّه قد أخبر في القرءان كما سبق أنْ ذكرنا أنّ جميع الأتقياء ناجُون لا يصيبهم فزع ولا خوف ولا نكد ولا همّ ولا غمّ يوم القيامة فما بعده فكيف بالأنبياء ﷺ؟! والذي نعتقده في الحافظ ابن حِبّان أنه بريء من هذا الدسّ الكفريّ.

والعجب العجاب كيف أن شيخ الوهابية الْمُتَمَحْدِث محمد ناصر الألباني حكم على هذا الحديث الوارد بهذا اللفظ الموضوع المكذوب أنه صحيح، ولا يغرنّك وجوده في مسند البزار ومسند إسحاق بن راهويه وبعض كُتُب الرِّقاق فتنبَّه فإنّ اعتقادًا واحدًا يعتقده المرء مضادًّا لدين الله من نحو الذي حذّرنا منه كَفِيلٌ بأن يقذف بصاحبه عن الصراط إلى جهنم خالدًا فيها إلى ما نهاية له، فاحرص على عَرْض ما تطالعه

(١) وهذا هو لفظ الرواية التي في نسخة ابنِ حِبّان المحرَّفة بحروفها.

في الكتب على أهل العلم الثقات وأخذها بالتلقي عنهم قبل أن تُدخِل إلى قلبك من الاعتقاد ما يُفسِد عليك إيمانَك ويخرجك من النور والإيمان إلى الظلام والكفر من حيث لا تشعر ولا تدري بحالك إلا وقد أتاك الموت، فحسبنا الله ونعم الوكيل.

خاتِمة في سِيرة رسول الله ﷺ

٢٩- خَاتِمَةٌ فِي ذِكْرِ بَاقِي الْوَاجِبِ مِمَّا عَلَى مُكَلَّفٍ مِنْ وَاجِبِ

وهذه (**خَاتِمَةٌ**) للنَّظم مذكور فيها ما يتعلَّق بالمقصود من حيث التكميل، معقودة (**فِي ذِكْرِ**) أي بيان (**بَاقِي**) أي ما بَقِيَ مِمّا لم يذكره بعدُ مِن (**الْوَاجِبِ مِمَّا**) يَجِبُ معرفَتُه (**عَلَى**) كُلِّ (**مُكَلَّفٍ مِنْ وَاجِبِ**) شرعيّ، ولكن ليس كلّ ما ذكره الناظم مِمّا يأتي هو واجب على كلّ فردٍ مِن المكَلَّفِين معرِفَتُه عَيْنًا، فيكفي مثلًا في نَسَبِ النبيّ الشريف معرِفَةُ أنّه محمَّد بن عبد الله العربيّ.

٣٠- نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ قَدْ أُرْسِلا لِلْعَالَمِينَ رَحْمَةً وَفُضِّلا

اسم النبيّ محمَّد ﷺ

وَ(**نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ**) ﷺ هو نبيّ ءاخِر أُمّة جعَلها الله في الناس، وقد جاء في الحديث عن أُبَيّ بن كعب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يُعَلِّمُنا إذا أصبح أحدنا أن يقول: «**أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ، وَكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ، وَدِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ**» الحديثَ، فهو ﷺ نبيّ نفسِه ونَبِيّ أُمَّتِه.

وأمّا تسمِيةُ النَبِيّ ﷺ بمُحَمَّد وهو أشهر أسمائه وأشرفُها فهو لإنبائه

عن كمال الحَمْدِ الْمُنْبِئ عن كماله في الخلق. قال المناويّ: «وقد سُمِّي به، إما لكثرة خصالِه الحميدة وإما لأنه تعالى وملائكته حَمِدُوه حَمْدًا كثيرًا بالغًا غاية الكمال» اهـ، وقال القاضي عياض: «وقد حَمَى الله هذا الاسم فلم يَتَسَمَّ به أَحَدٌ مِمَّنِ ادعى النبوة في الإسلام مع كَثْرَتِهم، ولم يتسمّ به أَحَدٌ قَبْلَه، وإنما سَمَّت العَرَبُ مُحَمَّدًا قُرْبَ ميلاده لما أخبر الأحبار والكُهّان أنَّ نبيًا يُبْعَث في ذلك الزمان يُسَمَّى مُحَمَّدًا فَرَجَوا أن يَكُونوا هم فسَمَّوا أبناءَهم بذلك، قال: وهم سِتّة» اهـ.

وقد جمع الحافظ ابن حجر أسماء من تَسَمَّوا مُحَمَّدًا في جزء مُفْرَد فبلغوا نحو عِشرين، لكن مَعَ تَكَرُّرٍ في بعضهم ووَهم في بعض، فتَتَبَّعها وضبَطها في خمسة عشر، وهم:

١- محمد بن عَدِيّ بن ربيعة التَّمِيمِيّ، وهو أشهرهم.

٢- محمد بن يزيد بن عمرو بن ربيعة التَّمِيمِيّ.

٣- محمد بن أسامة بن مالك التَّمِيمِيّ.

٤- محمد بن سفيان بن مُجاشِع التَّمِيمِيّ.

٥- محمد بن أُحَيْحة بن الجُلاح، وهو أول من تسمى في الجاهلية محمدًا، ذكره عبدان المروزي.

٦- محمد بن البراء البكري، وضبطه البلاذري: مُحَمَّد بْن بَرّ.

٧- ومحمد بن اليَحْمد الأَزْدي.

٨- ومحمد بن خَولي الهَمْداني.

٩- محمد بن حِرْماز بن مالك اليَعْمُرِي.

١٠- ومحمد بن حُمْران بن أبي حمران ربيعة بن مالك الجعفي.

١١- ومحمد بن خزاعي بن علقمة بن حِرابة السُّلَمي من بني ذَكْوان.

١٢- محمد بن عمرو بن مغفل.

١٣- محمد بن الحارث بن حُدَيْج بن حُوَيْص، ذكره أبو حاتم

السِّجِسْتاني في كتاب المعَمَّرِين.

١٤- ومحمَّد الفُقَيْمِيّ، ذكره ابن سعد.

١٥- وَمُحَمَّد الأُسَيْدِيّ، ذكره ابن سعد أيضًا.

وللنبيّ محمَّد ﷺ أسماء كثيرة عَظِيمة غير محمَّد وأحمَد، ومِن أشهرها: المختار والمصطفى والشفيع والمشفَّع والصادق والْمَصْدُوق.

وقد جَمع القاضي أبو بكر بن العربي المالكيّ في شرحه على الترمذي سبعة وستين اسمًا للنبيّ صلَّى عليه وسلَّم، وأوصلها بعضهم إلى تسعة وتسعين موافَقَةً لعدد الأسماء الحسنى الوارِدة في حديث واحِدٍ، وأوصلها ابن دحية إلى ثلاثِمائة، وبعضهم إلى أربعمائة، وأوصَلَها بعض الصوفية إلى ألْفِ اسمٍ، بل قال ابن فارِسٍ: هي ألفان وعِشرُون، وأكثر ما ذَكَروه هو مِن قَبِيلِ الصفات لا الأسماء.

إرسال النبيّ محمَّد إلى النّاس كافّة

النبيُّ محمَّد ﷺ **(قَدْ أُرْسِلا)** والألِف في النظم للإطلاق **(لِلْعَالَمِينَ رَحْمَةً)** وللمُؤمِنِين بَشِيرًا، وللْمُخالِفِين نَذِيرًا، وقد ختم الله به النُّبُوّة والرسالة، وأتَمَّ به مكارم الأخلاق، ونشَر فَضْلَه في الآفاق، وأَنْزَلَ عليه نورًا هَدَى به شعوبًا مِن الضَّلالة، وأنقَذ به مِن الجهالة، وحكم بالفَوْز والفَلاح لِمَنِ اتَّبَعه مِن أُمَّتِه، وبالخُسْران لِمَن مات منهم مُعْرِضًا عن سنته، قال تعالَى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ أي الثَّقَلَين الإنس والجِنّ، فبِهَدِيه اهتدَى منهم مَن هداهُ الله، وإنّما هو ﷺ قد جاء النّاس يُسْعِدُهم إنِ اتَّبَعُوه، وأمّا مَن لم يَتَّبِعه فإنّما قَد أُتِيَ من عِند نَفْسِه حَيث ضَيَّعهَا.

والعالَمُون اسم جمع لعالم، وهو كُلُّ ما سوى الله تعالى، ثُمَّ كل جِنس من العالَم هو عَالم أيضًا، فيقال: عالَم الجِنّ، وعالَم الإنس، وعالَم الطَّير، وعالَم المواشِي، وهكذا.

ثم كُلُّ جماعة كَثِيرة من كُلِّ جِنْسٍ عالَمٌ أيضًا، فيقال: عالَم العرب، وعالَم العَجَم. وأمّا اللفظ الوارد في الآية: لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًافلا يتناول عوالم غيرِ العُقَلاء، فقَول ابن البارِزي الحَمْويّ بأنّ رسالة النبيّ إلى الجنّ والإنس تشمل الحيوانات والجمادات والحجر والشجر، لا الْتِفات إليه، وليس له مُتَمسَّك بشهادة الضبّ والشَّجَر والحَجَر للنبيّ بالرسالة لأنّ ذلك لا يعني أنّه مُرسَل إلى هذه الأمور، فالله تعالَى أخْبَر في القرءان الكريم أنّ النبيّ جاء نَذِيرًا، وكيف يُنذَرُ غير العقلاء؟!

وهل يتناول لفظ «العالَمُون» جميع المكلفين من الجن والإنس والملائكة؟ الصحيح أنّ الملائكة ليسوا داخلِين في ذلك لأنَّ الشرع قد جاء بأنّ الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، والإنذار إنما يكون لمن يحصل منه معصية، فلَمّا ثبت أنهم لا يعصون الله عُلِمَ أنّه لم يكن عليه السلام رسولًا مرسلًا إلى الملائكة.

وفي إرسالِ محمَّد ﷺ إلى العالَمِين كافَّةً دليل على أنّه عليه السلام كان رحمة في الدين والدنيا، فقد بُعِثَ والنَّاسُ في جاهلية وضَلَالة وأهلُ الكِتَاب في حَيْرة مِن أمرهِم، فدعا الناس إلى الحقّ وبَيَّن لهم سبيل الثّواب، وشرع لهم الأحكام وَمَيَّز الحلال من الحرام.

فالله تعالَى شاء أن يكون مُحَمَّدٌ هو ءاخرَ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فأرسله تعالَى إلى العالمين كافَّةً مِن إنس وجِنّ. وأمّا الأنبياء الماضون فَكان يرسل الواحِد منهم إلى ناحية والآخر إلى ناحية أخرى، ومنهم مَن يرسل إلى قومه أي يُنَصُّ له بالوحي على ذلك فيقول له جبريل: أنت رسول الله إلى قومك، وقد أخبَر الله عن ذلك في القرءان في غير ءايةٍ نحو قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أي أرسَل هودًا عليه السلام إلى قومِ عادٍ وهو أخوهم في النسب لا في الدين وقد تقدَّم الكلام على قِصَّتِه مع قومِه، وأمَّا مُحَمَّد ﷺ فقد قيل له: أنت رسول الله إلى الخلق كافّةً، لكنَّ إنكار المنكر والتبليغَ من حيث المعنى

فكان كُلُّ نبيّ مأمور به سواء أكان لِقَوْمِه أم لغيرهم، لأنّ إنكار المنكر واجب على الْمُكَلَّف بِحُدود الاستطاعة الشرعية، فكيف بالأنبياء؟! فكان متى قَدَر الواحد مِنهم على هداية أحَدٍ مِن غير قومه فَعَل.

فائدة: رُوِيَ أنّه لَمَّا سَلَّط الله تعالَى القَحْطَ على أهلِ مَكّة حتى أكلوا العِلْهِزَ[1] جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال له: «أَنْشُدُكَ اللهَ والرَّحِمَ، أَلَسْتَ تَزعم أنك بُعِثْتَ رَحمةً للعالمين؟ فقال: «**بلَى**»، فقال: قَتَلتَ الآباء بالسَّيْف والأبناءَ بِالجُوع، فَادْعُ اللَّهَ أَن يَكشف عَنَّا هذا القَحط»، فأنْزَلَ الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ أي لم يتَذلَّلوا ولم يَتَضَرَّعُوا إلى رَبِّهم بل مَضَوا في تَمَرُّدِهم.

تفضيل النبيّ محمَّد على سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسَّلام

(وَ)يَجِبُ اعتقاد أنّ سيِّدَنا مُحَمَّدًا قد (**فُضِّلا**) على جميع الأنبياء والمرسَلِين، والألفُ في «فُضِّلَا» للإطلاق. وقضيّة تفضيل نبيّ على ءاخَر لا تُعْلَم إلَّا مِن طريق الشرع، فليس لأحَدٍ أن يُفَضِّل نبيًّا على ءاخَر لْمُجَرَّدِ وجود مَزِيَّةٍ في أحدٍ دون غيره أو لأنّ مُعجِزةَ واحِدٍ منهم كانت أبْلَغَ مِن الأخرى، فإنّ إبراهيم عليه السلام لم تُحْرِقهُ النّار مُعجِزةً له وكذلك الوليّ الصالح أبو مُسلِم الخَوْلانيّ لم تؤثِّر فيه النّار، ولا يعني ذلك أنّ أبا مُسلِم يُساوي رسول الله إبراهيم عليه السلام بل أبو مسلم وليّ مِن أولياء الله الصالِحين، وما ظهر إنَّما كان ذلك كرامة له.

ويَدُلّ قول النبيّ ﷺ: «**لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى يُونُسَ بنِ مَتَّى**» على أنّ

(١) قال الجَوهريّ في الصَّحاح: «**طعامٌ كانوا يتَّخذونه مِن الدَّمِ ووَبَرِ البَعِير في سِنِيْ المجاعة**» اهـ.

التفضيل لا يكون لِهَوًى أو نَظَرًا إلى مَزِيّة مع قطع النظر عن الأمور الأخرى، وإنَّما يُفضَّلُ نبيٌّ على ءاخَر بما ورَد مِن طريق الشرع. وأراد النبيّ ﷺ بما قاله في هذا الحديث النهيَ عن التفضيل لمجَرَّد وجودِ المزيّة لمحمَّد ﷺ في أنّه كان عُرِجَ به إلى السماوات العُلى وأنّ يُونُسَ كان مكث في بطن الحوت.

وأمَّا الحديثُ الذي رواه الشيخان وبعض أصحاب السُّنَن: «**لَا تُخَيِّرُوا بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ**» فمعناه لا تَدْخُلوا في التَّفْضِيل بآرَائِكم لأنَّ التفضيل بين الأنبياء بالرَّأْي لا يَجُوز، إنّما التفضيل بالوَحْي، فمَنْ أَخْبَر الله تعالى أنَّ أَفْضَلُ مِن غَيْره مِن الأنبياء فَهُوَ الأَفْضَلُ، أَمَّا نَحْنُ فَلَا نُفَضِّل أَحَدًا مِنهم بآرائنا. وأمّا قولُ الله تعالَى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ أي لَا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرَ[1] ببعضٍ، أي لا نُصَدِّق ببعض ونُكَذِّبَ ببعضٍ كاليهود الذي قالوا: «مُوسَى نبيٌّ رسولٌ، أمَّا المسِيح ومُحَمَّد فَلَيْسَا نَبِيَّيْنِ» فهذا هو التفريق الذي حَذَّر الله تعالَى منه.

ويُستَدلّ لأفضلِيَّة سيّدنا محمَّد ﷺ على سائر النبيّين بأمور:

- **مِن القرءان**: قول الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾: فَلَمّا كانت أُمَّته خير الأمم وهو خيرٌ مِن كلِّ فردٍ مِن أفراد أُمَّتِه كان هو خير أفراد جميع الأُمَم، فكان خير الأنبياء والمرسَلين.

- **ومِن الحديث**: قوله ﷺ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ ءَادَمَ وَلَا فَخْر**»: فتَحَدُّثًا بنِعمة رَبِّه مع النفي للفَخْرِ والخُيَلاء بَلَّغ ذلك لأُمَّتِه لِيَعْرِفُوه ويعْتَقِدُوه.

- **ومِن الإجماع**: قول الفخر الرازي في تفسيره: «أَجْمَعِت الأُمّة على أنَّ بعض الأنبياء أفضلُ مِن بعض، وعلى أنَّ مُحَمَّدًا ﷺ أفضلُ مِن الكُلّ» اهـ.

وقد خَصَّ الله تعالَى نبيَّه مُحَمَّدًا بخصائصَ لم تَكُن لأحَدٍ مِن أُمَّتِه،

(١) قال بعض المحَقِّقين: «**بفتح الراء، ولا يصحّ بالضمّ بل يُفسِد المعنَى**» اهـ.

ومنها:

- وجوب عدة أمور عليه كان أكثرها نفلًا في حق أمته، وحكمة ذلك زيادة الزلفى والدرجات له، ومن ذلك: الوتر، والسواك لكل صلاة، والأضحية، والتهجُّد وهو صلاة الليل، وراتبة الصبح، والوضوء لكل صلاة ثم نسخ بالوضوء كلما أحدث فلا يكلم أحدًا ولا يَرُدُّ سلامَه حتى يتوضأ ثم نُسِخ، وصَبْر نفسه مع الذين يَدْعُون ربهم بالغداة والعشي، والدعاء لمن أدَّى صدقة ماله.

- وتحريم عدة أمور عليه خاصةً مع إباحة ذلك لغيره من أمته، ومن ذلك: تحريم نزعه لِمَا لَبِسه مِن درعه وسلاحه عند دعاء الحاجة لذلك حتى يُلاقِيَ العدوّ فيقاتل أو يحكم الله بينه وبين عدوّه وكذلك جميع الأنبياء، وقبول الصدقة ولو تطوُّعًا، وإنشاء الشعر[1]، ويحرم عليه نكاح الأَمَة المسلمة[2] وقد أجيز لأُمَّتِه بشروط منها خوف العَنَتْ[3] وهو معصوم منه ﷺ، ونكاح الكتابية ولو حُرَّة لإخباره بأنَّ زوجاته في الدنيا زوجاته في الجنة، والجنَّةُ حَرَام على الكفار.

- وإباحة عدة أمورٍ له، ومنها: جواز الوصال في الصوم وتحريم ذلك على أُمّته، واختيار ما أَحَلَّه الله له من الغنيمة من جارية وغيرها قَبل القِسْمة وكذا مِن الفيء، والتَصَرُّف في الأنفال بما يراه، وقبول الهدية مُطْلقًا بخلاف غيرِه مِن الحُكّام، وإقطاع الأراضي قَبْل فَتْحِها، وإعطاء شخصٍ مِن الصحابة مكانًا في الجنة بإذن الله، ولو أعطى لغير الصحابة لصَحَّ لكن لم يحصل في حَياته في الدُّنيا، كما أنَّ له أنْ يَحْمِيَ الْمَوَات لِنَفْسِه ولا يَحْمِي غيره من الأئمة لنفسه بل للمَصَالِح العامّة،

(١) ليس المراد تحريم أن ينقل ما قاله الشاعر فإن ذلك جائز مِن غير إيهام أنه منه.
(٢) التحريم في العقد عليها وليس في الاستمتاع بها بالتَّسَرّي.
(٣) أي الزنا.

وله الْمُكْث في المسجد جُنُبًا، ونِكاح تِسْع من النِّسْوة فما فوق بِغَير حَصْر وكذا الأنبياء لأنه لا يُخْشَى عليهم أن يَظْلِموا واحِدةً مِنْهُنّ، وانعقاد نكاحه بلفظ الهِبَة وبلا مهر ابتِداءً وانتهاءً وبصداق مجهول وبلا وليّ ولا شهود، ويَنْعَقِد نكاحه في حال الإحرام[1]، وإنْ رَغِب في نكاح امرأة خَلِيّة يلزمها إجابتُه على الصحيح وتُجْبَر، وله أيضًا تزويج مَن شاء لمن شاء بلا إذن مِن المرأة ولا مِن وَلِيِّها وله تَزْوِيجها لِنَفْسِه، كما أنَّ له الجَمْع بينَ امرأة وأختِها وعَمَّتِها وخالَتِها[2]، وكذا الجَمْع بين امرأةٍ وابْنَتِها[3].

- وله خصائص أخرى، منها: أنه أعطي ساعةً لا حَقّ فيها لأزواجه حتى يدخل عليهن فيفعل بهن ما يريد ولو لغير صاحبة النَّوبة، وأنَّ زوجاته اللاتي توفِّي عنهُنّ قد حُرِّمن على غيره أبدًا، وأنه يضاعف ثواب زوجاته في الأجر ويضاعف عقابهن في الوزر[4] فقد قال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾ وأَنَّ أُمَّتَه أي المؤمنين خير الأمم، وأنها معصومة من الاجتماع على الضلال، وأن كتابَه الذي هو القرءان محفوظٌ من التبديل والتحريف على مَمَرّ الدهور، وإنَّ الأرض كُلَّها قد جُعِلَت له ولأُمَّتِه مَسجِدًا وأن تُرَابها طهور للتيَمُّم، وأنه نُصِر بالرعب مسيرةَ شَهْرٍ أمامَه ومسيرة شهر خَلْفه[5].

---

(١) وهو الصحيح عند الشافعية.

(٢) وفيه خلاف.

(٣) وفيه خلاف، وأجازه الرافعي.

(٤) أي في كل المعاصي.

(٥) معناه الكفار أعداؤه يدخلهم الرعب من مسيرة شهر، لو كانوا في مسيرة شهر وأرادوا قتاله يدخلهم الرعب وهم في أماكنهم فكيف الذي هو أدنى من ذلك، وهذا خاص به دون أمته.

- ومن خصائصه أيضًا أنّ رؤيته ﷺ في حياته ليس فيها هذه الخاصيّة التي جعلها الله له بعد موته لِمَن رءاه في المنام تشريفًا له على غيره من الأنبياء، ورؤية شَعَره بعد وفاته فيها هذه الْمَزِيّة التي لم تكن لمن رأى شعره في حياته وإلا كان أسلم كل مَن رءاه، وكذلك من رأى أظفاره بعد وفاته أو سيفه أو ثوبه لها خاصية لم تكن لها في حياته، وقد ورد في الحديث: «**مَنْ رَءَانِي فِي الْمَنَامِ فَسَيَرَانِي فِي اليَقَظَةِ**»، فمَن رءاه في المنام فلْيَحْمَدِ الله لأنّ في ذلك ضمانًا له أنه يموت على الإيمان، أما مَن زار قبره معَ حُسْنِ النِّيَّة والعقيدة فإنه يُرْجَى له الوفاة على الإيمان، وإن مات مؤمنًا فإنه يَشْفَع له ﷺ. فمَن رءاه على صفته الأصلية في المنام ومن رءاه على غير صفته الأصلية كُلٌّ حَقٌّ، ولا بد أن يموت على الإيمان. ومن رأى شعرة الرسول أو تَبَرَّك بها بالْمَسِّ، في بعض البركات، كأنه رأَى النَّبِيَّ جِهَارًا.

وليس هذا بغريبٍ لم يعرفه العلماء مِن قَبْلُ، فقد قال شمس الدين محمد بن عمر بن أحمد السفيري الحلبي الشافعي (ت **٩٥٦**هـ) في كتابه «المجالس الوَعْظِيّة في شرح أحاديث خيرِ البَرِيّة ﷺ» من صحيح الإمام البخاري ما نَصُّه: «قد بقي من هذه العَنَزة قطعة[1] [كانت للنبيّ] في مكان في مصر يقال له: «الآثار» سمّي بذلك لأن فيه شيئًا من ءاثار النبي ﷺ. قال الشيخ برهان الدين المحدِّث[2]: زرت «الآثار» مِرارًا، ورأيت فيه قطعة من هذه العنَزة ومعه الْمِرْوَد الذي كان يَكتحل به ﷺ والْمِخْصَف وقِطعة من القصعة ومِنْقاشًا صغيرًا وكأنه لإخراج الشَّوْك من الرِّجْل وغيرها، قال: واكتَحَلْتُ بالْمِرْوَد وشَرِبتُ مِن ماءٍ وُضِعَت فيه القطعة مِن العنَزة، **فهَنِيئًا لِمَن رَأَى ءاثارَ رَسُول الله صلى الله عليه وسَلَّم مُتَبَرِّكًا به، فَإِنَّ مَن رءَاها فكأنَّه رأَى النَّبِيَّ ﷺ**» انتهى كلام السَفِيريّ.

(١) العنزة عصا أطول من العصا وأقصر من الرمح شبه العُكّاز.

(٢) الشيخ برهان الدين المحدث هو أحد تلامذة الإمام البلقيني.

نَسَب النبيّ الشّريف ﷺ

٣١- أَبُوهُ عَبْدُ اللهِ عَبْدُ الْمُطَلِبْ وَهَاشِمٌ عَبْدُ مَنَافٍ يَنْتَسِبْ
٣٢- وَأُمُّهُ ءَامِنَةُ الزُّهْرِيهْ أَرْضَعَهُ حَلِيْمَةُ السَّعْدِيَّهْ

(أَبُوهُ) أي والدُ النبيّ محمَّد ﷺ هو **(عَبْدُ اللهِ)** زَوج أُمِّه ءامِنَة بنتِ وَهْبٍ، وسيأتي الكلام على نسَبِها.

وقد مات والد المصطفى ﷺ بالمدينة عند مَرْجِعِه مِن الشّام من تِجارة كان فيها، وعمُره خمس وعشرون سنة، وقيل: ثلاثون، وقيل: ثمانية وعشرون، وكان للمصطفى وقتئذٍ سَنَتان وأربعة أشهر، وقيل: ابن سبعة أشهر، وقيل: ابن شَهْرَين، وقيل: في الْمَهْد، وقال السُّهَيلي والدُّولَابِيّ أنّ ءامِنَة كانت حامِلًا بِه، وعليه الأكثر بل وقد صَحَّ هذا عند الحاكم في مستدركه.

والمعروف عند أهل العِلم والسِيَر أنّ عبد الله وءامِنَة لم يَلِدا غيرَ رسول الله محمَّد ﷺ.

وقد أَنْشَد بعضهم:

أَخَذَ الإِلَهُ أَبَا الرَّسُولِ وَلَمْ يَزَلْ بِرَسُولِهِ الفَرْدِ اليَتِيم رَحِيمَا
نَفْسِيْ الفِدَاءُ لِمُفْرَدٍ فِي يُتْمِهِ وَالدُّرُّ أَحْسَنُ مَا يَكُونُ يَتِيمَا

وجَدُّ النبيّ محمَّد ﷺ لأبيه هو **(عَبْدُ الْمُطَلِب)** يُكنَى أبا الحارث وأبا البطحاء، وكان اسمُه شَيبَةَ الحَمْد أوَّلًا لأنه كان في ذُؤَابَتِه شعرة بيضاء، وقيل: اسمُه عامِر. وإنّما تَسَمَّى عبد المطَّلِب لأنّ عمه الْمُطَّلِب لَمَّا قدم به مِن المدينة - وكانت تُدعَى يَثرِب في ذلك الوقت - دخل به مكة ضَحْوةً مُرْدِفًا إيّاه خَلْفَه والناس في أسواقهم ومجالسهم، فقاموا

يُرَحِّبُون به ويقولون: مَن هذا معك؟ فيقول: عَبْدٌ لي ابْتَعْتُه بِيَثْرِبَ. فلَمَّا كان العَشِيّة أَلْبَسَهُ حُلّةً ابتاعها له ثم أَجْلَسَه في مجلس بني عَبْدِ مناف وأخبرهم خَبَره، فجَعَلَ بعد ذلك يخرج في تلك الحُلّة فيطوف في طُرُقِ مَكّة، وكان مِن أحسن الناس هيئة، فجَعَلوا يقولون: هذا عبدُ المطَّلِب، لِقَول المطَّلِب فيه ذلك، فغَلَب عليه اسم عبدِ المطلب وتُرِكَ شَيْبَة.

وَكَانَ تَحت عبد الْمطلب خمس نسَاء هُنّ: نُتَيْلة وهالة وَفَاطِمَة وسَمراء ولُبْنَى. وفاطمة منهن هي أم عبد الله والد رسول الله ﷺ، وهي ابنة عمرو بن عائِذ بن عِمْران بن مخزوم بن يَقَظة بن مُرَّة بن كَعْب بن لُؤَيّ بن غَالِب بن فِهْر.

وقد ساد عبدُ المطَّلِب في قريش سيادة باهرة وذهب برئاستهم، فكان جِماع أَمْرِهم عليه، وكانت إليه السِّقاية[1] والرِّفادة[2] بعد المطَّلِب، وهو الذي جَدَّد حَفْر زمزم بعد ما كانت مطمومة مِن عَهْد جُرْهُم، وهو أوَّل مَن طلَى الكعبة بِذَهبٍ في أبوابها مِن ذهبٍ وَجَده في زمزم.

(وَ)أمّا (**هَـاشِـمٌ**) فهو جَدُّ أبي المصطفَى ﷺ، واسمه عمرو، وإنما قيل له هاشم لأنه كان يَهْشِم الثَّرِيد لِقَومه في الجَدْب أي يُكثِر إطعامَهم مِنه في أيّام المجاعة، والهَشْم كَسْرُ الشيء اليابس، كذا في القاموس. وفي القِصّة أنّ هاشِمًا كان يَعمل بعدَ أبيه بالرِّفادة فيُطعِم الناسَ في كُلِّ موسم ما يجتمع عنده مِن تَرَافُد قُريش، ولم يزل على ذلك مِن أمره حتى أصاب الناس مجاعة شَدِيدة فخَرج هاشم الى الشام واشترى بما اجتمع عنده من المال دقيقًا وكَعْكًا، فقَدِم مكَّة في الموسم وهَشَم الخبز والكعك وَنَحَر الجُزور وطبخه وجَعَلَه ثَرِيدًا وأَطْعَم الناس حتَّى أَشْبَعَهم.

---

(١) أي سِقَايَة زَمْزَم، وَكَانُوا يصنعون بهَا شرابًا فِي الْمَوْسِم للْوافِدِين على مَكَّة لِما يزعمونه مِن حَجّ أيّام الجاهلية والوَثَنِيّة، وكانوا يمزجون هذا الماء تَارَة بِعَسَل وَتارَة بِلَبن وَتارَة بنبيذ، يتَطَوَّعون بذلك من عِنْد أنفسهم بلا أُجْرة.

(٢) وهو طَعَامٌ كَانَت قُرَيْش تَجْمَعُه كلَّ عَام لأهل الْمَوْسِم بِدُون أُجْرة، وقيلَ غيرُ ذلك.

وقد قيل فيه بعد ذلك [الكامل]:

عَـمْـرُو الَّـذِي هَـشَـمَ الـثَّـرِيـدَ لِـقَـوْمِـهِ قَـوْمٍ بِـمَـكَّـةَ مُـسْـنِـتُـونَ[1] عِـجَـافُ

ويجتمع في عبد المطلب مع النبيّ محمَّد عليه الصلاة والسلام في النَّسَب: بنو عَلِيّ، وجعفرٍ، وعَقِيلٍ، الثلاثة بَنو أبي طالب، وكذلك بنو العباس، وبنو الحارث، وبنو أبي لَهَبٍ.

وأمّا جَدُّ جَدِّه لأبيه فهو **(عَبْـدُ مَنَافٍ)** وإليه مَن دُونَه في النَّسَب **(يَنْتَسِب)**. وعبد منافٍ اسمه الْمُغِيرةُ وأصل اسمِه وصفٌ للمُبالَغة أي أنّه يُغِيرُ على الأغيار كثِيرًا. وقد سُمِّي عَبْـدُ مَنَافٍ بذلك لِطُولِه، وهو مِن قولهم: مائة ونَيِّف أي شيء زائد على المائة، وهو مَفْعَل مِن أناف ينيف إنافةً إذا ارتَفع، قاله السُّهَيلِي.

وأمّا عبدُ مَنافٍ فهو ابن قُصَيّ بن كِلاب بن مُرّة بن كَعْب بنِ لُؤَيّ بن غالِب بن فِهْر بن مالك ابن النَّضْر بن كِنَانة بن خُزَيمة بن مُدْرِكة بن إلياس بن مُضَرَ بن نزارِ بن مَعَدِّ بن عَدنانَ. والنَّسَب إلى هنا مُتَّفَق عليه وما بعده مختلَف فيه، إلا أنَّهم اتَّفَقوا على أنَّ النَّسَب يرجع إلى نبيّ الله إسماعيل ابن نبيّ الله إبراهيم صلى الله عليهما وسلم. وأمّا قُريشٌ فهو فِهْرُ بن مالك، وقيل: النَّضْر بنُ كِنانة.

ويجتمع في عبد مَنَافٍ مع النبيّ محمَّد عليه الصلاة والسلام في النَّسَب: بنو أُمَيَّة، وسائر بني عبد شمس، وبنو المطَّلِب، وبنو نوفل.

ويجتمع مَعَهُ ﷺ في قُصَيٍّ: بنو عبد العُزَّى، وبنو عبدِ الدّار الذين مِنهم حَجَبة الكَعْبة.

ويجتمع مَعَهُ ﷺ في كِلابٍ: بنو زُهْرة، ومِنهُم أمُّ المصطفى ﷺ وسيأتي بيان ذلك.

(١) أي أصابتهم السَّنَة وهي الجَدْبُ والقَحْط.

وأمّا عَدنان فقد قيل هو ابن أُدَد بن مُقَوِّم بن ناحُورَ بن تَيْرَح بن يَعْرُب بن يَشْجُب بن ثَابت ابن إِسْمَاعِيل بن إِبْرَاهِيم بن ءَازَرَ بن ناحُور ابن سَارُوحَ بن أَرْغُو بن فالَخ بن عَيْبَرَ بن شالَخ بن أَرْفَخْشَذ ابن سَام بن نوح بن لامَك بن مَتُّوشَلَخَ بن خَنُوخَ وَهُوَ إِدْرِيس عليه السلامُ بن يَرْدْ بن مَهْلَِيل بن قَيْنَن ابن يانَش بن شِيثَ عليه السلامُ بن ءادَمَ صلَواتُ رَبِّي وسلامُه عليه.

وقد كَرِه الإمام مالِكٌ رحمه الله رفْعَ الأنساب إلى ءادم وقال: من أين لِمَن قالَه عِلمُ ذلك؟ لكنّ الأكثرين على جوازه. وأمّا الحديث الذي رواه أبو نعيم وغيره عن أبي هريرة مرفوعًا: «عِلْمُ النَّسَبِ عِلْمٌ لَا يَنْفَعُ وَجَهَالَةٌ لَا تَضُرُّ» فالصحيح أنّه لم يَثبُت كونُه مِن كلام النبيّ ﷺ، بل هو عِلم ينفع في أمور كثيرة مِنها أنّه يساعد على صِلَة الرحم، وقد حمله بعض مَن ثبَت عندَه الحديث على التَّعَمُّق فيه والاشتغال به عَمَّا هو أَهَمّ منه في بعض الأحوال.

فائدة: قال أبو عبد الله الحافِظُ صاحب المستدرَك وشيخُ الإمام البيهقيّ رحمهما الله: «نِسْبَةُ رسول الله ﷺ صَحِيحةٌ إلى عدنان، وما زاد على ذلك فليس فيه شَيءٌ يُعْتَمَد»، وقال البيهقي رحمه الله: «وذلك لاختِلاف النَّسَّابِينَ في ذلك، مِنهُم مَن يَزِيدُ، ومِنهم مَن يَنْقُص، ومِنهم مَن يُغَيِّرُ» اهـ.

(وَأُمُّـهُ) أي والِدة النبيّ محمَّد ﷺ فهي **(ءَامِـنَـةُ)** بنتُ وَهْب بن عبد مَناف بن زهرةَ ولذَلِك قيل إنّها **(الـزُّهْـرِيهْ)** القُرَشِيّة، وكانت سيدة نساء بَنِي زهرة وكذلك كان أبوها. وأُمُّها هي بَرَّة بِنتُ عبدِ العُزَّى بن عثمان ابن عبدِ الدّار بن قُصَيّ.

وتَجْتَمِع ءامنةُ بنتُ وَهْب مع زَوْجِها عبد الله بن عبد المطلب في النَّسَب عِند كِلاب بنِ مُرّة، ويفترقان مِن وَلَدِه، فعَبْدُ الله مِن وَلَدِ قُصَيّ ابن كلاب بن مُرَّة، وهو هاشِميّ، وءامنة بنتُ وَهْب مِن وَلَد زهرة بن

كلاب بن مُرَّة، فهي قُرَشِيّة زُهْرِيّة.

وفي الأخبار أنه لـمَّا بلغَ المصطفى ﷺ سِتَّ سنين خرجت به أُمُّه ومعها أُمُّ أيمن المدعُوَّة بِبَرَكة إلى المدينة المنوّرة تزور أخوالَه مِن بَنِي النَّجَّار، فأقامت به عِنْدَهم شهرًا ثم رجعَت، فمَرِضت في طريق الرجوع إلى، ثّم ماتت ودُفِنَت بالأبواء وهو موضع معروف بين مكّة والمدينة ولكنه إلى المدينة أقربَ، وكان عُمُره ﷺ حين تُوُفِّيت أمُّه ءامِنةُ سِتَّ سنين ومائة يوم، وقيل: سبع سنين، وقيل: ثَمَان، وقيل: أرْبَع.

وَلَمَّا دُفِنَت أُمُّه ءَامِنَةُ رَجعت به أُمُّ أيمن بركَةُ إلى جَدِّه عبد المطّلب بمكة، فكَفِلَهُ إلى أنْ صار عُمُره ثَمانَي سنين، ثُمَّ لَمّا احتُضِرَ عبد المطّلب ضَمَّ كفالَة النبيّ محمَّد إلى عَمِّه أبي طالِب وأكّد الوَصِيّة به ثُمّ هَلَك بعد ذلك عبد المطّلب عن عُمُرٍ كبيرٍ مختلف في قَدْرِه.

بيان أنّ والِدَيِ الرَّسُول محمَّد ناجِيان

تَدَاول كثير مِن أهل السِّيَر والحُفّاظ الكلام على مسألة نجاة والِدَيِ الرسول، فذهب الجمهور إلى أنّهما ناجِيان، وهو القول الصحيح والمعتَمَد. وقد اختَرْنا نقلًا في ذلك للعلّامة الشيخ عبد الله الهرريّ رحمه الله ونصُّه:

فائدة في أَنَّ وَالِدَيِ الرَّسُول ﷺ ناجِيان:

قال الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «وَالِدَا الرَّسُول مَا مَاتَا كَافِرَيْن» لكن بعض النُسَّاخ حَرَّفوا فكتبوا: «مَاتا كَافِرَين» وهَذَا غَلَطٌ شَنِيع. نحن لا نقول ماتا كافِرَين إذ لا مانع مِن أَنْ يَكُونَا أُلْهِمَا الإيمان بالله فعاشَا مُؤْمِنَين لا يَعْبُدَان الوَثَن. أَمَّا حَدِيث: «إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ» فهو حَدِيث مَعْلُولٌ وإِنْ أَخرجَه مُسلِم، فَفِي مُسْلِم أحاديثُ انْتَقَدَها بعض المحدِّثين وهذا الحديث منها.

وأَمَّا حَدِيث: «إِنَّ الرَّسُولَ مَكَثَ عِنْدَ قَبْرِ أُمِّهِ فَأَطَالَ وَبَكَى، فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ رَأَيْنَاكَ أَطَلْتَ عِنْدَ قَبْرِ أُمِّكَ وَبَكَيْتَ، فقال: **إِنِّي اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي زِيَارَتِهَا فَأَذِنَ لِي وَطَلَبْتُ أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَمَنَعَنِي**» فهذا الحديث أيضا في مسلم، وهذا الحديث مؤوّل بأن يقال: إنّما منعه من أن يستغفر لها حتى لا يلتبس الأمر على الناس الذين مات ءاباؤهم وأمّهاتهم على عبادة الوثن فيستغفروا لآبائهم وأمّهاتهم المشركين لا لأنّ أمّ الرّسول كانت كافرة، وهكذا يردّ على الّذين أخذوا بظاهر الحديث فقالوا: «إنّ والدة الرّسول مشركة، لذلك ما أذن له بأن يستغفر لها»، والدليل على أنّ أمه كانت مؤمنة أنها لمّا ولدته أضاء نور حتى أبصرت قصور الشام، وبين مكة والشام مسافة بعيدة، رأت قصور بُصْرَى، وبُصْرَى هذه من مدن الشام القديمة وهي تعدّ من أرض حوران مما يلي

الأردن. فأمّه عليه السلام رأت بهذا النّور الذي خرج منها لمّا ولدته قصور بصرى، وهذا الحديث ثابت رواه الحافظ ابن حجرٍ في الأماليّ وحسّنه، ورؤية ءامنة لقصور بصرى يعدّ كرامة لها لأنّ ما رأته كان خارقا للعادة.

وَمُسْلِم لَمَّا أَلّفَ كتابه صحيح مسلم عَرَضَهُ على بعضِ الحفاظِ فأقرُّوهُ كُلَّه إلا أربعةَ أحاديث، هو قال هذا في خطبة كِتابه ولم يُسَمّ تلك الأربعة ولم يذكُرْها، والبُخَاريّ ضَعَّف حديثين مِن أحاديث مُسْلِم، قالهُ الحافظُ ابنُ حجر.

ثُمَّ علَى فَرْضِ أنهما لم يكونا مُسْلِمَين، فَهُمَا مِن أهل الفترة، وأهلُ الفترةِ الَّذِين ما بَلَغَتْهُم دعوةُ الأنبياء السابِقِينَ لَا يُعَذَّبونَ في الآخرةِ، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، وعلَى هذا جمهور العُلماء الأشاعرة وغيرهم.

قِصّة رضَاعِه ﷺ

وقد (**أَرْضعَهُ**) أي أرضعت (**حَلِيْمَةُ السَّعْدِيَّة**) النبيَّ ﷺ في صِغَره، وكانت قد أرضَعَتْه ثُوَيبة قبل ذلك حين صارت حُرَّةً بعد أنْ كانت رَقِيقة لأبي لَهَب حيث أَعْتَقَها لَمَّا بَشَّرَتْه بوِلادة محمَّد ﷺ، وقد أرضَعَتْهُ ثُويبةُ أيَّامًا بِلَبن ابنٍ لها يقال له مَسْرُوح، وقد أرضعَته مع عَمِّه حمزة وعبدِ الله بن جحش، وكان رسول الله ﷺ يعرف ذلك لثويبة ويصلها من المدينة[1]، فلَمَّا افتتح مكة سأل عنها وعن ابنها مَسْرُوح، فأُخْبِر أنهما ماتا، وسأل ﷺ عن قرابَتِها فلم يَجِد أحدًا مِنهُم حَيًّا، ذكره السُّهَيليّ.

وحَلِيمة هي بنتُ أبي ذُؤَيْب عبدِ اللَّه بن الحارث بن شِجْنة بن جابر بن رِزَام بن ناصِرة بن فُصَيَّة ابن نَصْرِ بن سَعْدِ بن بَكْرِ بن هَوَازِنَ

(١) لكن صِلة الأقارب مِن الرَّضاع ليست واجبة وإنّما ذلك يكون مِن باب الإحسان إليهم.

السَّعْدِيّة، وقد أرضَعَت المصطفى ﷺ بِلَبَنِ زَوجِها الحارث بن عبد العُزَّى السعدي المعروف بأبي كَبشة. وقال بعض أهل السِّيَر: «لم تُرضِعِ المصطفى ﷺ مُرضعة إلا أَسْلَمَت».

وروى ابن حِبّان في صحيحه بالسَّنَدِ إلى حليمة رضي الله تعالى عنها أنّ ءامنة أُمَّ رسول الله ﷺ قالت لها: إنَّ لِابْنِي هذا لشَأنًا، أني حَمَلْتُ به فلم أَجِد حَمْلًا قَطُّ كانَ أخَفّ عَلَيّ ولا أعظم برَكَة منه، ثم رأيت نورًا كأنه شِهاب خَرَج مِنّي حين وضَعْتُه أضاء لي أعناقَ الإبل بِبُصْرَى، ثم وَضَعْتُه فما وقع كما تَقَع الصبيان، وَقَع واضِعًا يَدَيه بالأرض رافعًا رأسه إلى السماء.

وقد جاءت الْمَراضِع، وبينَهُنّ حليمةُ السَّعْدِيّة، إلى مَكَّة لأخذ الرُّضَعاء، فأَبَيْنَ أن يَأْخُذْنَه ﷺ لأَجْل يُتْمِه، فلَمَّا رأتهُنّ حَلِيمة وقد أخَذْت كلُّ واحدةٍ مِنهُنَّ طفلًا ولم يَبْقَ إلا اليَتِيم الطاهر مُحَمَّد بن عبد الله أخَذَتْهُ.

وقد ظَهَرَت في فترة رضاعه ﷺ أمورٌ خارقة للعَادة، فمِن ذلك ما رواه ابن حِبّان والحاكم مِمّا ظَهَرَ لِحَليمة مِن العلامات، ومِنها: كثرة اللَّبَنِ في ثَدْيِها، ووجود اللبن في ناقَتِها الْمُسِنّة بعد الهُزال الشديد، وسرعة مَشْيِ حِمَارها، وكثرة اللبن في شِياهها، وخُصْب أرضها وغير ذلك.

وأقام ﷺ في بَنِي سعدٍ عند حليمة أربعة أعوام على الصحيح. وفي فترة إقامته عِندها جاءه جبريل وميكائيل وعليهما ثيابٌ بيضٌ فأخذاه وأضْجَعاه وشَقَّ جبريل صَدْرَه الشريف واستخرج قلبه فشَقَّه وأخرج منه عَلَقَةً سوداء فطَرَحها ثم غَسَلَهُ بِثَلْجٍ حتى أنقاه والْتَأَمَ كما كان، قال السبكي: «وتلك العَلَقة خُلِقَت في قلوب البشر قابلةً لِمَا يُلْقِيه الشيطانُ، فبِإِزَالَتِها مِن قَلْبِه لم يَبْقَ فيه مَحَلٌّ قابِل لإلقاء الشيطان» اهـ.

فَلَمَّا عَلِمَت حليمة بِشَقّ صَدْرِه خافت أن يكون ذلك حدَثًا يَؤُول إلى شيء يُصَابُ بِه، فأَعَادَتْه إلى أمِّه ءامنة سَالِمًا.

وذكر بعضُ أهلِ السِّيَر أنَّ حَلِيمة السعديّة رَدَّتْهُ ﷺ إلى أُمِّه وهو ابنُ خَمْسِ سِنِينَ وشَهْرٍ، ثُمَّ لم تَرَهُ بعدها إلا مَرَّتَين إحْدَاهما بعدَ تزوُّجِه بخديجة حيث جاءته تشكو إليه جَدْبَ بِلادهم فاسْتَوْهَب لها مِن خَدِيجة عشرينَ رَأْسًا مِن الغنم وغير ذلك، والثانية يومَ حُنَينٍ.

٣٣- مَوْلِدُهُ بِمَكَّةَ الأَمِيْنَهْ وَفَاتُهُ بِطَيْبَةَ الْمَدِيْنَهْ

خَبَر وِلادَتِه ﷺ بِمَكَّة

وكان (**مَوْلِدُهُ**) أي وِلادَتُه ﷺ (**بِمَكَّةَ**) داخلَ الزُّقاق المعروف بزُقاق الْمُدَكَّك في دار كانت بِيَدِ عَقيلِ بن أبي طالب ثم باعها ولَدُه مِن أخي الحَجّاج، ثم جعلتها الخَيزران أو زبيدة زَوجة الخليفة هارون الرشيد مسجدًا عُرِفَ بمسجد الْمُدَكَّك، وذلك عامَ الفيل عِندَ طلوع الفجر يوم أُرْسِلَت الطَّير الأبابيل على أبْرَهَة الأشْرَمَ وجيشِه حِين حاوَلوا التَّوَجُّهَ لِهَدْم الكعبة الشريفة.

وكانت ولادته ﷺ عند طلوع الفجر لِثِنْتَيْ عشرة ليلة مَضَت مِن ربيع الأول على الأشهر. وروى أحمد في مسنده والبيهقيُّ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ النبيّ ﷺ وُلِد يومَ الاثنين ونُبِّئ يومَ الاثنين وهاجر يومَ الاثنين ودخل المدينةَ يومَ الاثنين ومات يومَ الاثنين.

ورُوِي أنّ عبد المطلب كان رأى في منامه سِلْسِلة فِضّة خَرَجت منه أضاء لها العالَم، لها طرَف بالسماء وطرف بالأرض وطرف بالمشرق وطرف بالمغرب، ثم عادت كأنها شجرة على كُلِّ وَرَقةٍ نُورٌ، وأهلُ المشرق والمغرب مُتَعَلِّقُون بها، فعُبِّرت له بمولود يَتْبَعُه أهل الأرض ويَحْمَدُه أهلُ السماء[1].

وقد وقع في حال ولادة المصطفى ﷺ خوارق عجيبة، منها: أنّ أُمَّه

(١) أي الملائكة.

ءامنة رأت حين وضعته نورًا خرج منها فأضاء وانتشر حتى رأت قصور بُصرى بالشام، وقد أضاءت تلك القصورُ مِن ذلك النور، وَنَزَلَ ﷺ مِن بطن أمه على الأرض شاخصًا رافعًا بصَرُه إلى السماء. وأنَّهُ انْكَسَر في تلك الليلة إيوان كِسْرَى مَلِكِ الفرس وسقطت منه أربع عشرة شُرْفة، وَخَمَدَتْ نار الفرس ولم تَخْمُدْ قبل ذلك بألف عام بل كانوا يُوقِدُونها فلَمَّا خمدت يوم مولده الشريف لم يَقْدِر على إيقادها القَوِيّ منهم ولا الضعيف، وغاضت بحيرة ساوَةَ بالعِراق بعد أن كانت السُّفن فيها تركب فأَضْحَت وأرْضُها يابسة، وحُرِست السماء بالشُّهب ومُنِعَ مِنها كُلُّ شيطان.

وانفَلَقَتْ عنه ﷺ البُرْمَة التي وُضِعَت عليه عند وِلادَتِه فِرْقَتين وشَقَّ بَصَره ينظر إلى السماء رَأْيَ العَين، وقد نَزَل مَخْتُونًا نَظِيفًا مقطُوع السُّرَّة، ووقع إلى الأرض مَقبُوضةً أصابع يَدِه مُشِيرًا بالسَّبَّابة كالْمُسَبِّح بها.

ومِن أَجْمَعِ ما نُظِم في ذِكْر عَجائِب يومِ مَوْلِد النبيّ الكريم قولُ الشاعر:

وَمَوْلِدُهُ قَدْ كَانَ فِيهِ عَجَائِبٌ ... وَنُكِّسَتِ الأَصْنَامُ حَقًّا بِلَا مِرَا
وَإِيوَانُ كِسْرَى قَدْ تَصَدَّعَ هَيْبَةً ... لِطٰه رَسُولِ اللهِ أَفْضَلِ مَنْ قَرَا
وَأُخْمِدَتِ النِّيرَانُ فِي أَرْضِ فَارِسٍ ... وَبَشَّرَتِ الرُّهْبَانُ قَوْلًا تَسَطَّرَا
وَأَصْبَحَتِ الأَكْوَانُ تَزْهُوْ تَفَاخُرًا ... بِوِجْدَانِ مَنْ بِالفَضْلِ قَدْ زَانَ الوَرَى

وقد وَصَف الناظم مَكَّة المكَرَّمة بـ(**الأَمِيْنَهْ**) أي الآمِنة وهي كذلك، فقد أقسَم الله تعالَى بِمَكّة فقال: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾﴾، وقد دَعَا إبراهيم عليه السّلام مِن قبل مجيء نبيّ ءاخِر الزَّمان محمَّد فقال فيما أخبَر الله تعالى عنه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾، وبيان أمْنِ مَكَّة حرَسَها الله تعالى أنَّها في الحَرَم الذي يأمن فيه الناس ولا يُنَفَّر صَيْدُه ولا يُعْضَد شَجَرُه.

خَبَر وَفاتِه ﷺ بالمدِينة المنوَّرة

أمّا (**وَفَاتُهُ**) ﷺ فقد كانت (**بِطَيْبَةَ**) وهو مِن أسماء (**الْمَدِيْنَهْ**) المنوَّرة التي طابت بساكِنِها محمَّد عليه الصلاة والسلام، وسيأتي خبرُ وفاتِه قريبًا بإيجاز.

قال ابن حجر الهيتمي: «أَوْصَل بعض المتأخِّرين أسماء المدينة إلى قريب من أَلْفٍ، وكذلك مكة» اهـ. وقال السيّد الشيخ حسن بن محمد المَشَّاط الْمَكِّي المالكي: سُمِّيَت [طَيْبَةُ] بذلك لكمال المناسبة بين الاسم والمسمّى، وقد أخبر عليه الصّلاة والسّلام بأنّه يَنْصَعُ طِيبُها وتَنْفِي الخَبَث كما يَنْفِي الكِيرُ[1] خَبَث الحديد، والمشاهدة لِمَن نَوَّر الله بَصِيرَته أكبر شاهِدٍ على ذلك، ولقد صدق واللهِ القائلُ حيثُ يقول:

لِطَيْبَةَ عَرِّجْ إِنَّ بَيْنَ قِبَابِهَا حَبِيبًا لِأَدْوَاءِ القُلُوبِ طَبِيبُ
إِذَا لَمْ تَطِبْ فِي طَيْبَةٍ عِنْدَ طَيِّبٍ بِهِ طَيْبَةٌ طَابَتْ فَأَيْنَ تَطِيبُ

قال العَيَّاشِيُّ: وَقَد تَطَفَّلتُ عليه في ذلك فقُلتُ:

بِطَيْبَةَ طَابَ الطَّيِّبُونَ لِطِيبِهَا بِأَطْيَبِ طِيْبٍ طَيِّبٍ لِمُطَيِّبِ

وكانت تُسَمَّى قبل ذلك بِيَثْرِبَ، اسم رَجُل من العَمَالِيق أوَّل ما نَزَلها، ولِمَا في هذا الاسم مِن التَّثْرِيب نَهَى الشارعُ عن هذه التَّسْمِية[2] إذ لا يَلِيق بها ذلك.

وأمّا قولُه تعالَى في «سُورة الأحزاب»: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ﴾ فذلك حِكاية عن طائفة مِن المنافِقِين قالت:

(١) أي الْمِنْفاخ الذي يَنفخ به الحَدّاد على الحديد المذاب لطرد زُبَر الحديد.
(٢) نهيًا لا للتحريم، وأمّا حديث: «**لَا تَقُولُوا عَنِ الْمَدِينَةِ يَثْرِبَ وَمَن قَالَ عَنْهَا يَثْرِبَ فَلْيَقُلْ أَسْتَغْفِرُ اللهَ**» الذي رواه أبو يعلَى في المسند فهو غير ثابت، كما قال الحافظ الهرريّ رضي الله عنه.

«يا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقامَ لَكُم»، فنَبَّه بما حكَى عنهم، أنّهم قد رَغِبُوا عن اسم سمّاها الله به وأَبَوا إلّا ما كانوا عليه في جاهِلِيَّتِهم، والله تعالى سمَّاها «المدِينَة»، فقال: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ الآيةَ» انتهى كلام الشيخ الْمَشّاط مُختَصَرًا.

٣٤- أَتَمَّ قَبْلَ الْوَحِي أَرْبَعِينا وَعُمْرُهُ قَدْ جَاوَزَ السِّتِينا

وقد (**أَتَمَّ قَبْلَ الْوَحِي**) أي قبل أن يُوحَى إليه (**أَرْبَعِينَا**) عامًا مِن عُمُره، والألِفُ في «أَرْبَعِينَا» للإطلاق وكذا «السِّتِّينَا». والوحيُ هو الإعلام مِن الله تعالى لمن يُنَبِّئُه بأمرٍ دِينيّ أو إخبار بأمرٍ مَا نحو الإعلام عن أمور بعض الأمم السابقة وبعض الأمور الغيبيّة التي ستحصل في المستقبل. وقد جعل الله تعالَى الملَك الكَريمَ جبريل عليه السلام سَفِيرًا بين الله وبين أنبيائه، فهو يبلغ الوحي للأنبياء غالِبًا، لكن الوحي لم يكن من طريق جبريل فقط بل كان من طريق غيره مِن الملائكة أيضًا، إلا أنّ الغالب كونُه من طريق جبريل.

قصّة بدء نزول الوحي على النبيّ ﷺ

وقد جاءت قِصّة بدء الوحي في حديث صحيح مرفوع أورَدَهُ البُخاريّ أوَّل صحيحه عن عائشة رضي الله عنها، ونحن نسوق بعضَه هنا مع شرح مَزْجِيّ للألفاظ يُبَيّن مُفادَه:

قالت عائشة رضي الله عنها (**أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ**) ﷺ (**مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ**) أي الصادقة، فقد جاء في الحديث: (**الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِن سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ**) أي خصلة من خصال النبوة. وأما حديث: «**ذَهَبَتِ النُّبُوَّةُ وَبَقِيَتِ الْمُبَشِّراتُ، قِيلَ: وَمَا الْمُبَشِّراتُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قال: الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ**» معناه بعد النبيّ محمد لا نَبِيّ ولا يَنْزِل الوحي على نبيّ جديد بَعْدَه لكن الرؤيا الصالحة

لا بُدّ مُسْتَمِرّة، فيُعَوَّض الصالحون عن انقطاع الوحي بالـمرائي الصالحة **(فَكَانَ)** صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ **(لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ)** بَيِّنةً واضِحةً **(مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ)** أي كوضوح الصبح في ضيائه الذي لا يشك فيه هل هو الصبح أم لا.

(ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ) ﷺ **(الْخَلَاءُ)** أي الاختلاء والانفراد عن الناس بمعنى الخلوة التي يتوجه القلب فيها إلى أمر ما، وشأن هذه الخلوات أنَّ أنبياء الله وأولياءه يُحِبُّونها. **(وَكَانَ)** ﷺ قبل النُّبُوّة **(يَخْلُوْ بِغَارِ حِرَاءَ)** وهو نقب في جبل يعرف اليوم باسم جبل النور، بينه وبين مكة نحو ثلاثة أميال على يسار الذاهب من مكة إلى منى، وهو ضمن حدود الحرم، فالحرم مساحته أكثر من عشرين كيلومتر ليس مكة فقط، وكان النبي يمكث بداخل الغار **(فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ)** وقد فَسَّر الزهري التحَنُّث الذي ذكرَتْه عائشة بالتعَبُّد بجملة مُدْرَجَةٍ في الحديث هي **(وَهُوَ التَّعَبُّدُ)** وكان تعَبُّد الرسول قبل نزول الوحي عليه بالتَّفَكُّر في مخلوقات الله وإطعام الـمساكين. فقد كان الفقراء يقصِدُونه فيطعمهم. وكان ﷺ مسلِمًا مؤمِنًا بِرَبِّه خالِقِه الذي لا يشبه شيئًا، ولم يعبد غير الله قَطُّ، لكنه لم يكن يعرف كيفية الصلاة ولا تفاصيل الشرائع قبل نزول الوحي عليه. وقد كان يَبْلُغُه من ملة إبراهيم أشياء ثمّ هو مِن طريق الإلهام القلبي يُلْهَم أنَّ هذا شيء حسن لكن من دون طريق الوحي، فما فعله الرسول قبل نزول الوحي عليه مما يوافق شرعه الذي أنزله الله عليه من تلك الأفعال يقال له سُنّة أيضًا.

وكان ﷺ يَتَحَنَّث في غار حراء الأيام و**(اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ)** أي الكثيرة **(قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ)** أي يرجع **(إِلَى أَهْلِهِ)** أي زوجَتِه خديجة بعد مُكْثِه تلك الفترة مِن الأيّام واللَّيالي في الغار **(وَيَتَزَوَّدُ)** أي يَتَّخِذ الزادَ مِن جديد **(لِذَلِكَ)** الـمُكْث الطويل في الغار إلى ما شاء الله **(ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ)** وقد فَنِي زادُه **(فَيَتَزَوَّدُ)** بزادٍ جديد عند خديجة **(لِمِثْلِهَا)** أي

لمثل تلك الإقامة السابقة في الغار المدة الطويلة، وروي أنه كان يمكث فيه كل عام شهرًا.

وكان ﷺ في ابتداء أمره بعيدًا جِدًّا من المخالَطات حتى من الأهل والمال والعيال، واستَغْرَق في بحر الأذكار القلبية فانقطع عن الأضداد واستشعر حصول المراد وظهر له الأنس والخلوة، فكان لا يَمُرّ بشجر ولا حجر إلا يُقَال له بلسان فصيح ونُطق صحيح: «السلام عليك يا رسول الله»[1]، فيَنظر يمينًا وشمالًا ولا يرى أحدًا **(حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ)** أي الأمرُ الحقُّ وهو الوحي الذي نزل عليه يوم الاثنين في السابع عشر أو الثامن عشر أو التاسع عشر من شهر رمضان، وقيل: رجب، وقيل: ربيع الأول، وكان عمره إذ ذاك أربعين سنة **(وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءَ فَجَاءَهُ الْمَلَكُ)** جبريل عليه السلام وهو قائم على جبل حراء، ظهر له بين السماء والأرض وقال: «أَبْشِرْ يَا مُحَمَّدُ أنا جِبريل وأنتَ رَسُولُ الله إلى هذه الأُمّة». **(فَقَالَ)** للنّبِيّ **(اقْرَأْ، قَالَ)** النَّبِيّ **(مَا أَنَا بِقَارِئٍ)** أي لا أُحْسِن القراءة، وليس معناه أن النبيَّ رفَض القراءة وأبَى لَمَّا قال له جبريل «اقرأ».

(قَالَ) ﷺ **(فَأَخَذَنِي)** أي فأَمْسَك بي جبريل **(فَغَطَّنِي)** أي ضَمَّني ضَمَّة شديدة **(حَتَّى بَلَغَ مِنِّي)** الضَمُّ **(الْجَهْدَ)** أي غاية الوُسْع والتَّحَمُّل **(ثُمَّ أَرْسَلَنِي)** أي تركني **(فَقَالَ)** ثانِيًا **(اقْرَأْ)** قال ﷺ **(قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ)** ثَانِيةً، قالَ **(فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي)** أي عَصَرَنِي عَصْرًا شديدًا أيضًا هذه المَرَّة **(الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي)** العَصْرُ **(الْجَهْدَ)** أي الطاقةَ **(ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ)** قال **(فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ)** أي يا مُحَمَّد **(بِاسْمِ رَبِّكَ)** أي مُفْتَتِحًا بذكر اسم ربك، فهو الله **(الَّذِي خَلَقَ) كُلَّ شيءٍ، والآيَةُ الثَّانِيَةُ (خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ)** أَي

(١) سنن الترمذي: أبواب المناقِب: الحديث (٣٦٢٦)؛ ومسند أبي داود الطَّيالِسي: مسند عائشة أمّ المؤمنين: الأفراد عن عائشة: الحديث (١٦٤٣).

خَلَق جِنْس الإنسان مِن عَلَق جمع عَلَقة وهي القِطْعة اليسيرة من الدَّم الغَلِيظ، والآيَةُ الثَّالِثَةُ **(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ)** أي الذي لم يَلْحَقه نَقْصٌ، والأكرم صفة تَدُلُّ على المبالَغة في الكَرَم. فأقرأَهُ جبريلُ قراءةً حصل بها كمالُه حين نطَق ﷺ بالمقروء، ثم ضَرَب جبريل الأرضَ بِعَقِبِه فنَبَع ماءٌ فتَوَضَّأ منه ﷺ بعد أن عَلَّمَه كيفيَّةَ الوضوء، ثمَّ صلَّى به ركعتين ورسول الله ﷺ مُقْتَدٍ به. ولهذا الحديث تِتِمّة لا يسع شرحُها في هذا المختصر.

ثم لِيُتَنَبَّهَ في الكلام على انقطاع الوحي، فقد وَرَد في البخاري وغيره أنَّ الرسول لما انقطع عنه الوحي زمانًا هَمَّ أن يُلْقِي بنفسه مِن ذِرْوَة جبل لِيَخِفّ عنه الشوق للوَحْيِ وليس ليموت أو يحصل له أدنَى ضَرَرٍ، ومعنى ذلك أنه ﷺ كان يعتقد أنه إنْ فعل ذلك لا يحصل له أدنى ضَرَرٍ، كما أن يونس عليه السلام حين أَلْقَى بِنَفْسِه في البحر كان ظَنُّه أنَّه لا يَتَضَرَّر. وإذا كان الولي له كراماتٍ وذلك ثابت بنصّ القرءان وإجماع الأُمّة، فمِن الأولياء مَن يمشي على وجه الماء ويطير في الهواء، وذلك مُشاهَد فكيف بالنبيّ.

كيفيّات نُزول الوحي على النبيّ ﷺ

رُوِيَ عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي يَغُطُّ في رأسه ويتَرَبَّد وَجْهُه أي يتَغَيَّر لونُه بالجريدة ويَجِدُ بَرْدًا في ثناياه ويَعْرَقُ حتى يَتَحَدَّر منه مثلُ الجُمانِ[1].

وقد ذكر الحافظ السيُّوطي في كتاب «الإتقان» كَيفيّات للوحي:

- **إحداها**: أنْ يأتيه الملك في مثل صَلْصَلَة الجَرَس. قال الخطابي: والمراد أنه صوت متدارك يسمعه ولا يَتَبَيَّنُه أوَّل ما يسمعه حتى يفهمه

(١) أي اللؤلؤ.

بعد. وقيل: هو صوتُ خَفْقِ أجنحة الملك والحكمة في تقدمه أن يفرغ سمعه للوحي فلا يبقى فيه مكانًا لغيره. وفي الصحيح أن هذه الحالة أشد حالات الوحي عليه وقيل: إنه إنما كان ينزل هكذا إذا نزلت ءاية وعيد وتهديد للكفّار.

- **الثانية**: أن يَنْفُث الملَكُ في رُوعِه الكلام نَفْثًا، وهذا قد يَرجِع إلى الحالة الأولى أو التي بعدها بأن يأتيه في إحدى الكَيْفِيَّتَين ويَنْفُث في رُوعِه.

- **الثالثة**: أن يأتيَه الملَكُ في صورة الرَّجُل فيكُلِّمه، وهو أَهْوَنُه عَلَيه.

- **الرابعة**: أن يأتِيَه الملَك في النوم، وعَدَّ من هذا قوم سورة الكوثر، وقد تَقَدَّم أنّ قلبَ النبيّ لا ينام.

ذِكر وفاة النبيّ ﷺ

(وَ)كانَ (**عُمْرُهُ**) ﷺ (**قَدْ جَاوَزَ السِّتينا**) بثلاث سنين حين توُفِّي، على الصحيح. وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ السورةُ كُلُّها عَلِم النبي عليه السلام أنه قد نُعِيَت إليه نَفْسُه.

فَلَمَّا دَنَتْ وفاتُه ﷺ أخذَه وجعُه في بيت ميمونة، فخرج إلى أهل أُحُد، فصَلَّى بهم صلاتَهُ على الْمَيّت، ثم لَمَّا اشتَدَّ به وجعه استأذن أزواجه أن يُمَرَّض في بيت عائشة، فأَذِنَّ له في ذلك، فمُرِّضَ في بيت عائشة إلى أن ماتَ فيه ﷺ، وكان يقول في مَرَضِه ذلك لعائشة: «**مَا زِلْتُ أَجِدُ أَلَمَ الطَّعَامِ الَّذِي أَكَلْتُهُ بِخَيْبَرٍ، مَا زَالَتْ تِلْكَ الأُكْلَةُ تُعَاوِدُنِي، فَهَذَا أَوَانُ انْقِطَاعِ أَبْهَرِي**» ويُغْمَى عَلَيه.

وكان ﷺ قد أوصاهم في مرضه بوصايا، مِنها: أن يُجِيزُوا الوَفْد بنحو مما كان يُجِيزهم به، وأن لا يتركوا في جزيرة العرب غير دِين

الإسلام، وأن يهتَمُّوا لشأن الصلاة المفروضة، وأن يُحسنوا إلى ما مَلَكت أيْمَانُهم.

ولَمّا عَجَز ﷺ عن الخروج إلى المسجد قال: «**مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ**». وخَرج يَومًا مِن أيّام مَرَضِه ﷺ إلى المسجد تَخُطُّ رِجْلَاه الشَّرِيفَتان في الأرض، ويحمله رَجُلَان أَحَدُهما عَلِيّ والآخر العَبّاس، وقيل الفَضْلُ بن العَبّاس.

ومات ﷺ يوم الاثنين لاثنتَي عشرَة ليلةً مضَت مِن شهر ربيع الأوّل سنة إحدى عشرة لِتَمام عَشْرِ سِنين مِن الهجرة، وَكَانَت مُدَّة مَرضه اثنَي عشر يَوْمًا، وَقيل: أَرْبَعَة عشر.

ودُفن ﷺ يوم الثلاثاء، وقيل: ليلة الأربعاء، وغَسَّله عَمُّه العباس وابناه قُثَم والفَضل وابنُ عَمّه عَلِيّ بن أبي طالب وشُقْرَان مَوْلَى رسولِ الله وأسامةُ بنُ زيد، وكُفِّنَ ﷺ في ثلاثة أثوابٍ بيض ليس فيها قَمِيص ولا عِمامة، وصَلَّى عليه المسلمون أفرادًا لا يَؤُمُّهم أَحَد، ثُمَّ دَخَل قبرَه عَمُّه العباس وابناه قُثَم والفَضْل وابنُ عَمّه عَلِيّ بن أبي طالب وشُقْرَان مولى رَسُول الله ﷺ.

ولم يُصَدِّق عمر بن الخطّاب رضي الله عنه موت رسول الله أوّل الأمر، فخَرَج إلى المسجد وخَطَب قائلًا: إنَّ المنافِقِين يقولون: إنّ رسول الله ﷺ تُوُفِّي.

فأتَى أبو بكر بيتَ رسول الله ﷺ وَكَشَف له عن وَجْهِهِ ﷺ، ثُمَّ قَبَّلَهُ، وأَيْقَن بِمَوْتِه. ثُمَّ خَرَج فوَجَد عُمَر رضي الله عنه يقول تلك المقالة، فقال له: اجْلِس، فأبى عمر، فقال له: اجْلِس، فأَبَى. فتَنَحَّى أبو بكرٍ عنه، وقام خَطِيبًا، فانصَرَف الناس إليه وترَكُوا عُمَر، فقال أبو بكر رضي الله عنه: «أَمَّا بعدُ، فمَن كان يعبُد مُحَمَّدًا فإنَّ مُحَمَّدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإنَّ الله حَيٌّ لا يموتُ، ثم تلا: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ﴾ الآية».

ثم اجْتَمَع المهاجِرُون والأنصار في سَقِيفة بني ساعِدة، فبايَعُوا أبا بكر جميعًا، ثم بايَعُوه بيعةً أخرى مِن الغَدِ على ملإٍ منهم ورِضًا.

وكان مِن جُملة مَن رثى رسول الله ﷺ ابنُ عَمِّه أبو سفيان بنُ الحارث فقال: [الوافِر]

أَرِقْتُ فَبَاتَ لَيْلِيْ لَا يَزُولُ ... وَلَيْلُ أَخِي الْمُصِيبَةِ فِيهِ طُولُ

وَأَسْعَدَنِي البُكَاءُ وَذَاكَ فِيمَا ... أُصِيبَ الْمُسْلِمُونَ بِهِ قَلِيلُ

لَقَدْ عَظُمَتْ مُصِيبَتُنَا وَجَلَّتْ ... عَشِيَّةَ قِيلَ قَدْ قُبِضَ الرَّسُولُ

وَأَضْحَتْ أَرْضُنَا مِمَّا عَرَاهَا ... تَكَادُ بِنَا جَوَانِبُهَا تَمِيلُ

فَقَدْنَا الوَحْيَ وَالتَّنْزِيلُ فِينَا ... يَرُوحُ بِهِ وَيَغْدُو جَبْرَئِيلُ

وَذَاكَ أَحَقُّ مَا سَالَتْ عَلَيْهِ ... نُفُوسُ النَّاسِ أَوْ كَادَتْ تَسِيلُ

نَبِيٌّ كَانَ يَجْلُوْ الشَّكَّ عَنَّا ... بِمَا يُوحَىْ إِلَيْهِ وَمَا يَقُولُ

وَيَهْدِينَا فَمَا نَخْشَى ضَلَالًا ... عَلَيْنَا وَالرَّسُولُ لَنَا دَلِيلُ

أَفَاطِمُ إِنْ جَزِعْتِ فَذَاكَ عُذْرٌ ... وَإِنْ لَمْ تَجْزَعِيْ ذَاكَ السَّبِيلُ

فَقَبْرُ أَبِيكِ سَيِّدُ كُلِّ قَبْرٍ ... وَفِيهِ سَيِّدُ النَّاسِ الرَّسُولُ

فائدة: رُوِي أنّ الخليفة أبا جعفر ناظَر الإمام مالِكًا في مسجد رسول اللَّه ﷺ فقال له مالك: يا أمير المؤمنين، لا ترفع صوتَك في هذا المسجد، فإن اللَّه عز وجل أدَّب قومًا فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢﴾، ومدَح قومًا فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾، وذَمَّ قومًا فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ۝٤﴾، وإنَّ حُرْمَته ﷺ مَيتًا كحُرْمته حَيًّا، فاستكان له أبو جعفر وقال: يا أبا عبد اللَّه، أَسْتَقْبِلُ القِبلة وأدعُو أم أستقبلُ رسولَ اللَّه ﷺ؟ فقال: وَلِمَ تَصْرِفُ وَجْهَك عنه وهو

وَسِيلَتُك ووَسِيلة أَبِيك ءادَمَ عليه السلام إلى اللَّه تعالى يومَ القيامة[1]، بل اسْتَقْبِلْهُ واسْتَشْفِع به فيَشْفَعَ لكَ عند الله تعالى، قال اللَّه تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾.

أبناء الرسول ﷺ وءاله وصحبه

٣٥- وسَبْعَةٌ أَوْلادُهُ فَمِنْهُمُ ثَلاثَةٌ مِنَ الذُّكُورِ تُفْهَمُ
٣٦- قاسِمْ وعَبْدُ اللهِ وَهْوَ الطَّيْبُ وطَاهِرٌ بِذَيْنِ ذَا يُلَقَّبُ
٣٧- أتاهُ إبْراهِيمُ من سُرِّيَّهْ فأُمُّهُ مَارِيَةُ الْقِبْطِيَّهْ
٣٨- وغَيْرُ إبْرَاهِيمَ مِنْ خَدِيْجَهْ هُمْ سِتَّةٌ فَخُذْ بِهِمْ وَلِيْجَهْ
٣٩- وأرْبَعٌ مِنَ الإناثِ تُذْكَرُ رِضْوَانُ رَبِّي لِلْجَمِيْعِ يُذْكَرُ
٤٠- فَاطِمَةُ الزَّهْراءُ بَعْلُهَا عَلِيْ وابْنَاهُمَا السَّبْطَانِ فَضْلُهُمُ جَلي
٤١- فَزَيْنَبٌ وبَعْدَها رُقَيَّهْ وأُمُّ كُلْثُومٍ زَكَتْ رَضِيَّهْ

(**وسَبْعَةٌ**) هُم (**أَوْلادُهُ**) ﷺ (**فَمِنْهُمُ**) أي ومِن أولادِه السَّبعةِ (**ثَلاثَةٌ مِنَ الذُّكُورِ**) وهذ العِدّة (**تُفْهَمُ**) مِن الآثار والأخبار الصحيحة الثابتة، وهم على حسَب ترتيب وِلادتهم: زينب، ثم القاسم، ثم أُمُّ كلثوم، ثم فاطمة، ثم رُقَيَّة، ثم عبد الله، ثُمّ إبراهيم.

فأمّا الـ(**قاسِم**) فهو أوّل مَن وُلِد لِرَسول الله ﷺ مِن خديجة قبل البعثة بمكّة، وهو أكبر أبنائه الذكور، وبه كان يكنى ﷺ. وعاش القاسم سبعة عشر شهرًا، وقيل: أكثر، وهو أول مَن مات مِن وَلَدِه ﷺ، واختُلِف هل مات قبل البعثة أو بعدها.

(١) وهو الذي يشير إليه قوله عليه الصلاة والسلام: «**ءَادَم وَمَن دُونَه تَحْتَ لِوَائِي يَوْمَ القِيَامَةِ**».

(وَ)الثاني مِن الصِّبْيان هو (**عَبْدُ اللهِ**) مِن زوجتِه خَدِيجة (**وَهْوَ**) الْمُسَمَّى (**الطَّيْبُ وطَاهِرٌ**) أي الطاهر أيضًا، وقد كان (**بِـ**)هـ(**ـذَيْنِ**) هـ(**ـذَا**) الصبيّ مِن أولاد النبيّ (**يُـلَـقَّبُ**) وقد سُمِّي بهما معًا لأنه وُلِد في الإسلام على الصحيح، واسمه الذي سُمِّي به أَوَّلًا هو عبد الله ثم سُمِّي الطَّيِّب الطاهرَ، وقيل: الطيّب والطاهر اثنان سوى عبد الله، ذكره ابن عساكر، والأكثَرون على الأوّل الذي جَرَى عليه النّاظم. وقد مات عبد الله بمكة، فقال العاص بن وائل من صَناديد قُرَيش: قد انقَطع ولدُه، فهو أبتَر، فأنزَل الله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ معناه: الكافِرُ الذي يُبْغِضُك يا محمَّدُ هو المقطوعُ مِن الخير.

ثُمّ (**أتاهُ**) ﷺ مِن الوُلد الذكور ثالِثًا (**إبْرَاهِيمُ**) وقد وُلِدَ بالمدينة في ذي الحِجّة سنة ثمانٍ من الهِجْرة الشَّرِيفة، وعاش بها سنةً ونِصفَ سنةٍ على الأشهر، وقيل: سبعةَ عشر شهرًا، وقيل: غير ذلك. وقد أتى إبراهيم (**مِن سُرِّيَّهْ**) أي أَمَةٍ تَسَرَّى بِها النبيّ ﷺ بعد أن أسْلَمَت ولم يتزوَّجْها، وكانَ أهْدَاها له مَلِك الإسكندرية الْمُقَوقِس وهو جُرَيج بن مِينا، وفي الخَبر أنّ المصطفى ﷺ كان قد أرسَل حاطبَ بنَ أَبِي بَلْتَعة اللَّخْمِيّ للمُقَوقِس، فقال له المقَوقِس: «ننظُر في أمر هذا الرجل فإنه لا يَأْمُر بمرهوب منه ولا يَنْهى عن مرغوب فيه»، لكنّه لم يؤمِن وأهدَى إلى النبي هَدَايا، مِنها: مارية القِبْطِيّة وأختُها سيرين وعبدٌ يُدعَى مابُور وفَرسٌ يُسمَّى لِزَازًا وحِمارٌ يُسَمَّى عُفَيرًا ويعفُورًا مع ألْفِ مِثقالٍ من ذهب وقدَحٍ مِن قوارير وشيء مِن عَسَل بَنْهَا بمِصرَ، فدعا المصطفى لِعَسَل بَنْهَا بالبَرَكة، ووَصَلت الهَدايا إليه سنة سَبْع، وقيل: ثمان.

وأمّا أُمَّهات أولادِه الذكورِ والإناثِ عليه الصلاة والسلام (**فَـ**)إبراهيم (**أُمُّهُ مَارِيَـةُ**) بنت شَمعُونَ (**الْـقِـبْـطِـيَّـهْ**) وهي ليسَت زوجةً للرَّسول فلا يقال لها أُمُّ المؤمنين وليس لها حكم زوجاتِ الرَّسول ﷺ، لكِنّها لو لم تُسْلِم لم يَجُز للرَّسول ﷺ أن يَتَسَرَّى بها. وكان الرسول قبل ذلك

قد مَنَعَ نَفْسَه وطءَ سُرِّيَتِه مارية، فنَزَلَتِ الآيةُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾ أي لِمَ تَمْنَع نَفْسَك لأجْلِ إرضاء بعضِ زوجاتك.

(وَ)أَمَّا **(غَيْرُ إِبْرَاهِيمَ)** مِن أولاد النبيّ فَهُو **(مِنْ)** أولادِ **(خَدِيْجَهْ)** ولم يَلِدْ له أَحدٌ مِن نسائه غير خديجة، وأولاده ﷺ مِن خديجةَ **(هُمْ سِتَّةٌ)** عبدُ الله والقاسمُ وفاطمة وزينب ورُقَيّة وأُمّ كُلثوم **(فَخُذْ بِهِمْ وَلِيْجَهْ)** أي اتَّخِذ محبّةَ أولاد النبيّ ﷺ ظاهرًا وباطِنًا بِطانَةً لنفسك.

(وَ)مِن أولادِه السَّبْعة ﷺ **(أَرْبَعٌ مِنَ الإِنَاثِ)** هُنَّ بَناتُه اللَّائِي **(تُذْكَرُ)** أي في الآثار والأخبار الصَّحِيحة، أو تُذكَر فيما يلي مِن النَّظم، وأظنُّه حشوًا كَمَّلَ به الوزنَ.

وجميع بناتِه أَدْرَكْنَ بِعثَةَ الرسول ﷺ فأَسْلَمْنَ وهَاجَرْنَ معه **(رِضْوَانُ)** أي مرضاة اللهِ **(رَبِّي)** أرجُو **(لِلْجَمِيْعِ)** أي لجميع المذكورين مِن أولاد النبيّ ﷺ **(يُذْكَرُ)** أي على لسان المؤمنين بنحو قول: «رضي الله عن أولاد النبيّ محمَّد»، أو هو حشوٌ كَمَّل به الوزنَ.

وأمّا بناتُه ﷺ فهُنّ **(فَاطِمَةُ الزَّهْرَاءُ)** وسُمِّيت الزهراء لأنّها بيضاء مُشرِقة، وسميت البتول أيضًا لأنها مُنقَطِعة القرين والبَتل القَطْع، وتكنى أم أبيها. وُلِدت سنة إحدى وأربعين من مَولِد النبيّ ﷺ، وقيل: وُلِدت وقريشُ تَبنِي الكعبةَ ورسولُ الله ﷺ ابن خمس وثلاثين، وقيل: كان مولِدُها قبل البِعثة بقَلِيل، نحو سنة أو أكثر، وكانت أسَنَّ مِن عائشة بنحو خَمسِ سِنِين.

(بَعْلُهَا) أي زَوجُها **(عَلِي)** بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد خَطَبَها إلى رسول اللَّه ﷺ في السنة الثانية من الهجرة في رمضان وبنَى بها في ذلك العام، وقيل: تَزَوَّجها في صَفَر، وقيل: في رجب، وقال ابن سعد: إنّه تزَوَّجَها بعد مَقْدَم رسول اللَّه ﷺ المدينة بخمسة أشهر وبَنَى بها مَرْجِعَه مِن بدر، وكانت يومَ بَنَى بها عليّ بنتَ ثمان عشرة سَنةً. وقد ولدت لِعَلِيّ رضي الله عنها الحَسَنَ والحُسَين وأُمَّ كلثوم وزَينب

رضي الله عنهم أجمعين، ولم يتزوج عليّ غيرَها حتى ماتت. ثُمّ إنّه ليس في نِكاح عليّ مِن فاطِمة كراهةٌ لأنّها ليست ذات قرابة قريبة منه كابنة عَمِّه بل تلك قرابةٌ غيرُ قريبة، فهي بنتُ ابن عَمِّه المصطفى ﷺ.

وقد اختُلِف في وفاتها، فقيل: بعد رسول اللَّه ﷺ بسِتّة أشهر، وقيل بثلاثة أشهر، وقيل بثمانية أشهر، وقيل: بسَبعِين يومًا، وقيل: غير ذلك، وذلك يوم الثلاثاء لِليالِيَ خَلَت مِن رمضان سنة إحدى عشرة من الهجرة المبارَكة. وكانت قد طلبَت مِن عَلِيّ حين حضَرَتْها الوفاةُ أنْ يُجَهِّز لها مغتسَلًا فاغتسلت وتطَهَّرت، ثم دعت بثياب أَكْفَانِها، فأُتِيت بثياب غِلاظ خَشِنة فلَبِسَتْها ومَسَّت مِن الحَنُوط. فلَمّا قُبِضَت رضي الله عنها غَسَّلَتْها أسماء بنتُ عُمَيسٍ وعَلِيٌّ مَعًا، وصَلَّى عليها عليّ، وقيل: صلَّى عليها العباس رضي اللَّه عنه، ونَزَل هو وعَلِيٌّ في قبرها، ودُفِنَت لَيلًا ولم يَعْلَم بها كثير مِن النّاس، قاله ابن حجر في الإصابة.

وكان لها رضي الله عنها يوم تُوُفِّيت تسعٌ وعشرون سَنةً، وقيل: إحدى وثلاثون سنة وأَشْهُر، وكانت أَشْبَه النّاس كلامًا وحديثًا برَسُول اللَّه ﷺ، وكانت إذا دَخَلَتْ عليه قام لها ورَحَّب بها، وفضائلها رضي الله عنها كثيرة جِدًّا.

(فَـزَيْـنَـبٌ) تأتي بعد فاطمة في ترتيب الناظم ولكنّها أكبر بناتِه ﷺ. كانت زوجة أبي العاص بن الربيع بن عبد العزى قبل أن يَنزِل تحريم نِكاح المسلِمة مِن المشرك في قول الله تعالَى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾، وهو ابن خالتها هالة بنت خُوَيلِد. هاجرت زينب رضي الله عنها حين أبَى زوجُها أبو العاص أن يُسْلِم، وقد وَلَدَت منه قبل ذلك عَلِيًّا وأُمامة وهي التي حَمَلَها ﷺ في صلاة الصبح على عاتِقِه وكان إذا ركع وضَعَها وإذا رَفَع رأسه من السجود أعادها. ولَمَّا هاجر أبو العاص مُسلِمًا رَدَّهَا له ﷺ بعد سَنَتين بنكاح جديد، وقد تُوُفّي أبو العاص في ذي الحجة سنة اثنتَي عشرة

فتزَوَّجها علي بن أبي طالب بعد وفاة فاطمة فوَلَدَت له مُحَمَّدًا الأَوْسَط ومات عليّ رضي الله عنه وهي عِندَه، فتزوَّجها بعد ذلك المغيرة بن نوفل بن الحارث فوَلَدت لهُ يَحْيَى وكان يُكنى به.

تُوُفِّيت زينب رضي الله عنها سنة ثمان من الهجرة وغَسَّلَتْها سَوْدة بنت زَمْعة وأُمُّ سَلَمة رضي اللَّه عنهما.

(وبَـعْـدَهـا) أي بعدَ زَينَب في ترتيب النظم **(رُقَـيَّـهْ)** وليست هي الثالثةَ في ترتيب مَولِد أولاده ﷺ بل هي أصغر بناته والخامسة في ترتيب الولادة بينهم، كما ذكرنا سابِقًا، وقيل فاطمةُ أصغرُ بناته ﷺ.

وقد تَزَوَّج رُقَيَّةَ عثمانُ بن عفانَ رضي الله عنه وماتت عنده، كان قد تزوَّجها قبلًا عُتبة بن أبي لَهَب قبل نزول تحريم نكاح المسلمة بالكافر، فلَمَّا بُعِثَ النبي ﷺ وأنزل الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ قال أبو لَهَب لِوَلَدِه: «رأسِي مِن رَأْسِكَ حَرَامٌ إنْ لم تُطَلِّق رُقَيَّة»، ففَارَقَها قبل الدخول بها. وقد ورد أنه هاجر بها عثمان رضي الله عنه إلى الحبشة وولدت له عبد الله لكنّه مات بعد سِتّ سِنِين من عمره، وتوفيت رضي الله عنها حين كان النبيّ ﷺ بِبَدْر لِسَنَةٍ هجريّة وعشرة أشهر وعشرين يومًا ودُفِنَت بالمدينة المنوّرة.

(وأُمُّ كُـلْـثُـوم) مِن بناتِه ﷺ، وهي مِمَّن عُرِفت بكُنْيتها ولم يُعْرَف اسمُها، وكان قد تزوَّجها عُتَيبة بن أبي لَهَب ثم فارقها قبل دخوله بها لَمّا طلب ذلك أبو لَهَب مِنه، وتَزَوَّجها بعدَهُ عثمان ابن عفان رضي الله عنه في السّنة الثالثة من الهِجرة بعد موت أُختِها رُقَيَّة، ولذلك عُرِف عثمان بـذِي النُّورَين. لم تَلِد له أُمّ كُلثوم واستَمَرَّت عِندَه حتى ماتت رضي الله عنها سنة تسع من الهجرة ودُفِنَت بالبقيع. وقول الناظم: **(زَكَـتْ رَضِيَّهْ)** أي عاشت مَرضِيّة، وهو حشوٌ كَمَّل الناظم به الوزن.

أزواج رسول الله ﷺ وءاله

٤٢- عَنْ تِسْعِ نِسْوَةٍ وَفَاةُ الْمُصْطَفَى خُيِّرْنَ فَاخْتَرْنَ النَّبِيَّ الْمُقْتَفَى
٤٣- عَائِشَةٌ وَحَفْصَةٌ وَسَوْدَةُ صَفِيَّةٌ مَيْمُوْنَةٌ وَرَمْلَةُ
٤٤- هِنْدٌ وَزَيْنَبٌ كَذَا جُوَيْرِيَهْ لِلْمُؤْمِنِينَ أُمَّهَاتٌ مُرْضِيَهْ

(**عَنْ تِسْعِ نِسْوَةٍ**) أي زوجاتٍ كانت (**وَفَاةُ الْمُصْطَفَى**) ﷺ، وقد تزوَّج في حياته أكثر من ذلك. فعدد زوجاته اللاتي دخل بهِنّ اثنتا عشرة، وقيل: إحدى عشرة، فمَن قال: «هُنّ اثْنَتَا عشرة» فقد أدْخَل فِيهِنّ ريحانةَ، ومن قال إحدَى عَشْرَة فقد أخْرَجَها. وقد تَزَوَّج ﷺ بهنّ على الترتيب الآتِي:

١- خديجة بنتُ خُوَيلد.
٢- ثم سَوْدَة بنت زَمْعَة.
٣- ثمّ عائشة بنت أبي بكر الصِّدّيق.
٤- ثمّ حَفْصة بنت عُمَر، وقيل: تزَوَّجها قبل سَوْدة.
٥- ثُمّ زينب بنت خُزيمة الحارِثية.
٦- ثُمّ أُمُّ سَلَمة هِندُ بنت أبي أُمَيَّة.
٧- ثُمّ زينب بنت جَحْش.
٨- ثُمّ جُوَيرِيَة بنت الحارث الْمُصْطَلِقِيّة.
٩- ثُمّ أُمُّ حَبِيبةَ رَمْلَةُ بنت أبي سُفيان.
١٠- ثُمّ صَفِيّة بنت حُيَيّ بن أَخْطَبَ.
١١- ثُمّ مَيمُونة بنت الحارث.

(**خُيِّرْنَ**) أي خَيَّر النبيّ ﷺ زَوجاتِه بين اختيار زينة الدنيا ومفارقته وبين اختيار الآخرة والبقاء في عصمته (**فَاخْتَرْنَ**) جميعهُنّ (**النَّبِيَّ**)

مُحمَّدًا (**الْمُقْتَفَى**) أي الْمُتَّبَعَ.

وبَدْءُ الأمر في ذلك أنَّ نساءه سَأَلْنَه من عَرَض الدّنيا ومتاعها أشياء وطَلَبْن منه زيادة في النَّفقة وتَغايَرْنَ عليه[1] فَغَمّ ذلك النبيّ ﷺ فهَجَرَهُنَّ شهرًا، فنَزَل قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾، فبدأ رسول الله ﷺ بعائشة فقال لها: «**إني ذاكِرٌ لكِ أَمْرًا، فلا عليكِ أن تَسْتَعْجِلي حتى تَسْتَأْمِري أَبَوَيكِ**»، ثم ذَكَر لها تَمام الآيَتَين، قالت عائشة: فَفِي أَيِّ هذا أَسْتَأْمِر أَبَويّ؟ فَإِنّي أريدُ اللهَ ورسولَه والدارَ الآخِرة. وقد فعَلت أزواجه ﷺ مثل ما فعَلَتْ عائشة رضي الله تعالى عَنْهُنّ.

(**عَائِشَةُ**) بنتُ أبي بكر الصديق عبدِ الله، ويقال له: عَتِيق بن أبي قُحافة، وأمُّها أُمُّ رُوْمَان بنت عامر بن عُوَيمِر. هاجَرَت عائشة مع النبي ﷺ وتزوَّجَها بعد الهجرة، وقيل: بل في شوالِ سَنةِ عَشْرٍ من النُّبُوّة قبل مُهَاجَرِه إلى المدينة بِسَنَة ونِصفٍ أو نحوِها. وكانت رضي الله عنها بِكْرًا ولم يَنْكِح بِكْرًا غيرَها، ولم تَلِد له ولا غيرُها من نسائه الحَرائر سوى خديجة بنت خويلد، كما تقَدَّم. وقد نَكَحها ﷺ وهي ابنة سِتٍّ، وقيل: سَبع سِنين، وبنَى[2] بها وهي ابنة تِسع سِنينَ، وتُوُفِّيّ عنها ﷺ وهي ابنة ثمان عَشْرَة. تُوُفِّيت في شهر رمضان ليلة الثلاثاء لسبع عشرة ليلةً مَضَت منه وذلك في سنة ثمان وخمسين من الهِجرة، وصلَّى عليها أبو هريرة رضي الله عنهما وكان في ذلك الوقت نائبًا لِوالِي المدينة مَروان بن الحَكَم، ودُفِنَت بالبقيع رضي الله عنها.

(**وَحَفْصَةُ**) بنتُ عمر بن الخطاب بن نُفَيل بن عبدِ العُزَّى، وأُمُّها

(١) أي غارَت بعضهنّ مِن بعض.

(٢) أي دخل بها.

زينب بنتُ مظعون بن حَبِيب. وُلِدَت قبل بعثة النّبيّ ﷺ بِخَمْس سنين، وكانت قبلَه تحت خُنَيس بن حذافة فتُوُفِّي عنها وتزَوَّجَها النبي ﷺ في شعبان على رأس ثلاثين شهرًا مِن الهِجرة قبل أُحُدٍ في سنة ثلاثٍ، وقيل: سنة اثْنَتَين.

وتوفيت في شعبان سنة خمس وأربعين في خلافة معاوية وهي ابنة ستين سنة وصلى عليها مروان ودفنت بالبقيع.

(**وَسَوْدَةُ**) بنت زَمْعة بن قيس بن عبد شمس، وأُمُّها الشُّموس بنتُ قَيْس بن زيد. تزَوَّجها ﷺ بعد الهجرة، وقيل: في شوال قبل مُهاجَره إلى المدينة بعد وفاة خديجة رضي الله عنها، وكانت قبلَه تحت السَّكْران بن عمرو فأسلَم وتوُفِّي عنها. تُوُفِّيت رضي لله عنها في خلافة معاوية سنة أربع وخمسين بالمدينة، وقيل إنه ﷺ تزَوَّج عائشة قبل سَوْدة، والصحيح أنه تَزَوَّجَها في شَوّال إلا أنه لم يَدْخُل بعائشة إلّا بعدَ سَنَتَين أو ثلاث.

وَ(**صَفِيَّة**) بنتُ حُيَيّ بن أَخْطَب مِن نَسْلِ هارون النبيّ ﷺ، وأُمُّها بَرَّةُ بنت سموءل. كانت صَفِيَّةُ تحت سَلَام بن مِشْكَم ثم تزوَّجَت بكِنانةَ بن الربيع بن أبي الحُقَيْق فَسَباها النبيّ ﷺ في خَيْبر وهي عروسٌ وكان سِنُّها نحو سبعَ عشرة سنة فأَعْتَقَها ثمّ تَزَوَّجها بعد مَرْجِعِه مِن خيبر. وكان يَقْسِم لَهَا وَلِجُوَيْرِية بنتِ الحارث. تُوُفِّيت رضي الله عنها سنة اثنتين وخمسين من الهجرة في خلافة معاوية بن أبي سفيان، وقيل: سنة خمسين، ودُفِنت بالبقيع.

وقد جرَى الناظم على التنوين في «عائشة» و«حَفصة» و«صَفِيّة» مِن أجل ضرورة النّظم.

و(**مَيْمُوْنَة**) بنت الحارث بن حَزْنٍ، وقيل: كان اسمُها بَرَّة وقد غَيَّر لها النبيّ اسمَها. أُمُّها هِند بنت عَوف بن زهير، وكانت مَيمُونةُ تحت مسعود بن عمرو الثقفي في الجاهلية وفَارقها ثم تَزَوَّج بها أبو رُهْم ابن

عبد العُزَّى بن أبي قيس وتُوُفِّي عنها فتَزَوَّجها النبي ﷺ، وهي ءاخِرُ نِسائه تَزَوُّجًا وَمَوْتًا، وقيل: إنها ماتت قبل عائشة رضي الله عنها، وهي خالة عبد الله بن عباس. وقد نَكَحَها رسول الله ﷺ سنةَ سبع عامَ عُمْرة القضاء. تُوُفِّيَت سنة إحدى وستين في خلافة يزيد بن معاوية وكان عمرها نحو ثمانين سنة أو إحدى وثمانين، ودُفِنَت بِسَرِفٍ في القُبّة التي بَنَى بها فيها رسول الله ﷺ، وقيل ماتت بمكة ونُقِلَت إليها. والتنوين في «مَيمُونة» في النظم للضرورة.

(وَ)أُمُّ حَبِيبةَ (**رَمْلَةُ**) بنتُ أبي سُفْيان صَخْرِ بن حَرْبِ بن أُمَيَّة، وأُمُّها صَفِيَّةُ بنت أبي العاص بن أُمَيَّة. كانت رضي الله عنها تحتَ عُبَيد الله بن جَحْش بن رِئاب، فتُوُفِّي بأرض الحبشة بعد أن ارْتَدَّ، فتَزَوَّجها النبي ﷺ سنة سَبْعٍ من الهجرة، وهي التي أَصْدَقَها النَّجَاشِيُّ عن النبيّ ﷺ مَهْرَها أربعمائة دينار، وكان لها يومَ قَدِمَ بها النبيُّ المدينةَ بِضعٌ وثلاثون سنة، وتُوُفِّيت سنة أربع وأربعين في خلافة أخيها معاوية.

وَأُمُّ سَلَمَةَ (**هِنْـدٌ**) بنتُ أَبِي أُمَيَّة سُهَيل بن الْمُغِيرة، وأُمُّها عاتكة بنت عامر. كانت قُرَشِيّةً مَخْزُوميّةً، وكانت قَبْلَه تحت أبي سَلَمة عَبدِ الله بن عبد الأَسَدِ فتُوُفِّي عنها وتزَوَّجها النّبيُّ ﷺ في شوال سنة أربع. تُوُفِّيَت في ذي القعدة سنة تسع وخمسين وكان لها يومَ ماتت أربع وثمانون سَنَة وصَلَّى عليها أبو هريرة ودُفِنَت بالبقيع.

(**وَزَيْـنَب**) بنتُ جَحْش بن رِئاب بن يَعْمُر، هي بنت عمَّة النبيّ ﷺ فأُمُّها أُمَيمة بنتُ عبد المطَّلِب بن هاشِم. كانت تحت زَيد بن حارثة بن شُرَحْبِيل ثم تَزَوَّجها النبيّ ﷺ في ذي القعدة سنة خمس مِن الهجرة وهي يومئذ بنت خمس وثلاثين سنة. تُوُفِّيت وهي ابنة ثلاث وخمسين سنة وصلَّى عليها عُمر بن الخطاب رضي الله عنه ودُفِنَت بالبقيع، وهي أوّل أزواجِه موتًا بَعْدَه ﷺ.

وقد أطعم ﷺ حين بِنائه بِهَا خَلْقًا كثيرًا مِن طعام قُدِّم إليه في قَصْعَة

أَهْدَتها إليه أُمُّ سُلَيم سَهْلَةُ بنت ملحان وهي أُمُّ أَنَس خادِمِه، فَلَمَّا رُفِعَ الطعام من بينهم وقد شَبِعوا وُجِدَ كمَا وُضِعَ أو أَكْثَر.

وقد طَعن بعض الكفار فيه ﷺ بقولهم: «إن محمدًا احتال على زيد ابن حارثة لما عَلِقت نفسُه بزوجته زينب بنت جحش حتى تَوَصَّل لزواجها».

والجواب: أنَّ زينب لم تكن معرفتُه بها جديدة لأنها بنتُ عَمَّتِه أُمَيمة كما ذكَرنا، وكان رسول الله ﷺ أراد أن يُزَوِّجها زيدَ بن حارثة مَوْلَاهُ فكَرِهت ذلك ثم رَضِيت بما صنع رسول الله ﷺ فزَوَّجَها إيّاه. ثُمَّ أَعْلَم الله عَزَّ وجل نَبِيَّه ﷺ أنها تكون مِن أزواجه فكان يَسْتَحْيِي أن يَأْمُره بطلاقِها وكان لا يزال يكون بين زيد وزينب ما يكون بين الناس مِن خصومات، فأَمَرَه رسول الله ﷺ أن يمسك عليه زَوْجَه وأن يَتَّقِي الله، فقال زيد: يا رسول الله، إنَّ زينب اشتَدَّ عَلَيَّ لسانها وأنا أريد أن أطَلِّقَها، فقال له: اتَّقِ الله وأَمْسِكْ عليك زوجَك. فالنبيّ ﷺ كان يُخْفِي ما أُخبِر بوحي أنَّ زَينَب سَتَصِير زوجته، والذي كان يحمله على إخفاء ذلك خَشْية قول الناس «تَزَوَّج امرأة ابنِه» أي الذي تَبَنّاه قبل التحريم، وأراد الله إبطال ما كان عليه الناس قبل البِعثة من أحكام التَبَنّي بأمرٍ لا أبْلغَ فِي الإِبْطَالِ مِنْهُ وهو تَزَوُّج امرأةِ الذي يُدْعَى ابنًا له. ثُم لَمَّا أنزل الله في ذلك قولَه: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ أَظْهَر ﷺ ذلك فتلاه على الناس قرءانًا، وبهذا يَظْهَر ويَتَّضِح أنه ﷺ لو كان مُتَعَلِّق القلب بالنساء كان غلب عليه ذلك التَّعَلُّق فعَدَّد الزواج بالكثير مِن النساء قبل بلوغ خمسين عامًا مِن عُمره.

وما ذُكِر إنَّما كان في زَيْنَب بنتِ جَحْش، أمّا زَينبُ بنت خزيمة بن الحارث زوجَتُه الأُخْرَى ﷺ، فقد ماتت قبلَه في ءاخر شهر ربيع الآخر على رأس تِسعة وثلاثين شهرًا مِن الهِجْرة، وصَلَّى عليها النبيّ ﷺ، ودُفِنَت بالبقيع.

(**كَـذَا**) مِن زوجاتِه التي تُوُفِّي عنهُنّ ﷺ (**جُوَيـرِيَهْ**) بنتُ الحارث بن أبي ضِرار مِن خُزاعة، وقيل كان اسمُها بَرَّة فسَمَّاها النبيّ جُوَيرِية. وكانت تحت مالِك بن صفوان، وقيل: مُسافِع بن صفوان، فقُتِل يوم الْمُرَيسِيع أي غزوة بَنِي الْمُصْطَلِق وتَزَوَّجَها النبي ﷺ بعد أنْ أَعْتَقَها وأَسْلَمَت، وذلك بعد غزوة الْمُرَيْسِيع، وكانت وقتئذٍ ابنة عشرين سنة. توفيت وهي ابنة خمس وستين سنة في شهر ربيع الأول من سنة سبع وخمسين في خلافة معاوية، وقيل: سنة ستين، وصَلَّى عليها مروان بن الحَكَم وَالِي المدِينة.

ونساؤُه ﷺ هُنَّ (**لِلْـمُـؤْمِنِينَ أُمَّـهَاتٌ**) بدليل قول الله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾، وتسمِيَتُهُنّ بأمهات المؤمِنِين هو من باب الحُرمة والتوقير والتعظيم لَهُنّ، وَلِمَا لَهُنّ من خصائص دون غيرِهِنّ وعليهن أحكامٌ خاصّة بِهِنّ في الشرع. وكُلٌّ واحِدة مِنهُنّ (**مُرْضِيَهْ**) للهِ ربِّ العالَمِين وطائعة لرسُوله الكريم.

أعمام النبي وعماته
صلى الله عليه وعلى ءاله وصحبه وسلم

٤٥- حَـمْـزَةُ عَـمُّـهُ وعَـبَّـاسٌ كَـذَا عَـمَّـتُـهُ صَـفِـيَّـةٌ ذَاتُ احْـتِـذَا

وأمّا أعمام النبيّ ﷺ فاختُلِف في عددهم، فقيل: اثنا عشر، وقيل: عشرة، وقيل: تسعة. وعلى القول الأوّل هم:

١- **(حَـمْـزَةُ)** بن عبد المطلب أسدُ الله الشهيدُ **(عَـمُّـهُ)** أي عمُّ النبيّ ﷺ وأخوه من الرضاعة. كان يُكنى أبا عمارة وأبا يَعْلَى أيضًا بابْنَيْه عمارة ويعلى. أُمُّه هالَةُ بنت وهب ابن عبد مناف، وكان رضي الله عنه أكبر مِن رسول الله ﷺ بأربع سنين، وقيل: بِسَنَتَين.

٢- **(وعَـبَّـاسٌ كَـذَا)** أي العبّاس عَمُّه أيضًا وهو جدّ الخلفاء العبّاسيين. أُمُّهُ نُتَيْلَة بنت جَناب بن كُلَيب، ويقال: إنها أوّل عربية كَسَتِ البيت الحرام الدِّيباجَ وأصناف الكِسوة لأنّ العباس ضَلّ وهو صَبِيّ فنَذَرَت إنْ وَجَدَتْه أن تَكْسُوَ البيت. أَسْلَم العبّاس رضي الله عنه وحَسُن إسلامه وأَرْغَم النّاس بإسلامه وذلك أنّه لَمَّا أسلم شَقَّ على كفار قريش وعلموا أنَّ إسلامه عزٌّ ومَنَعةٌ لرسول الله ﷺ. كان طويلًا جميلًا أبيض، وقد تُوفِّي رضي الله عنه وأرضاه بالمدينة في رجب أو رمضان سنة اثنتين وثلاثين من الهجرة.

٣- **والزُّبَير**: وكان من أشراف قريش، رئيسَ بني هاشم، شاعرًا، ولم يدرك بعثة النبيّ، وكان شقيقًا لِعَبْد الله والد النّبيّ لِأَبِيه وَأُمِّه.

٤- **والحَارِث**: وهو أكبر أولاد عبد المطلب، وبه كان يكنى، وأمُّه صَفِيّة أو سمراء بنت جُندب بن جُحَير. مات في حياة أبيه ولم يدرك البعثة.

٥- **وجَحَل**: وقيل هو حَجَل، وأُمُّهُ هالة بنت وهب، ولم يدرك البعثة أيضًا.

٦- **وقُثَم**: وكان شقيقًا للعباس رضي الله عنه، فأُمُّهُما نُتَيْلَة بنت جَناب بن كُلَيب، وقيل: أمُّه صَفِيّة أو سمراء بنت جُندب بن جُحَير. مات صغيرًا، وأسقَطه بعضهم مِن العِدّة.

٧- **وضِرار**: وكان شقيقًا للعباس أيضًا، وقد مات في مبادئ نزول الوحي.

٨- **والغَيْداق**: واسمُه مُصعَب، وقيل: نوفل، وسُمِّي الغَيداق لأنه كان أَجْوَد قريش، والغَيداق هو المطر الكثير، وأُمُّه مُمَنَّعة بنت عَمْرو الخُزاعية.

٩- **والْمُقَوِّم**: كان شقيقًا لحمزة رضي الله عنه. قيل: هو نفسُه حَجَل أو جَحَل.

١٠- **وأبو طالب**: واسمه عبد مناف، وأُمُّه فاطمة بنت عمرو بن عائذ، وهو الذي كَفِل المصطفى ﷺ وَربَّاه بعد وفاة جَدِّه.

١١- **وعبد الكَعبة**: لم يُدْرِك البعثة أيضًا. وقيل: هو نفسُه الْمُقَوِّم.

١٢- **وأبو لَهَب**: واسمه عبدُ العُزَّى، واشتهر بكنيته حيث كناه أبوه بذلك، وأمُّه لُبْنى بنت هاجِر بن خزاعة مِن بني ضاطِرة. وقد نَزَلَت سورة كاملة في ذَمِّه هي سورة «الْمَسَد».

وخُلاصة القول في عَقِب أعمامه وإسلام مِن أسلَم منهم هو الآتي:

- لم يُعَقِّب مِن أعمامه ﷺ الذكورِ إلا أربعة: الحارث والعباس وأبو طالب وأبو لَهَب.

- ولم يدرك زمن الإسلام منهم غير أربعة: أبو طالب وأبو لهب وحمزة والعباس.

- ولم يُسْلِم منهم إلا اثنان: حمزة والعباس.

- أمّا عبد الله والد رسول الله ﷺ فلم يكن له وَلَد غيرُ رسول الله ﷺ لا ذكر ولا أنثى.

وأمّا عَمّاتُ المصطفى ﷺ فستَّة:

١- **عاتكة**: وقد اختُلِف في إسلامها، وأُمُّها هي فاطمة بنت عمرو بن عائذ، فتكون شقيقة عبد الله والد النبيّ ﷺ وأبي طالب والزبير وعبدِ الكعبة. وهي صاحبة الرؤيا في قصة بدر.

٢- **وأُمَيمة**: لم تُسْلِم، وأُمُّها فاطمة بنت عمرو بن عائذ أيضًا. كانت تحت جَحْش بن رِئاب فَوَلَدت له عبدَ الله وعُبيدَ الله وأبا أحمد وزينب وأُمَّ حبيبة وحَمْنة.

٣- **والبيضاء**: وهي أُمُّ حكيم، لم تُسْلِم، وهي شقيقة عبد الله والد النبيّ ﷺ.

٤- **وَبَرَّة**: لم تُسْلِم، وأُمُّها فاطمة بنت عمرو بن عائذ. كانت عند أبي رُهْم بن عبد العُزَّى العامِريّ، ثم تَزَوَّجها عبد الأسد بن هلال المخزوميّ بَعْدَه فولدت له أبا سلمة الذي كانت عِندَه أُمُّ سَلَمة قَبْلَ النَّبِيّ ﷺ.

٥- و(**عَمَّتُهُ صَفِيَّة**) أسْلَمَت باتِّفاق. شَهِدَت الخندق وقَتَلَت رَجُلًا من اليهود، وَضَرب لها ﷺ بِسَهْم مِن الغنائم. أُمُّها هالة بنت وُهَيب بن عبد مناف، شقيقةُ حمزةَ والْمُقَوَّم وحَجَل، وكانَت صَفِيَّةُ في الجاهلية تحت الحارث بن حربِ بن أُمَيَّة ثُم هَلَك فتزوَّجها العَوَّامُ بن خُوَيلِد أَخُو خَدِيجة أُمّ المؤمنِين رضي الله عنها فوَلَدت له الزُّبَير والسائِب وعبدَ الكعبة. تُوُفِّيت رضي الله عنها بالمدينة في خلافة عمر رضي الله عنه سنة عشرين للهجرة ولها ثلاثٌ وسبعون سنة، ودفنت بالبقيع.

٦- **وأَرْوَى**: اختُلِف في إسلامها، وأمُّها صَفِيَّة بنتُ جُندب أُمُّ الحارث بن عبد المطّلب. كانت تحت عُمَير بن وَهب فوَلَدت له طُلَيبًا، ثم تزوَّجها كَلَدَة بن عبدِ مناف بن عبدِ الدَّار. أَسْلَم وَلَدُها طُلَيب وقيل

إنّه كان سَبَبًا في إسلامها.

وليس يثبت لأحد مِنهّن إلا لِصَفِيَّةَ أنّها كانت (**ذَاتُ احْتِذَا**)ءٍ أي اتِّباعٍ للنبيّ محمَّد ﷺ على الإسلام، فهي التي أسْلَمَت مِن بين عَمَّاتِ النبيّ ﷺ بلا خلاف فيها.

لا يُخَفَّف العَذابُ عن أبي لَهَب بعد دخول النّار

ثبَت في سِير النبيّ المصطفى محمَّد ﷺ أنّ مِن أشَدّ قُرَيشٍ عداوة جِيرَانُه الكُفّار ومِنهُم أبو جهل عمرو بن هشام بن المغِيرة وعَمُّ النبيّ أبو لهب عبد العُزَّى بن عبد المطَّلِب، لكن لم تَنزِل سُورة مُفرَدةً كاملةً في ذمّ كافِرٍ سوى أبي لهب، وهي سورة المسَد، حيث ذَمّه الله تعالَى وذَمّ امرأته أُمّ جميل وأوعَدَهُما العذاب الأليم.

وكان أبو لهب قد مات في حياة المصطفى شَرّ مِيتة، فقد أصابَه داء العَدَسة[1] في مكة وهو على دين المشرِكين بعد معركة بَدْرٍ بسبعة أيام، وكان قد بَلَغَه خَبَرُ بَدْرٍ لكن لم يَشْهَدْها.

وقد جاء في صحيح البخاريّ مِن كَلام عُروة بن الزُّبَير ما نصُّه: «**وثُويبة مولاةٌ لأبي لهَب، كان أبو لهب أعتَقَها فأَرْضَعَتِ النبيَّ ﷺ، فلَمَّا مات أبو لهب أُرِيَهُ بَعْضُ أهلِه بِشَرّ حِيبة، قال له: ماذا لَقِيتَ؟ قال أبو لَهَب: لم أَلْقَ بَعْدَكُم[2] غيرَ أَنِّي سُقِيتُ في هذِه بِعَتَاقَتِي ثُوَيْبَةَ**»، وكان أبو لَهَب قد أعتَق مملوكَته ثُويَبة حين وُلِد النبيّ فرَحًا به واستبشارًا، لكن لَمّا نشأ النبيّ على الإسلام ونُبِّئ ولم يَكُن على الشّرك في حياتِه قَطُّ ولا شِرّيرًا كقَومه عادَوه وءاذَوه لِيَمْنَعُوه من تبليغ دعوة

(١) وهي بَثْرة تُشْبِه العدسة تخرج في موضع مِن الجسد تُشبِه الطّاعون، تَقْتُل صاحِبها غالِبًا.

(٢) وفي رواية الإسماعيلي: «لَم أَلْقَ بَعْدَكُم رَخاءً»، وعند عبد الرّزّاق عن مَعْمَر عن الزُّهري: «لَمْ أَلْقَ بَعْدَكُم رَاحَةً». قال ابنُ بَطّال: سَقَط المفعول مِن رواية البخاري ولا يَسْتَقِيم الكلامُ إلّا بِه.

الإسلام والحثّ وجوه البِرّ.

ولْنَبْسُط الكلام على هذا الحديث مِن وجوه أربعة:

الأوّل: ثبوت وفاة أبي لهب على الكفر:

يُثبِت نصّ الحديث أنّ أبا لَهَبٍ رُؤِيَ كَونُه في عذاب بدليل قولِه «**بِشَرِّ حِيبة**» أي في حالة سيّئة جِدًّا، وتلك هي حالة العذاب التي يُقاسيها، مع أنّ دليلنا على كَون أبي لَهَب مِن المعذَّبين هو صريح قول الله تعالَى في حال أبي لَهَب: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾، فلم نحتَج بعد هذه الآية إلى الاعتضاد بكلام عُروَة لنَفْسِه، فكَفَى بكلام الله وحديث رسولِه ﷺ دليلًا.

الثّاني: امتناع تخفيف العذاب عن الكافر في النّار:

لا يصحّ القول بتخفيف العذاب عن الكافر في النّار لأنّ ذلك يُصادِم صريح الآيات القطعيّة المفهوم والمنطوق التي لا مجال إلى إخراجها عن ظاهرها كقول الله تعالَى في الكلام على الحال الكافِرين في النّار: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾، وقولِه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝١٦٢﴾ فلا يُمْهَلون أو لا يُنْتَظَرون ليعتذروا أو لا يُنْظَر إليهم نَظَر رحمة، كذلك قال أبو الليث السمرقنديّ والبيضاوي والرازيّ وابن الجوزيّ والنسفيّ وأبو السُّعود، والآيات في ذلك كثيرة.

وقد يُورَد على ما ذكرناه أمْرَان:

١- «ال» في «العذاب» مِن الآية: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾:

فلو قال قائل: «إنّ «ال» هنا تَدُلّ على أنّ المعهود مِن العذاب في النّار والذي هو أقلّ ما يقال فيه «إنّه عذاب» حاصلٌ لجميع الكافِرين لا ينقطع عنهم بحيث إنّه لا يخلو لهم وقتٌ عن عذاب، وأمّا أنّ درَجَة ذلك العذاب تُخَفَّف إلى حَدٍّ يبقى سائغًا إطلاق تسمية الشيء الواقع عليهم «عذابًا» فهو جائز الحصول».

قلنا: هذا الكلام مردود مِن طريقَين:

الأوّل: عدم وجود ما يَدُلّ على هذا التخصيص المفروض، وإن لم يكن التخصيص لِدليل لم يَكُن مقبولًا، فتخصيص العموم نوع مِن التأويل الذي هو إخراج النصّ عن ظاهرِه لدليل مقبول.

الثّاني: استدلالنا بقول الله تعالَى: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ أي جَهَنَّم، فأقلّ نوع مِن أنواع العذاب في النّار يُسَمَّى «عذابَها"، فدلّت الآية على أنّه لا يُخَفَّ نوع مِن الأنواع.

٢- النّكَد مُصاحِب للعذاب الحِسّيّ في النّار:

ولو قال قائل: «قد ثبَت أنّ الكُفّار ينادون خازن النار فيقولون: «يَا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ» فيأتيهم الجواب بعد ألف عامٍ مِن الانتظار في العذاب الدائم بقولِ مالِكٍ: «إِنَّكُم ماكِثُون»، فيَنتهي جواب مالِك وينقضي النَّكَد الذي حصَل لهم مِن الانتظار ومِن جواب مالِكٍ لهم، فإنّ النَّكَد الذي هم فيه والكَلام الذي سَمِعوه فيه تعذيب لهم، وقد انقطع عنهم الانتظار كما انقضَى كلام مالِك».

قُلنا: لا يَلزَم مِن انقضاء انتظارهم الجوابَ وفراغ مالِكٍ مِن كلامِه أن يكون ذلك النَّكَد الذي أصابَهم قد طار عنهم، بل النَّكَدُ واقِع في نفوسهم لا يُفارِقهم بحيث لا يأتي عليهم وقت يقال فيه: «إنّهم خلَوا عن النَّكَد»، لأنّ راحة النَّفْس والطمأنينة مِن لوازم زوال النَّكَد والخَوف والقَلَق، ولا يَنال الكافِر شيء مِن الرّاحة في جهنّم كما يُعلَم ذلك مِن قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ أي لا يَحْيَا حياةً فيها راحةٌ، كذا فسَّره مشاهير المفسّرين كأبي الليث وابن الجَوزي والفخر الرازيّ وأبي حَيَّانَ والبيضاويّ وغيرهم، فدلّ ذلك على أنّهم لا شكّ في نَكَد مُتسمِرّ لا يَخِفّ ولا ينقَطِع بل يُصاحِبُهم، وعلى هذا يدلّ قول الله تعالَى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ وقول الله تعالَى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾.

الثّالث: أسباب التخفيف المزعوم للعذاب عن أبي لَهَب:

قد عُلِمَ مِمّا بيّنّاه استحالة تخفيف العذاب عن أبي لَهَب بعد دخوله النّار، وأمّا دَعوَى أنّهُ يُخَفّ عنه العذاب كلّ يوم اثنين فذلك باطل كما أسلَفْنا ولكنّ له دَواعِيَ يَزعُمها القائلون بذلك، وهذه الدواعي والأسباب منحصرة في أمرَين: إمّا أن يقال إنّ سبب التخفيف عنه هو عِتقُه ثويبة، أو أنّه لِقَرَابَتِه النبيّ ﷺ، والأمران باطلانِ للآتي:

١- كون سبب التخفيف المزعوم عِتْقَهُ ثُوَيبة: هو أمر باطل لأنّ الكافر لا يُجزَى في الآخِرة بشيء مِن الأعمال الحسَنة عَمِلَها، بدليل قول الله تعالَى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ أي لم يَنالوا ثوابًا على ذلك لِيَلقَوا جزاءَه الحسَن في الآخرة، بل هم عن الْمَثُوبة الأخرويّة ممنوعُون، ويؤيِّد ذلك ويشرحه قول النبيّ ﷺ فيما رواه ابن حِبّان في صحيحه وغيرُه: «**وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الْآخِرَةِ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُعْطَى بِهَا خَيْرًا**».

٢- أو كون سبب التخفيف المزعوم أنّه عَمُّ النبيّ: وافتراض ذلك سببًا باطل أيضًا، فقد ثَبَت أنّه حين نزَلَ قول الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ﴾ أي يا محمَّد ﴿عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ دعا رسولُ الله ﷺ قريشًا فاجتمُعوا، فعَمَّ وخَصَّ، فقال ﷺ: «**يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ الله لا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ الله شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ الله شَيْئًا، يا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ الله شَيْئًا، يا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رسُولِ الله لا أغْنِي عَنْكِ مِنَ الله شَيْئًا، يا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي ما شِئْتِ لا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ الله شَيْئًا**»، وهذا الحديث رواه البخاري ومسلم في الصحيحين وغيرُهما.

فإن قيل: «هذا الخبر عامّ لكن ثبَت في أحاديث أخرى أنّ النبيّ يشفع يوم القيامة أيضًا، فلِمَ لا يكون المعنَى أنّ النبيّ لا ينفعهم بدون شفاعة، أمّا مع الشفاعة لهم فينتفعون».

قلنا: الشّفاعة لا ينالها الكافِر ألبتّة، وعلى ذلك دلّ صريح قوله تعالَى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ إنما ذلك لأنهم كفار. قال ابن جُزّي الكلبي: «وأجمَعَ العلماء أنه لا يَشْفَع أَحَدٌ فِي الكُفّار» اهـ، ومثل ذلك يقال في قول الله تعالَى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ أي ليس للّذِين يُشرِكون بالله شفاعةٌ في الآخِرة فتنفعهم.

وقد قال القاضي عياض في «الإكمال»: «انْعَقَد الإجماع على أنّ الكُفّار لا تَنْفَعُهم أعمالُهم ولا يُثابون عليها بِنَعِيمٍ **ولا تَخْفِيفِ عَذابٍ، وإن كان بعضُهم أَشَدَّ عذابًا مِن بعض بحسَب جرائمهم**» اهـ.

الرّابع: رؤيا غير الأنبياء لا تَنسخُ حُكمًا شرعيًّا ولا تأتي بحُكمٍ جَدِيد:

معلوم عند الأصوليّين أنّ النّسخ، وهو رفع حُكم شرعيّ سابِق بحُكم جديد، لا يكون إلا في حياة رسول الله ﷺ، لأنّ النسخ هو بوحي مِن الله، وقد خَتَم الله الرّسالة والنُّبوّة بمحمَّد فلا يُخَفّف ولا يُشَدّد ولا يُبَدّل ولا يُوقف شيء مِن أحكام الشريعة التي ثبتت بوفاة النبيّ ﷺ. فإذا كان العلماء الحَقِيقِون بالاجتِهاد في نُصوص الشرع كأبي حنيفة ومالِك والشافعيّ وأحمد بن حنبل ليس لهم الحقّ في الاجتهاد بما هو مقطوع به مِن الأحكام الشرعيّة بنصّ قرءانيّ صريح أو حديثيّ ثابت عِندَهم أو إجماع مَن سَبَقَهُم إلى حُكم شرعيّ، فكَيف تكون الرؤيا المناميّة لفرد مِن غير الأنبياء ناسِخة لِحُكم شرعيّ قطعيّ الثبوت؟! فهذا لا يصحّ ولا يكون.

ثمّ إنّ حصول الرؤيا المناميّة مَنُوط برؤيا الرُّوح للمرئيّ، وليس يستحضر الشخص ما رءاه لِيُخبِرَ به إلا إذا أفاق وعاد إلى اليَقَظة بعد النّوم، وغَلَطُ الوهم في ذلك مُحتمِل غير مُستبعَد، إذ قد يقع للشخص في نفسِه بسبب وسوسة الشيطان أو غير ذلك أنه رأى كذا وكذا مِن الْمَرَائِي ولا يكون الأمر منه في الواقع إلا تَوَهُّمًا وَظَنًّا قد خالَجَ القلب فسَكَنه.

وقال القسطَلّاني في شرحه على صحيح البخاري ما نصُّه: «واستُدِلّ بهذا على أنّ الكافر قد يَنْفَعُه العملُ الصالحُ في الآخرة **وهو مَردُودٌ بظاهر قوله تعالى**: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾، لا سِيَّما والخبرُ مُرْسَل[1] أرْسَلَهُ عُرْوةُ ولم يذكر من حدّثه به وعلى تقدير أن يكون موصولا فلا يحتج به إذ هو رؤيا منام لا يثبت به حكم شرعي».

وكذلك وإن كان الرائي هو العبّاسَ رضي الله عنه عمَّ النبي ﷺ، كما جاء ذلك عند غير البخاريّ، فهذا لا يعني أنّ رؤياه تَنسَخ حُكمًا شرعيًّا سواء كان ذلك في حياة النبيّ أو بَعدها، والحُكم الشرعيّ في هذه القضيّة - كما بيّنا مِرارًا - أنّ الكافِر لا يُخَفَّف عنه شيء من العذاب في النّار قطعًا. ثمّ وإن سَلَّمنا أنّ الرائي هو العبّاس، مع قطع النّظر عن كون الخبر مِن مُرسلِ عُروة الذي لم يُذكَر مَن الذي حَدَّثه به، وعلى تقدير كون الخبَر موصولًا فإنّ العبّاس لم يَكُن على الإسلام حين رأى تِلك الرؤيا على حسب بعض التأريخات، فقد قيل إنّه أسلم قبل بدر وقيل بعدها وقبل الفتح، وإنّ أبا لَهَبٍ مات بعد غزوة بدرٍ بتسعة أيّام، فعلى هذا يحتمل أن يكون العبّاس قد رأى تلك الرؤيا وهو على الكفر بعد. ثمّ إنّه لا يبعُد على الشيطان أن يأتي متشكِّلًا في المنام بصورة أبي لَهَب ويقول للرائي ما قاله.

ولا عِبرة بادّعاءِ مُدَّعٍ أنّ هذه الرؤية فيها بشارة لأبي لَهَب بسبب أنّه استَبْشَر بوِلادِة الرَّسولِ وذلك أمر عَظِيم كالاحتفال بولادة النبيّ الذي أجازَه جميع المسلِمين، وإن كان ذلك وارِد في بعض كُتُب السِّيرة، فقد قال الشيخ عبد الله الغُمَاري: «ما يُوجَد في كتب المولد النبوي من أحاديث لا خطام لها ولا زمام هي مِن الغُلُوّ الذي نَهَى الله ورسولُه عنه فتَحْرُم قراءة تلك الكتب ولا يقبل الاعتذار عنها بأنها في الفضائل لأنَّ

(١) هو الحديث الذي سقَط مِن إسنادِه الصحابيّ.

الفضائل يَتساهل فيها برواية الضعيف أما الحديث المكذوب فلا يُقْبَل في الفضائل إجماعًا بل تَحْرُم قِراءَتُه ورِوايَتُه» اهـ، وهذا في الضعيف فكيف بالكلام المخالف لصريح القرءان وصحيح السُّنّة وإجماع الأمة. فلْيَتّقِ الله امرُؤٌ يحاول نشر هذه القِصّةِ ونحن ننصح كل من اعتقدها أو صدقها أن يرجع عن هذا الضلال المبين للحق والصراط المستقيم بالنُّطْق بالشَّهادَتَين لأنه قد كَذَّب الله تعالَى بِكلامِه هذا.

الخلاصة: لا يجوز الخروج عن نَصّ القرءان الكريم والحديث الثابت والإجماع لا لأجل رؤية مَناميّة ولا لأجل بعض ما وُجِد في بعض التليف والتصانيف، إذ ليس كل ما في الكتب معتمَدًا، والقرءان الكريم هو العِلم وكل ما خالَف القرءان فليس عِلمًا نافِعًا.

ولا يجوز الاعتماد على هذه الرؤيا المنامِيّة المنسُوبة لابن عباس أو غيره لِما يؤدي إلى تكذيب النصوص القطعية، كما أنه لا يُغتَرُّ بكلام بعض المتصوِّفة الْمُغالِين المعارِضِين للقرءان بقولِهم:

إِذَا كَانَ هَذَا كَافِرًا جَاءَ ذَمُّهُ ... وَتَبَّتْ يَدَاهُ وَفِي الجَحِيمِ مُخَلَّدَا
أَتَى فِي يَومِ الاثْنَيْنِ أَنَّهُ دَائِمًا ... يُخَفَّفُ عَنْهُ لِلسُّرُورِ بِأَحْمَدَا
فَمَا الظَّنُّ بِالعَبْدِ الَّذِي طُولَ عُمْرِهِ ... بِأَحْمَدَ مَسْرُورًا وَمَاتَ مُوَحِّدَا

فَرَدَّ عَلَيهِ أَحَدُ مَشَايِخِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ فَقَالَ:

(**تَبَّتْ يَدَا**) مَن سَبَّ حِبِّيَ أَحْمَدَا ... فَغَدًا يَرَاهُ وَفي الجَحِيمِ مُخَلَّدَا
فَاقْرَأْ هُدِيتَ (**فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ**) ... حَتَّى وَلَوْ سُرَّ الشَّقِيُّ بِأَحْمَدَا
فَالدِّينُ لَا يُؤخَذُ مِنْ رُؤْيَا وَلَا ... مِنْ قَوْلِ شَخْصٍ لِلْمُهَيْمِنِ عَانَدَا
أَمَّا الْمَنَامُ قَضِيَّةٌ مَشْبُوهَةٌ ... مَجْهُولَةُ الرَّائِيْ لِمَا قَدْ وَرَدَا
مَا جَاءَ ذَاكَ عَنِ النَّبِيِّ لِعَمِّهِ ... حَتَّى وَلَا رُؤْيَا رَأَى كَيْ تُسْنَدَا
هَيَّا احْتَفِلْ يَا صَاحِ فِي يَوْمِ الَّذِي ... أَبَدًا بِنَصْرِ اللهِ كَانَ مُؤَيَّدَا
صَلَّى الإِلَهُ عَلَى النَّبِيِّ وَسَلَّمَا ... مَا أَنْشَدَ الشَّادِي وَحَادٍ غَرَّدَا

الإسراء والمعراج

٤٦- وقَبْلَ هِجْرَةِ النَّبِيِّ الْإِسْرَاْ مِن مَكَةٍ لَيْلًا لِقُدْسٍ يُدْرَى
٤٧- وَبَعْدَ إِسْرَاءٍ عُرُوجٌ لِلسَّمَا حَتى رَأى النَّبِيُّ رَبًّا كَلَّمَا
٤٨- مِنْ غَيْرِ كَيْفٍ وَانْحِصَارٍ وَافْتَرَضْ عَلَيْهِ خَمْسًا بَعْدَ خَمْسِيْنَ فَرَضْ
٤٩- وَبَلَّغَ الأُمَّةَ بِالإِسْرَاء وَفَرْضِ خَمْسَةٍ بِلا امْتِرَاءِ
٥٠- قَدْ فَازَ صِدِّيْقٌ بِتَصْدِيْقٍ لَهُ وَبِالْعُرُوْجِ الصِّدْقُ وَافَى أَهْلَهُ

(**وقَبْلَ هِجْرَةِ النَّبِيِّ**) ﷺ مِن مَكَّة إلى المدينة المنوَّرة بأمرٍ مِن الله تعالَى حصل (**الْإِسْرَا**)ءُ **لَهُ** ﷺ (**مِن مَكَةٍ لَيْلًا لِقُدْسٍ**) أي إلى المسجد الأقصى بِبَيت المقدِس، وثبوت حصول الإسراء (**يُدْرَى**) أي يُعلَم قطعًا مِن صريح الآية: .

وقد اتُّفِق على كون الإسراء قبل الهِجرة إلى المدينة واختُلِف في تحديد زَمَنِه على أقوال، مِنها أنّه كان بعد البعثة بعام ونصف، وقيل: قبل الهجرة بخمس سنين، وقيل: قبلها بعام، وقيل غير ذلك.

وفي القصة أنّ النبيَّ ﷺ كان بمكة فجاءه جبريل عليه السلام ليلًا ففتح سَقْفَ بَيْت أُمّ هانئ في حي اسمه أجياد، ولم يهبط عليهم لا تراب ولا حجر ولا شيء، وكان النبي نائِمًا حينها بين عَمِّه حمزة وجعفرِ بن أبي طالب، فأيقظه جبريل ثم ذهب به إلى المسجد الحرام ثم أَرْكَبَه على البُراق[1] خلفه وانطلق به حتى وَصَلا إلى أرض المدينة فقال له جبريل: انْزِل، فنَزَل ﷺ، فقال له جبريل: صَلِّ ركعتين، فصَلَّى

(١) دابة من دواب الجنة، هي نفسها ركبها قبله ءادم وإبراهيم وغيرهما من الأنبياء في أسفارهم، لها أجنحة وحجمها بين الحمار وبين البغل، يخطو كل خطوة من خطاه إلى منتهى طرفه، ولما يأتي على ارتفاع تطول رجلاه وعلى انخفاض تقصر.

ﷺ ركعتين، ثم فَعَل مثل ذلك في طُور سَيناء حيث كان موسى عليه السلام لَمَّا سَمِع كلام الله، ثم انطلق ﷺ فوصل إلى مَدْيَن بَلَدِ نَبِيّ الله شُعَيب عليه السلام، فقال له جبريل: انْزِل فَصَلِّ ركعتين، ففعل، ثم فعل مثل ذلك في بيت لَحْم حيث وُلِد عيسى ابن مريم عليه السلام.

ولَمَّا وصل ﷺ بيتَ المقدس صلى بالأنبياء إمامًا في المسجد الأقصى، فقد جَمَعهم الله له هناك كلهم تَشرِيفًا له، بعثهم الله من قبورهم وقد كانوا ماتوا قبل ذلك ولكنّهم أحياء في قبورهم يُصَلُّون إلا عيسى فلم يَمُت بل كان في السماء حَيًّا وكذلك نبي الله بليا بن ملكان أي الخَضِر فإنه يسكُن البحر وحده على وجه الماء.

وقد شاهد ﷺ في إسرائه مِن مكة إلى بيت المقدس عجائبَ كثيرة، منها:

- رأى الدنيا بصورة عَجُوز.

- ورأى شيئا مُتَنَحِّيًا عن الطريق يدعوه وهو إبليس.

- وشَمَّ رائحة طيبة من قبر ماشطة بنت فرعون وكانت مؤمنة صالحة قتلها فرعون مع أولادها، وذلك لَمَّا عرف فِرعون أنها تعبد الله ولا تشرك به شيئًا ولم تقبل أن تترك الحق.

- ورأى قومًا يزرعون ويحصدون في يومين فقال له جبريل: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله.

- ورأى أُنَاسًا تُقْرَض ألسِنَتُهم وشِفاههم بمقَارِيض مِن نار فقال له جبريل: هؤلاء خُطَباء الفتنة، يعني الذين يَدْعُون الناس إلى الضلال والفساد.

- ورأى ثَوْرًا يخرج مِن مَنْفَذ ضَيِّق ثم يُرِيد أن يعود إليه فلا يستطيع فقال له جبريل: هذا الذي يَتَكَلَّم بالكلمة الفاسدة التي فيها ضرر على الناس وفتنة ثم يريد أن يَرُدَّها فلا يستطيع.

- ورأى أُنَاسًا يَسْرَحُون كالأنعام وعلى عَوراتهم رِقَاع فقال له

جبريل: هؤلاء الذين لا يُؤَدُّون الزكاة.

- ورأى قومًا تُكْسَرُ رؤوسهم ثم تعود كما كانت ثُم تُكْسَرُ ثم تعود وهكذا فقال له جبريل: هؤلاء الذين تتثاقل رؤوسهم عن تأدية الصلاة أي يتكاسَلون عنها.

- ورأى أُناسًا يشربون مِن الصَّدِيد الخارج مِن الزُّناة فقال له جبريل: هؤلاء شَارِبُوْ الخمر الْمُحَرَّم في الدنيا.

(وَبَعْدَ إِسْرَاءٍ) شَرَّفَ الله به نَبِيَّهُ، كان له ﷺ **(عُرُوجٌ)** أي صُعُود **(لِلسَّمَا)**ءِ بِطريق خَرْق العادة، وقد ثبت المعراج بنصّ الأحاديث الصحيحة الثابتة وأما القرءان فلم يَنُصَّ عليه نصًّا صريحًا لا يحتمل تأويلًا لكنه ورَد فيه ما يكاد يكون نَصًّا صَرِيحًا، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾ أي رأى الرسولُ جِبريلَ عليه السلام، وسيأتي الكلام على ذلك قريبًا.

فقد صَعِد النبيّ ﷺ إلى السماوات السبع واحِدة بعد الأخرى حتى بَلَغ سِدرة المنتَهَى، وقد حصل له ذلك بالروح والجسد يَقَظةً لا مَنامًا، وقد صعِدَ من بيت المقدس إلى السماوات على السُّلَّم المرقاة وهي دَرَجةٌ منها مِن فضة والأخرى مِن ذهب. وأما الإسراء به من مكة إلى بيت المقدس فكان بالبراق كما ذَكَرْنا.

وقد زاد الله تبارك وتعالى نَبِيَّهُ تَشرِيفًا بأن مَكَّنَهُ مِن لِقاء ثمانية من الأنبياء قد رفعهم إلى السماوات ليلقاهُم هناك، وعيسى كان قبل ذلك فوق كما أخبر الله تعالى عن ذلك بقوله: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ أي إلى مَحَلِّ كرامَتِه والمكان المعَظَّم الذي هو السَّماء لا أنّ الله تعالى يسكن السماء أو غيرها مِن الأماكن، حاشا لله. والأنبياء الذين لَقِيَهُم هناك هم ءادم وعيسى ويحيَى ويوسف وإدريس وهارون وموسى وإبراهيم عليهم الصلاة والسلام، فاستقبلوه في السماوات ورَحَّبوا به وكُلٌّ دَعَا له بِخَير.

وقد جاء في حديث المعراج الذي رواه مسلم عن أنس أنّ «**جبريل كان إذا صَعِد بالنبي إلى كُلِّ سماء استَفْتَحَ، فيقول خازن السماء: من أنت؟ يقول: جبريل، فيقول له: ومن معك؟ يقول: محمد، فيقول الخازن: وقد بُعِث إليه؟ فيقول جبريل: قد بعث إليه**»، ومعنى سؤال الخازن أنه هل طُلِبَ النبيّ مُحَمَّد لِلعُروج، وسؤاله هذا كان فَرَحًا، وإلا فهو لا شكّ يَعْرِف أن مُحَمَّدًا رسول قد بَعَثَه الله نَبِيًّا. ثم زاد جبريل والنبيّ في الصعود حتى وَصَلا إلى السماء السابعة، ففُتِحَ لهما فإذا بإبراهيم عليه السلام مُسْنِدٌ ظهره إلى البيت المعمور، وهو بيت يَدْخُلُه كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه، ثم ذهب جبريل والنبيّ محمَّد ﷺ إلى سدرة المنتهى، وهي شَجَرة عظيمة أَوْرَاقُها كذان الفِيَلة وثمارها كالقِلَال، والقُلّة هِيَ الجَرّة الكبيرة.

وقد تعاقَب للنبيّ خَرْقُ العادة في تلك الليلة المباركة حيث أُزيلَ عن سَيِّدنا محمَّدٍ الحجاب المعنويَّ المانعَ من سماع كلام الله الأزليّ الأبديّ الذي ليس ككلام العالمين فسَمِع النبيّ كلام الله وفَهِم الرَّسُول منه الأوامر التي أَمَره الله بها والأمور الَّتِي بَلَّغَها فيما بعد.

وقد أَكْرَم الله تعالَى نَبِيَّه مُحَمَّدًا في ليلة المعراج بأمور عظيمة (**حَتَّى**) إنّهُ أزال عن قَلْبِه الشريف ﷺ الحجابَ المعنوي فـ(**رَأى النَّبِيُّ**) محمَّدٌ ﷺ (**رَبَّا**) أي رَبَّهُ بفؤادُه، فكانت تِلك خِصِّيصة خَّصَّ الله تعالَى بِها نَبِيَّهُ محمَّدًا في الدنيا كما أنّه عزّ وجلّ لِمُوسى قَدْ (**كَلَّمَا**) أي بلا حرف ولا صوت، بدليل قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾، **وقد سبق الكلام على الآية تفصيلًا. والأَلِفُ في «كَلَّمَا» للإطلاق.**

فقد جَعَل الله لسيِّدِنا محمَّدٍ قُوّة الرؤية في قَلْبِه - لا بِعَيْنَيْ رأسِه لأنّ الله لا يُرَى بالعين الفانية في الدُّنيا - فرَأى رَبَّه بلا صورة ولا شكل (**مِنْ غَيْرِ كَيْفٍ**) أي من دون كيفيّة للمرئيّ وهو الله، إذ لا تَكيُّف له سبحانه لا مِن قَبِيل تَحَيُّز في جهة مِن الجهات السِتِّ ولا مِن قَبِيل

تَصَوُّرٍ وتشَكُّلٍ في جِسم ولا مِن قَبيل بُعدٍ بمسافة بينه وبين الرائِي ولا مِن قَبِيل المقابلة بينه وبين الرائي، ليس هو مرئيًّا بوجهٍ مِن هذه الوجوه، بل رءاه محمَّدٌ ﷺ بفؤادِه الشريف مِن دون أن يلحق اللهَ تعالَى تَكَيُّف أو يطرأ عليه تَغَيُّر أو يَجرِي عليه زمانٌ أو يَحُلَّ في مكان أو يَتَّصِفَ بِصِفة لم تكن له، لأنّ الذي كَيَّفَ الكَيْفَ - وهو الله - لا كَيْفَ له، كما قال سيّدنا عليّ رضي الله عنه، (وَ)رؤية النبيّ ربَّه كانَت بِلا **(انْحِصَارٍ)** أي بِدُون حصرٍ للمَرئِيّ وهو الله عند الرائي وهو محمَّد ﷺ لأنّ الانحصار إمّا أن يكون:

- على معنَى الإحاطة بالمرئيّ وهذا أمر لا يكون للعبد فإنّه لا يمكِن للمخلوق أن يعرف الله تعالَى معرِفة إحاطة وهذا معنَى قول الله تعالَى: أي لا تُحِيط به تَكْيِيفًا أو تَحْدِيدًا لأنه لا كيف له ولا حَدَّ،

- أو على معنَى حَصْرٍ وتحديدِ المرئيّ وذلك محالٌ على الله تعالى أيضًا لأنّه لا حَدَّ له ولا نهاية ولا غاية ولا جانب كما أنه ليس متحيِّزًا ولا مُتَمَكِّنًا في مكان ولا يجري عليه زمان، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

وقد ذَهَب ابن عبّاس إلى أنَّ رسول الله ﷺ رأَى رَبَّه بِفُؤاده مَرَّتَين ليلةَ المعراج، كما أخرج ذلك الإمام مُسلِم، واستدلّ ابن عبّاس بقوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ فقال: رءاه بفؤاده مَرَّتين.

وما جاء في قول الله تعالَى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾﴾، والذي وَرَد في الحديث الذي رواه البخاريّ في الصحيح: «**وَدَنَا الجَبَّارِ رَبُّ الْعِزَّةِ فَتَدَلَّى حَتَّى كَانَ مِنْهُ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى**»، فإنهما يحتاجان إلى بيان وعُمدَتُنا في تأويلِهما تفصيلًا أقوال الجهابِذة مِن علماء أهل السُنّة:

أ) فأمّا فيما يتعلَّق بالآية:

- قال الحافظ البيهقي في كتابه «الأسماء والصفات»: «عن مسروق

قال: سألت عائشة رضي الله عنها عن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾﴾ قالت رضي الله عنها: كان جبريل عليه السلام يأتي محمدًا ﷺ في صورة رجل فأتاه هذه المرة وقد ملأ ما بين الخافِقَين، رواه البخاري في الصحيح عن محمد بن يوسف، ورواه مسلم عن محمَّد بن عبد الله بن نمير، كلاهما عن أبي أسامة». ثمّ قال: «قال أبو سليمان الخطابي رحمه الله تعالى في تقدير قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾﴾ على ما تَأَوَّلَهُ عبد الله بن مسعود وعائشةُ رضي الله عنهما مِن رؤيته ﷺ جبريلَ عليه السلامُ في صورته التي خُلِق عليها، والدُّنُوّ منه عند المقام الذي رُفع إليه وأُقِيم فيه. قولُه: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾﴾ المعنِيُّ به جبريل عليه السلام، تَدَلَّى مِن مقامه الذي جُعِل له في الأفق الأعلى فاستوى أي وَقَف وَقْفَةً ثم دنا فتَدَلَّى أي نَزَل حتى كان بينه وبين الْمَصْعَد الذي رُفع إليه محمَّد ﷺ قابَ قَوْسَين أو أدنى في ما يراه الرائي ويُقَدِّرُه»، ثم قال: «ورَوَت عائشة وابن مسعود رضي الله عنهما عن النبي ﷺ ما دَلَّ على أنَّ قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾﴾ المراد به جبريل عليه الصلاة والسلام[1] في صورته التي خُلِق عَليها»، وقال: «قال أبو سليمان: والمكان لا يُضاف إلى الله» اهـ.

- وقال إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك الجويني في كتابه «الشامل في أصول الدين»: «ليس في هذه الآية تصريح بذِكْر الإلهِ وإضافة القُرْبِ إليه، فلِمَ ادّعَيْتُم أنه سبحانه وتعالى هو الْمَعْنِيُّ بمضمون الآية، ولِمَ وَصَفْتُم ربَّكم بالحَدِّ والمقدار بِتَوَهُّم منكم وظَنٍّ؟! ثُمَّ نقول: لَعَلَّه ﷺ قَرُبَ مِن درجةٍ لم يَبْلُغْها إلا أَرْفَعُ الخلائق وأعلاهم شأنًا، ثم

(١) جاءت الصلاة والسلام على جبريل مُفرَدةً في كثير من روايات الحديث، فمن ذلك ورودها عِدّة مرّات في صحيح مسلم وسُنن النَّسائي.

نقول: الدُّنُوّ يُحْمَل على القُرْب والطاعة[1]، وذكر ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ تأكيدًا له، وهو كما حُمِل قولُه في الحديث القدسِيّ: «**إِذَا تَقَرَّبَ العَبْدُ إِلَيَّ ذراعًا، تَقَرَّبْتُ مِنهُ بَاعًا**» على القُرْب[2] والطاعة والرأفة» اهـ.

ب) وأمّا فيما يتعلَّق بالحديث:

- قال الإمام أبو سليمان الخطَّابي في كتابه «أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري»: «قلتُ: إنما سَرَدْنَا هذه القصة بطولها ولم نختصر موضع الحاجة منها لبشاعة ما وقع فيها من الكلام الذي لا يليق بصفة الله تعالى، ولا ينبغي لمسلم أن يَعْتَقِدَه على ظاهره، وهو قوله: «**وَدَنَا الجَبَّار رَبُّ العِزَّةِ فَتَدَلَّى حَتَّى كَانَ مِنهُ قَابَ قَوسَينِ أَو أَدنَى**»، وذلك أنّ هذا يُوجِب تحديد المسَافة بين أحد المذكورَين وبين الآخَر وتمييزَ مكانِ كلِّ واحدٍ منهما، هذا إلى ما في التَّدَلّي من التشبيه والتمثيل له بالشيء الذي تعلَّق من فوق إلى أسفل، فمن لم يَبلُغْه من هذا الحديث إلا هذا القدر مقطوعًا عن غيره ولم يَعتَبِرْه بأوّل القصة وءَاخرِها اشتَبَه عليه وَجهُ الحديثِ ومعناه، وكان قُصاراه إمَّا رَدُّ الحديثِ من أصله، وإمَّا حَمْلُه على أسوإِ ما يكون من التأويل الذي هو عينُ التشبيه، وكلاهُما خُطَّتان مَرغوبٌ عنهما، وليس في هذا الكتاب حديثٌ أشنَع ظاهرًا وأبشعُ مَذاقًا من هذا الحديث». ثم قال: «ولم يَثبُت في شيء مما رُوِيَ عن السَّلف أن التّدلّي مُضافٌ إلى الله سبحانه، جلَّ ربُّنا عن صفات المخلوقين ونُعوتِ المربوبين المحدودين. وقد رُوِيَ هذا الحديثُ عن أنس من غير طريق شريك بن عبد الله، فلم تُذكَر فيه هذه الألفاظُ البَشِعة، فكان ذلك مما يُقوّي الظَّنَّ أنها صادرةٌ من قِبَل شَرِيك، والله أعلم. وفي هذا الحديث لفظةٌ أُخرى تَفرَّد بها شَرِيك أيضًا لم يَذكُرها غيرُه وهي قوله: «**فَقَال وَهُوَ مَكَانَه**» والمكانُ لا يُضاف

(١) أي القُرب المعنوي لأنّ القرب المكاني والحِسّي محال على الله تعالى.
(٢) أي القُرب المعنوي.

إلى الله سبحانه، إنما هو مكان النبي ﷺ ومُقامُه الأولُ الذي أُقِيم فيه» اهـ.

- وقال القاضي عياض المالكي في كتابه «الشِّفا»: «الزيادةُ «ودنُوِّ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ» الواقعة في هذا الحديث إنما هي من رواية شريك عن أنَس فهي مُنْكَرة من روايته» اهـ.

- وقال أبو الحسن بن بطَّال في كتابه «شرح صحيح البخاري» : «وأما قَولُه: «**فَدَنَا الَجَّبارُ رَبُّ العِزَّةِ**» فهو دُنُوّ مَحَبَّة ورَحْمة وفَضِيلة لا دُنُوّ مسافة ونُقْلَة لاستِحالة النُّقْلَة والحَرَكَة على البارئ، إذ لا يَجُوز أن تَحْوِيَه الأَمْكِنة» اهـ.

(**وَافْتَرَض**) أي فَرَضَ اللهُ تعالَى (**عَلَيْهِ**) أي على سيّدنا محمَّد ﷺ وعلى أُمَّتِه (**خَمْسًا بَعْدَ**) أن كان (**خَمْسِيْنَ**) صلاةً قد (**فَرَضْ**) أي الله عليه وعلى أُمَّتِه أوَّلًا. وتفصيل أنّ الله تعالَى فَرَض في ليلة المعراج على سيّدنا محمَّد ﷺ وعلى أُمَّتِه خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فَنَزَل سيّدنا محمَّد إلى نبيّ الله موسى صلى الله عليهما وسلَّم وكان بعدُ في السماء وأخْبَره بما افْتَرَض الله على أُمَّتِه مِن الصلاة، فقال له مُوسَى: ارْجِع - أي إلى المكان الذي كُنت تُناجِي فيه رَبَّكَ لأنّ الله تعالَى لا يَحُلُّ في مكان فاسْأَلْهُ التَّخْفِيف فإنَّ أُمَّتك لا يُطِيقُون ذلك فإني قد بَلَوْتُ أي اخْتَبَرتُ بني إسرائيل وعَرَفتُهم، فلم يَزَل سيّدنا محمَّد يرجع إلى المكان الذي يُناجي فيه الله ويسأله التخفيف ثم يَرْجِع ويُخْبِر موسى عليه السلام مرَّاتٍ وهكذا حتى جُعِلَت خمسَ صلوات كل يوم وليلة بِأَجْرِ خمسين صلاةً فضلًا مِن الله على أُمّة محمَّد ﷺ. وهذا الحديث الذي في مسلِم دليل على أَنَّ الإسراء والمعراج كانا في ليلة واحدة بِرُوحه وجَسَده ﷺ يَقَظةً لا مَنامًا.

ثُمّ عادَ سيّدنا محمَّد ﷺ إلى الأرض (**وَبَلَّغَ الأُمَّةَ**) أي أُمَّتَهُ (**بِـ**)خَبَرِ (**الإِسْرَاءِ**) والمعراجِ (**وَ**)أخبرَهَم بـ(**فَرْضِ**) أي إيجاب

(**خَمْسَةٍ**) مِن الصلوات عليهم في اليوم والليلة (**بِلا امْتِرَاءٍ**) أي بِلا شَكٍّ أنها تَجِبُ عليهم.

وقد روى البخاري في الصحيح عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنّه سَمِع رسولَ الله ﷺ يقول: «**لَمَّا كَذَّبَتْنِي قُرَيْشٌ**» أي حين أخبرَهُم بأنه أُسرِي به إلى بيت المقدس ثم عُرِجَ به إلى السَّماء الدُنيا وما فوقها طلبوا منه وَصْفَ بيتِ المقدِس، قال «**قُمْتُ فِي الحِجْرِ**» أي حَطِيم الكَعبة الشريفة «**فَجَلَا اللَّهُ لِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ**» بأنْ رَفعه له جبريل فجَعَل رسول الله ينظر إليه «**فَطَفِقْتُ**» أي شَرَعْتُ «**أُخْبِرُهُمْ عَنْ ءَايَاتِهِ**» أَي علاماتِه التي سألوا عنها «**وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ**» أي حال وصفِه له.

فجعل ينظر إليه ويعدّها بابًا بابًا ويُعْلِمُهم، وأبو بكر يقول: صَدَقْتَ صَدَقْتَ، أشهد أنك رسول الله، وَ(**قَدْ فَازَ**) في الدَّارَين الدُنْيا والآخِرة (**صِدِّيْقٌ**) أي أبو بكر رضي الله عنه (**بِتَصْدِيْقٍ لَهُ**) أي للنبيّ ﷺ فقال القوم: أمّا النَّعْتُ فواللهِ لقد أصاب. ثم قالوا لأبي بكر: أفتُصَدِّقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يُصْبِحَ؟ قال: نعم إني لأصدِّقه فيما هو أَبْعَدُ مِن ذلك، أصدِّقُه بخبر السماء في غَدْوَةٍ أو رَوْحَة، فسُمِّي أبا بكر الصِّدِّيق لذلك. (**وَبِالْعُرُوْجِ**) أي وفي خَبَرِ المعراج والإسراء (**الصِّدْقُ وَافَى**) أي وافَق (**أَهْلَهُ**) أي قد صُدِّقَ مَن يستحِقُّ التَّصدِيق.

خاتمة

٥١- وَهَـــذِهِ عَـقِـيْـدَةٌ مُـخْـتَـصَـرَهْ　وَلِـلْـعَـوَامِ سَـهْـلَـةٌ مُـيَـسَّـرَهْ
٥٢- نَـاظِـمُ تِـلْـكَ أَحْـمَدُ الْمَرْزُوقِيْ　مَـنْ يَـنْـتَـمِي للصَّادِقِ الْمَصْدُوقِ
٥٣- والْـحَـمْـدُ للهِ وصَـلَّـى سَـلَّمَا　عـلـى النَّـبِيِّ خَيْرِ مَنْ قَدْ عَلَّمَا
٥٤- والآلِ والـصَّـحْـبِ وَكُـلِ مُرْشِدِ　وَكُـلِّ مَـنْ بِـخَـيْـرِ هَـدْيٍ يَـقْـتَـدِي
٥٥- وأَسْـالُ الـكـرِيْـمَ إِخْـلاصَ الْعَمَلْ　ونَـفْـعَ كُـلِّ مَنْ بِـهَـا قَدْ اشْـتَـغَلْ
٥٦- أَبْـيَـاتُـهَا (مَـيْـزٌ) بِـعَـدِّ الْجُمَّلِ　تَـارِيْـخُـهـا (لِـيْ حَـيُّ غُـرٍّ) جُـمَّـلِ
٥٧- سَـمَّـيْـتُـهَـا عَـقِـيْـدَةَ الْـعَـوَامِ　مِـنْ وَاجِـبٍ فِـي الـدِّيْـنِ بِـالـتَّـمَـامِ

(**وَهَــذِهِ**) إشارة إلى ما تَقَدَّم مِن المنظوم من العقائد في الأبيات السابقة هي (**عَـقِـيْـدَةٌ**) جامعة لأصول في العقائد الإيمانية الإسلامية في علم الإلهيّات والنُّبُوّات والسَّمْعيّات، أتى بها الناظم (**مُـخْـتَـصَرَهْ**) أي مُوجَزةً قليلة الألفاظ كثيرةَ المعانِي (**وَ**)قد سبكَها النّاظِم، مع كونِها مختصَرة، على نحوٍ بسيطٍ فهمُه (**لِـلْـعَـوَامِ**) فهي (**سَـهْـلَـةٌ**) من حيث العباراتُ والسبكُ والمضمونُ (**مُيَسَّرَهْ**) على طالِبِيْ الحقّ ومن يريد حِفظَها مِن الكبار والصِّغار.

(**نَـاظِـمُ**) أي مصنِّفُ (**تِـلْـكَ**) المنظُومةِ الأرجوزةِ هو السيّد الشريف الشيخ (**أَحْـمَدُ**) بن محمَّد ابن السيّد رمضانَ (**الْمَرْزُوقِيْ**) نِسبةً إلى العارف بالله القُطب السيّد مَرزُوق الكفافي بن السيّد شهاب الدين الشريف بن السيّد محمد الجواد بن السيّد عليّ الرضا بن السيّد موسى الكاظم بن السيّد جعفرِ الصادِق بن السيّد محمد الباقِر بن السيّد عليّ زين العابدين بن السيّد الامام الحُسَين بن السيّد الإمام عليّ بن أبي طالِب ابن عمّ رسول الله محمَّد ﷺ.

فالناظِم هو مِـ(ـمَـنْ يَنـتْمِي) نسبًا (للـ)ـالنّبيّ محمَّدٍ الـ(ـصَّادِقِ) فيمَا أخبَرَ به و(**الْمَصْدُوقِ**) أي المشهود له بالصِّدق، وكفَى بالقرءان في ذلك مُصَدِّقًا، قال تعالَى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾ .

(**والْـحَـمْـدُ للهِ**) رَبِّ العالَمِينَ (**وصَـلَّـى**) الله و(**سَـلَّمَا**) والألِف فيه للإطلاق، أي وسَلَّم الله (**علَى النَّبِيِّ**) محمَّدٍ (**خَيْرِ**) أي أفضَلِ (**مَنْ قَدْ عَلَّمَا**) والألِف فيه للإطلاق، أي عَلَّمَ الحَقّ.

(**و**)صلاةُ الله وسلامُه علَى (**الآلِ**) أي المؤمنين مِن أقرابِه أو أتقياء أُمَّتِه مُطلقًا (**والـصَّـحْـبِ**) أي الصّحابةِ (**وَكُـلِ مُرْشِدِ**) أي داعٍ إلى الحقّ (**وَكُـلِّ مَـنْ بِخَيْرِ هَدْيٍ**) أي بأحسَنِ طَرِيق ومِنهاجٍ (**يَقْتَدِي**) أيْ يتأسَّى.

(**وأسْـالُ**) اللهَ (**الـكَـرِيْـمَ**) أي الـذي يُـعـطِـي الـنَّـوال قَـبـل الـسـؤال (**إخْـلاصَ الْعَمَلْ**) الصالِح أي قصدُ مرضاة الله به وحدَه لا رياءً ولا سُمعةً (**و**)أَسْأَلُه تعالَى (**نَـفْـعَ**) أي أن يَنْفَع بهذه المنظومة (**كُـلّ مَنْ**) مِنَ المسلِمين (**بِهَا**) أي المنظومة (**قَدِ اشْتَغَلْ**) قراءة أو دراسة، تعلُّمًا أو تَعلِيمًا.

(**أبْيَاتُهَا**) أي أبيات هذه المنظومة المنطوية على العقائد الإيمانية (**مَـيْـزٌ**) أي مِيمٌ وياءٌ وزايٌ (**بِـعَدِّ**) أي حِساب (**الْجُمَّلِ**) الكَبِير مِن قِسمة حروف: أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ.

فحاصِل لفظ «مَيْز» في الجُمّل الكبير هو سبعة وخمسون من الأبيات المنظومة مِن جمع الميم وهي أربعون مع الياء وهي عشَرة مع الزاي وهي سبعة.

ففي حساب الجُمَّل الكبير، المعروف عند العرب، كلُّ حرف مِن أبجد وهوز والحاء والطاء مِن حُطِّي كُلُّها ءاحاد أي الألف عَدُّه واحِد والباء عَدُّها اثنان وهكذا إلى الطاء وعَدُّها تسعة، ثم الكاف عَدُّها عشرة وهكذا كل الحروف مِن الياء مِن حُطِّي وحتى سعفص، كل حرف منها عَدُّه بالأعشار أي الياء عَدُّها عشَرة والكاف عشرون والميم ثلاثون

وهكذا إلى التسعين، ثم القاف مِن قُرشت وحتى الظاء من ضظغ كل وحرف منها بالمئات أي القاف مائة والراء مائتان وهكذا إلى الظاء وهي تسعمائة، ثم ختام العدّ للغين أَلْفٌ.

(**تَارِيْخُها**) أي تاريخُ الفراغ من تصنيف هذه المنظومة هو حاصِلُ كلمات (**لِيْ حَيُّ غُرٍّ**) بحِسابِ (**جُمَّل**) كَبِيرٍ، فاللام ثلاثون والياء عشرَة والحاء ثمانيةٌ والياء عشَرة والغَين أَلْفٌ والراء مائتان، فحاصل مجموع ذلك في الجُمَّل الكبير أَلْفٌ ومائتان وثمانِيةٌ وخَمسُون وهو عام عام تصنيف هذه المنظومة **١٢٨٥**هـ، وقد نصَّ الناظم على تسميتها فقال (**سَمَّيْتُهَا**) يعني منظومَتَهُ هذه (**عَقِيْدَةَ الْعَوَام**) ترغيبًا للمبتدئين بدِراستها وحِفظها وقد أوْدَعها النّاظم بعضًا (**مِنْ**) أُمُورٍ (**وَاجِبٍ**) **تَعَلُّمُها** (**فِي الدِّيْنِ**) على كلّ فردٍ مِن أفراد المكلَّفِين (**بِالتَمَامِ**) أي بلا إهمالٍ ولا إنقاص، وإنّما قلتُ «بعضًا» لأنّ ليس كلّ ما في هذه المنظومة واجِبٌ معرِفَتُه على كلّ فردٍ مِن المكلَّفِين وجوبًا عينيًّا، فحِفظ أسماء الأنبياء الخمسة والعشرين وأسماء رؤساء الملائكة ليس فرضًا واجِبًا على جميع المكلَّفِين بل ذلك مِن فروض الكِفاية.

اللهمَّ اجْزِ الشيخَ أحمدَ المرزقيّ عن المسلمين خيرَ الجَزاء وأجزِل له الثواب وانفع المسلِمين بهذه المنظومة وبهذا الشرح الذي بين أيدينا.

تَمَّ الكتاب بحَمْد الله تعالَى ومَنِّه، وقد أسميناه «**إفادةُ الأنام بشرح عقيدة العَوامّ**»، والله أسأل أن يَنفَع به كما نَفَع بالمنظومة، والحمد لله ربّ العالَمِين، وصلَّى الله وسلَّم على سيّدنا محمَّد وعلى ءاله وصحبه الطيّبين الطاهِرين.

متن عَقِيدة العوامّ

١- أَبْـدَأُ بِـاسْـمِ اللهِ وَالـرَّحْـمـنِ وَبِـالـرَّحِـيـمِ دَائِـمِ الإِحْـسَـانِ
٢- فـالـحَـمْـدُ لـلـهِ الـقَـدِيْـمِ الأَوَّلِ الآخِـرِ الـبَـاقِـيْ بِـلا تـَحَـوُّلِ
٣- ثـُمَّ الـصَّـلاةُ وَالـسَّـلامُ سَـرْمَـدَا عـلَـى الـنَّـبِـيِّ خَيْرِ مَنْ قَدْ وَحَّدا
٤- وءَالِـهِ وَصَـحْـبِـهِ وَمَـنْ تَـبِـعْ سَـبِـيلَ دِيْـنِ الْحَقِّ غَيْرَ مُـبْـتَـدِعْ
٥- وَبَـعْـدُ فَاعْلَمْ بِوُجُوبِ الْمَعْرِفَهْ مِنْ وَاجِبٍ لـلـهِ عِـشْـرِيـنَ صِفَهْ
٦- فَـاللهُ مَـوْجُـودٌ قـَدِيـمٌ بَـاقِـيْ مُـخَـالِـفٌ لِـلْـخَـلْـقِ بِـالإِطْـلاقِ
٧- وَقَـائِـمٌ غَـنِـيّ وَوَاحِـدٌ وَحَـيّ قَـادِرْ مُـرِيـدٌ عـَالِـمٌ بِـكُـلِّ شَـيْ
٨- سـَمِـيـعٌ الـبَـصِـيْـرُ والْـمُـتَـكَـلِّـمُ لَـهُ صِـفَـاتٌ سَـبْـعَـةٌ تَـنْـتَـظِـمُ
٩- فَـقُـدْرَةٌ إِرادَةٌ سـَمْـعٌ بـَصَـرْ حَـيَـاةٌ الْـعِـلْـمُ كَـلامٌ اسْـتَـمَـرْ
١٠- وَجَـائِـزٌ بِـفَـضْـلِـهِ وعَـدْلِـهِ تَـرْكٌ لِـكُـلِّ مُـمْـكِـنٍ كَـفِـعْـلِـهِ
١١- أَرْسَـلَ أَنْـبِـيَـاْ ذَوِي فـَطَـانَـهْ بِـالـصِّـدْقِ وَالـتَـبْـلِـيـغِ والأَمَـانَـهْ
١٢- وَجَـائِـزٌ فِـي حَـقِّـهِـمْ مِـنْ عَـرَضِ بِـغَـيْـرِ نَـقْـصٍ كَـخَـفِـيْـفِ الْـمَـرَضِ
١٣- عِـصْـمَـتُـهُـمْ كَـسَـائِـرِ الْـمَـلائِـكَـهْ وَاجِـبَـةٌ وَفَـاضَـلُـوا الـمَـلائِـكَـهْ
١٤- وَالْـمُـسْـتَـحِـيـلُ ضِـدُّ كُـلِّ وَاجِـبِ فـَاحْـفَـظْ لِـخَـمْـسِـيـنَ بِـحُـكْـمٍ وَاجِـبِ
١٥- تـَفْـصِـيـلُ خَـمْـسَـةٍ وَعِـشْـرِيـنَ لَـزِمْ كُـلَّ مُـكَـلَّـفٍ فَـحَـقِّـقْ وَاغْـتَـنِـمْ
١٦- هُـمْ ءَادَمٌ إِدْرِيْـسُ نُـوْحٌ هُـوْدُ مَـعْ صَـالِـحْ وَإِبْـرَاهِـيْـمُ كُـلٌّ مُـتَّـبَـعْ
١٧- لُـوْطٌ وَإِسْـمَـاعِـيـلُ إِسْـحَـاقٌ كَـذَا يَـعْـقُـوبُ يُـوسُـفٌ وَأَيـُّوْبُ احْـتَـذَى
١٨- شُـعَـيـبُ هَـارُونُ وَمُـوسَـى وَالْـيَـسَـعْ ذُوْ الْـكِـفْـلِ دَاوُدُ سُـلَـيْـمـانُ اتَّـبَـعْ
١٩- إِلْـيَـاسُ يُـونُـسْ زَكَـرِيـَّا يَـحْـيَـى عِـيْـسَـى وَطَـه خَـاتِـمٌ دَعْ غَـيَّـا
٢٠- عَـلَـيْـهِـمُ الـصَّـلاةُ والـسَّـلامُ وءَالِـهِـمْ مَـا دَامَـتِ الأَيَّـامُ

٢١- وَالْمَلَكُ الَّذِي بِلا أَبٍ وَأُمْ ... لا أَكْلَ لا شُرْبَ وَلا نَوْمَ لَهُمْ

٢٢- تَفْصِيلُ عَشْرٍ مِنْهُمُ جِبْرِيلُ ... مِيْكَالُ إِسْرَافِيلُ عِزْرَائِيلُ

٢٣- مُنْكَرْ نَكِيْرٌ وَرَقِيبٌ وَكَذَا ... عَتِيدُ مَالِكٌ وِرِضْوانُ احْتَذَى

٢٤- أَرْبَعَةٌ مِنْ كُتُبٍ تَفْصِيلُها ... تَوْرَاةُ مُوسَى بالْهُدَى تَنْزِيلُها

٢٥- زَبُورُ دَاوُدَ وَإِنْجِيلٌ عَلَى ... عِيسَى وَفُرْقَانٌ علَى خَيْرِ الْمَلَا

٢٦- وَصُحُفُ الخَلِيلِ وَالكَلِيمِ ... فِيهَا كَلامُ الْحَكَمِ الْعَلِيمِ

٢٧- وَكُلُّ مَا أَتَى بِهِ الرَّسُولُ ... فَحَقُّهُ التَّسْلِيمُ وَالْقَبُولُ

٢٨- إِيمَانُنا بِيَوْمٍ آخِرٍ وَجَبْ ... وَكُلِّ مَا كَانَ بِهِ مِنَ الْعَجَبْ

٢٩- خَاتِمَةٌ فِي ذِكْرِ بَاقِي الْوَاجِبِ ... مِمَّا عَلَى مُكَلَّفٍ مِنْ وَاجِبِ

٣٠- نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ قَدْ أُرْسِلا ... لِلْعَالَمِينَ رَحْمَةً وَفُضِّلا

٣١- أَبُوهُ عَبْدُ اللهِ عَبْدُ الْمُطَلِبْ ... وَهَاشِمٌ عَبْدُ مَنَافٍ يَنْتَسِبْ

٣٢- وَأُمُّهُ ءَامِنَةُ الزُّهْرِيَّهْ ... أَرْضَعَهُ حَلِيْمَةُ السَّعْدِيَّهْ

٣٣- مَوْلِدُهُ بِمَكَّةَ الأَمِينَهْ ... وَفَاتُهُ بِطَيْبَةَ الْمَدِيْنَهْ

٣٤- أَتَمَّ قَبْلَ الْوَحِي أرْبَعِينَا ... وَعُمْرُهُ قَدْ جَاوَزَ السِّتِّينَا

٣٥- وَسَبْعَةٌ أَوْلادُهُ فَمِنْهُمُ ... ثَلاثَةٌ مِنَ الذُّكُورِ تُفْهَمُ

٣٦- قاسِمْ وعَبْدُ اللهِ وَهْوَ الطَّيِّبُ ... وطَاهِرٌ بِذَيْنِ ذَا يُلَقَّبُ

٣٧- أتاهُ إبْرَاهِيمُ مِنْ سُرِّيَّهْ ... فأُمُّهُ مَارِيَّةُ الْقِبْطِيَّهْ

٣٨- وغَيْرُ إِبْرَاهِيمَ مِنْ خَدِيْجَهْ ... هُمْ سِتَّةٌ فَخُذْ بِهِمْ وَلِيْجَهْ

٣٩- وأرْبَعٌ مِنَ الإِنَاثِ تُذْكَرُ ... رِضْوَانُ رَبِّيْ لِلْجَمِيْعِ يُذْكَرُ

٤٠- فَاطِمَةُ الزَّهْراءُ بَعْلُهَا عَلِيّ ... وابْنَاهُمَا السِّبْطَانِ فَضْلُهُمْ جَلِيّ

٤١- فَزَيْنَبٌ وبَعْدَهَا رُقَيَّهْ ... وأُمُّ كُلْثُومٍ زَكَتْ رَضِيَّهْ

٤٢- عَنْ تِسْعِ نِسْوَةٍ وَفَاةُ الْمُصْطَفَى ... خُيِّرْنَ فَاخْتَرْنَ النَّبِيَّ الْمُقْتَفَى

٤٣- عَائِشَةٌ وَحَفْصَةٌ وَسَوْدَةُ ... صَفِيَّةٌ مَيْمُونَةٌ وَرَمْلَةُ

٤٤- هِـنْـدٌ وَزَيْـنَـبٌ كَـذَا جُـوَيـرِيَـهْ لِـلْـمُـؤْمِـنِـيـنَ أُمَّـهَـاتٌ مُـرْضِـيَـهْ
٤٥- حَـمْـزَةُ عَـمُّـهُ وعَـبَّـاسٌ كَـذَا عَـمَّـتُـهُ صَـفِـيَّـةٌ ذَاتُ احْـتِـذَا
٤٦- وقـبْـلَ هِـجْـرَةِ الـنَّـبِـيِّ الْإِسْـرَاْ مِـن مَـكَـةٍ لَـيْـلًا لِـقُـدْسٍ يُـدْرَى
٤٧- وَبَـعْـدَ إِسْـرَاءٍ عُـرُوجٌ لِـلـسَّـمَـا حَـتـى رَأَى الـنَّـبِـيُّ رَبًّـا كَـلَّـمَـا
٤٨- مِنْ غَيْرِ كَيْفٍ وَانْحِصَارٍ وَافْـتَرَضْ عَـلَـيْـهِ خَـمْسًا بَعْدَ خَمْسِيْنَ فَرَضْ
٤٩- وَبَـلَّـغَ الأُمَّـةَ بِـالإِسْـرَاءِ وَفَـرْضِ خَـمْـسَـةٍ بِـلا امْـتِـرَاءِ
٥٠- قَـدْ فَـازَ صِـدِّيْـقٌ بِـتَـصْـدِيْـقٍ لَـهُ وَبِـالْـعُـرُوْجِ الـصِّـدْقُ وَافَـى أَهْـلَـهُ
٥١- وَهَـذِهِ عَـقِـيْـدَةٌ مُـخْـتَـصَـرَهْ وَلِـلْـعَـوَامِ سَـهْـلَـةٌ مُـيَـسَّـرَهْ
٥٢- نَـاظِـمُ تِـلْـكَ أَحْـمَـدُ الْـمَـرْزُوقِـيْ مَـنْ يَـنْـتَـمِي لـلـصَّـادِقِ الْـمَـصْـدُوقِ
٥٣- والْـحَـمْـدُ لـلـهِ وصَـلَّـى سَـلَّـمَـا عـلـى الـنَّـبِـيِّ خَـيْـرِ مَـنْ قَـدْ عَـلَّـمَـا
٥٤- والآلِ والـصَّـحْـبِ وَكُـلِ مُـرْشِـدِ وَكُـلِّ مَـنْ بِـخَـيْـرِ هَـدْيٍ يَـقْـتَـدِي
٥٥- وأَسْـالُ الـكَـرِيْـمَ إِخْـلاصَ الْـعَـمَلْ ونَـفْـعَ كُـلِّ مَـنْ بِـهَـا قَـدْ اشْـتَـغَـلْ
٥٦- أَبْـيَـاتُـهَـا (مَـيْـزٌ) بِـعَـدِّ الْـجُـمَّـلِ تَـارِيْـخُـهـا (لِـيْ حَـيُّ غُـرٍّ) جُـمَّـلِ
٥٧- سَـمَّـيْـتُـهَـا عَـقِـيْـدَةَ الْـعَـوَامِ مِـنْ وَاجِـبٍ فِـي الـدِّيْـنِ بِـالـتَـمَـامِ

القَلائِد

فِيمَا أُجمِعَ علَيهِ مِن العَقائِد

للشيخ جميل حليم الأشعري الشافعي

دكتور محاضِر في العقائد والفِرَق

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الَّذِي بَعَثَ سَيِّدَنا مُحمّدًا بالمَحجّةِ البَيضاءِ، وَجَعَلَ سَبِيلَ أُمَّتِه السَّبِيلَ السَّواءَ، وأَشهَدُ أن لاّ إله إلاّ اللهُ شَهادةً أَنجُو بِها يَومَ القِيامةِ مِن الرَّمْضاء، وأَشهَدُ أنّ سيِّدَنا مُحمَّدًا سيِّدُ الرُّسل والأنبياءِ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسَلِّم وزِدْ وبارِك وأَنعِمْ وأَكرِمْ علَيه وعلَى ءالِه وأَصحابِه ما عادَتِ الشَّمسُ علَى الدُّنيا بالنُّور والضِّياءِ.

أمّا بَعدُ، فإنَّ أقوامًا مِن المَخذُولِينَ قد تَنطَّعُوا في أيّامِنا بِدَعوَى تَعمِيم الاجتِهادِ وأنّهُم قد استَوَوا معَ الأَئِمّة الفُحولِ الأَعلام بِدَعوَى أنهّم رِجالٌ وأولئكَ رِجالٌ، وهَيهاتَ هَيهاتَ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ثُمّ زادُوا في غَيّهِم يَعمَهُون حتَّى أنكَرُوا حُجّيةَ الإجماعِ؛ فأرَدتُّ أنْ أجمَعَ أصُولًا أَجمَعَ علَيها عُلَماءُ المُسلمِينَ فِي العَقِيدة، وقدَّمتُ لذَلِكَ مُقدّمةً فِي مَعنَى الإجماعِ وانعِقادِه، راجِيًا مِن اللهِ تَعالَى أنْ يَنفَع بِها طالِبِي الحَقِّ، وَهو حَسْبِي ونِعمَ الوَكِيلُ.

معنَى الإجماعِ وحُجِّيَّتُه وبَيانُ كَيفِيّةِ انعِقادِه

اعلم أنّ الإجماع لغةً يطلق بمعنيين: أحدُهما العَزمُ علَى الشّيء، والثّاني الاتّفاقُ، وأمّا اصطِلاحًا فاتِّفاق أهلِ الحَلّ والعَقدِ - وهم مُجتَهِدُو أمّةِ محمّدٍ ﷺ - في عَصرٍ مِن العُصورِ على أمرٍ دِينيّ.

ودليلُ حُجِّيّةِ الإجماعِ قولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾[1]؛ ووَجهُ الحُجّة أنّه تَعالَى جَمَعَ بَينَ مُشاقّةِ الرَّسولِ ﷺ واتِّباعِ غَيرِ سَبِيلِ المُؤمنِين في الوَعِيد في قَولِه ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ فيَلزَم تَحرِيمُ اتِّبَاعِ غَيرِ سَبِيل المؤمنِين لأنّه لَو لَم يَكُن حَرامًا لَما جَمَعَ بَينَه وبينَ المُحرَّم الّذي هو مُشاقّةُ الرَّسولِ ﷺ، لأنّ الجَمعَ بَينَ حَرامٍ ونَقِيضِه لا يَحسُن في وَعِيدٍ، فدَلّ ذلكَ علَى أنّ اتِّبَاعَ غَيرِ سَبِيلِهم حَرامٌ، وإذا حَرُم اتِّبَاعُ غَيرِ سَبِيلِهم كان اتِّبَاعُ سَبِيلِهم واجِبًا، إذْ لا واسِطةَ بَين السَّبِيلَين، وإنْ ثَبَتَ وُجوبُ اتِّبَاعِ سَبِيلِهم ثَبَتَتْ حُجِّيّةُ الإجماعِ.

فإذا اتَّفَق المُجتهِدُون في عَصرٍ على شيءٍ فهو إجماعٌ وحُجّةٌ، فلا يَصِحُّ أنْ يأتِيَ بَعدَهم مَن يَنقُض ما اتَّفَق عليه السّابِقُون.

وقد ادَّعَى بعضُ المَلاحِدة أنّ هذا الدِّين كَثِيرُ الاختِلاف لا يَصلُح اتِّباعُه ولا يُعرَف الصّوابُ مِنه، فرَدَّ علَيهِم الفُحُول مِن العُلماءِ كأبي إسحاق الإسفراييني فقال: «نحنُ نَعلَم أنّ مسائِلَ الإجماعِ أكثَرُ مِن عِشرِين ألفَ مَسألةٍ، وبهذا يُرَدّ قولُ المُلحِدة: إنّ هذا الدِّينَ كَثِيرُ الاختِلافِ إذْ لَو كان حقًّا لما اختَلَفُوا فيه. فنَقُول: أخطَأتَ، بل مَسائِلُ الإجماعِ أكثَرُ مِن عِشرِينَ ألفَ مَسألةٍ، ثُمّ لَها مِن الفُروعِ الّتي يَقَعُ

(١) سورة النِّساء، (١١٥).

الاتّفاقُ مِنها وعلَيها وهي صادِرةٌ عن مَسائِل الإجماعِ الّتي هي أصُولُ أكثَر مِن مائةِ ألفِ مَسألةٍ»، ذكَره في «شَرح التّرتيب» نقلَه عنه الزّركَشيُّ[١].

الإِجماعُ فِي العَقائِد

اعلَم أَنّ أَهلَ السّنّةِ والجماعة قد أَجمعُوا على أنّ الحقائِقَ ثابِتةٌ والعِلمُ بِها مُتحقّق[٢].

وأَنَّ أسبابَ العِلم هِي الحواسّ الظّاهِرة السّلِيمةُ والخَبرُ الصّادِقُ والعَقلُ[٣].

وأَنّ العالَمَ عُلوِيَّه وسُفلِيَّه مُحْدَث بِجنسِه وأفرادِه وجواهِرِه وأعراضِه[٤].

وأَنّ اللهَ خالقُ العالَم لا يُماثِله ولا يُشابِهه شَيء في ذاتِهِ ولا في صِفاتِه ولا أفعالِه[٥]، فليسَ سُبحانَه وتعالَى بِجسم ولا عَرَض[٦]، بل هو واحدٌ لا شرِيك له[٧]، قَديمٌ لا بِدايَة له، باقٍ لَا نِهايَةَ له[٨]، مُرِيدٌ لا ءامِر له، شاءٍ لا يَكون إلَّا ما يُرِيد[٩]، قادِرٌ لا شَيءَ يُعجِزهُ[١٠]،

(١) البحر المُحِيط في أصول الفقه، بدر الدّين الزَّركَشِيّ، (٦/ ٣٨٤).
(٢) المِنَن الكبرى (لَطائف المِنَن والأخلاق)، عبد الوهّاب الشّعرانيّ، (ص/ ٦٥٢).
(٣) حاشية على شرح العقائد النسَفيّة، عصام الإسفراييني، (ص/ ٤٦).
(٤) الفَرق بين الفِرَق، أبو منصور البغدادي، (ص/ ٣١٥).
(٥) إتحاف السّادة المتَّقِين، محمد مرتضى الزَّبِيديّ، (٢/ ٣٥).
(٦) التعرُّف لمذهب أهل التصوُّف، أبو بكر الكلاباذي، (ص/ ٤١).
(٧) الأنوار القُدسيّة، عبد الوهّاب الشّعرانيّ، (ص/ ١٣).
(٨) أصول الدِّين، أبو منصور البغدادي، (ص/ ٩١).
(٩) الإنصاف فيما يجب اعتِقادُه ولا يجوز الجَهلُ به، أبو بكر الباقلّاني، (ص/ ١٣).
(١٠) التعرُّف لمذهب أهل التصوُّف، أبو بكر الكلاباذي، (ص/ ٣٥).

عالمُ الغَيبِ والشَّهادَة[١]، سَميعٌ بَسمعٍ من غَير أُذُن[٢]، بَصِيرٌ بِبصَرٍ من غيرِ حَدَقَة[٣]، مُتكلِّمٌ بِكلامٍ واحدٍ ليس بِحرفٍ ولا صَوتٍ ولا لُغَةٍ[٤]، حَيٌّ قيُّومٌ أَحدٌ صَمدٌ، لَمْ يَلِدْ ولم يُولَدْ، لا تُدرِكُهُ الأوهامُ والأَفهامُ[٥]، مَهْما تَصوَّرْتَ بِبالِكَ فاللهُ لا يُشبِهُ ذلِكَ، وأَنّ صفاتِه الذّاتِيّةَ أَزليّة أَبَدِيّة وليسَتْ عَين الذّاتِ ولا غيرَه[٦].

وأَنَّ اللهَ تعالَى كانَ قبلَ كُلِّ شيءٍ[٧]، وهو مُستَغنٍ عمّا سِواهُ، فلا تَحوِيهِ الجِهاتُ ولا تَكتَنفُه الأرضُونَ والسَّماواتُ[٨]، وأَنَّه استوَى كما أَخبَرَ لا كما يَخطُرُ للبَشَر.

وأَنَّ اللهَ خالِقُ الجَواهِر والأجسامِ والأَعمالِ والحرَكاتِ والسَّكَناتِ والخَواطِرِ والنِّيّاتِ والخيرِ والشَّرِّ والقَبِيح والحسَن[٩].

وأنَّ للعبدِ مَشِيئةً هي تابِعةٌ لمشِيئةِ اللهِ، فمَن أَنكَرَها أو جعلَها بِخَلقِ العَبدِ فقد كفَرَ[١٠].

والاستِطاعةُ نَوعان:

استِطاعَةٌ سابِقَةٌ على الفِعل وهِي سَلامةُ الأسبابِ والآلاتِ وبِها يكُونُ

(١) التعرُّف لمذهب أهل التصوُّف، أبو بكر الكلاباذي، (ص/ ٣٥). الإقناع في مسائل الإجماع، أبو الحسَن القَطّان، (١/ ٣٥).
(٢) الإقناع في مسائل الإجماع، أبو الحسَن القَطّان، (١/ ٣٥).
(٣) المصدر السابق.
(٤) التعرُّف لمذهب أهل التصوُّف، أبو بكر الكلاباذي، (ص/ ٤٠).
(٥) التعرُّف لمذهب أهل التصوُّف، أبو بكر الكلاباذي، (ص/ ٣٥).
(٦) التعرُّف لمذهب أهل التصوُّف، أبو بكر الكلاباذي، (ص/ ٣٧).
(٧) الإقناع في مسائل الإجماع، أبو الحسَن القَطّان، (١/ ٥٦).
(٨) الفَرق بينَ الفِرَق، أبو منصور البغدادي، (ص/ ٣٢١). الإرشاد إلى قواطِع الأدِلّة، أبو المَعالي الجُوَينيّ، (ص/ ٢١). التفسير الكبير، فخر الدّين الرازيّ، (٢٩/ ٤٤٩).
(٩) إتحاف السّادة المتَّقِين، محمد مرتضى الزَّبيديّ، (٢/ ٤٤٨).
(١٠) التعرُّف لمذهب أهل التصوُّف، أبو بكر الكلاباذي، (ص/ ٤٤).

صِحَّة التَّكلِيف.

واستِطاعةٌ تُقارِنهُ وهي حقيقةُ القُدرةِ الَّتِي يَكونُ بِها الفِعلُ.

وَأجمَعُوا أَنَّ اللهَ تعالى يُثِيبُ فَضلًا وَيُعاقِبُ عدلًا وَيرزُقُ كرَمًا[١]، ويُضِلُّ مَن يَشاء وَيهدِي مَن يَشاء.

وأنَّ تَعذِيبَهُ المُطِيعَ وإيلامَه الدَّواب وَتَوجِيعَهُ الأَطفال ليسَ مِنه بِظلم[٢] بلِ اتِّصافُهُ بالظُّلم مُحالٌ[٣].

وَأَنَّ القُرءانَ كلامُ اللهِ عزّ وجلّ لا يُشبِهُ كلامَ المَخلُوقِينَ، وأَنَّ اللَّفظَ المُنَزَّل الَّذِي نَزَلَ بِه جِبرِيلُ علَى سيِّدِ الأَنبياءِ والمُرسَلِين لَيسَ عَينَ الكَلام الذّاتِيّ بل هو عِبارةٌ عنهُ[٤]، وَكُلٌّ يُسمَّى قُرءانًا.

وَنُؤمِنُ بِمُحكَم الكِتابِ وَمُتَشابِهِه وَنَقُول كُلٌّ مِن عِندِ اللهِ - والمُحْكَماتُ هُنَّ أُمُّ الكِتابِ - وَنُنَزِّهُهُ عزّ وجلّ عَمّا تَقتَضِيهِ ظَواهِر المُتشابِهات مِن كُلّ وَصفٍ لا يَلِيقُ بِجَلالِه.

وَأَنَّ الرِّزقَ ما يَنفعُ وَلَو مُحَرَّمًا، والشَّيءُ هُو المَوجُودُ وَلَو قَدِيمًا.

وَأَنَّ الأَجلَ واحِدٌ والمَيِّتُ مَقتُولٌ بِأَجَلِهِ[٥].

وَأَنَّ الرُّوحَ مَخلُوقَةٌ حادِثَةٌ[٦].

وَأَنَّ اللهَ بَعَث الأَنبياء مُبَشِّرِينَ وَمنُذرِينَ، فَضَّلَهم على سائِرِ العالَمِينَ، أَوَّلُهُم ءادَم، وءاخِرُهم وأَفضَلُهُم مُحمَّد صلوات ربّي وسلامه عليهم

(١) التعرُّف لمذهب أهل التصوُّف، أبو بكر الكلاباذي، (ص/٦٢). أبكار الأفكار في أصول الدّين، سيف الدّين الآمديّ، (٢/ ٢٢٤).

(٢) الإقناع في مسائل الإجماع، أبو الحسَن القَطّان، (١/ ٥٧).

(٣) التعرُّف لمذهب أهل التصوُّف، أبو بكر الكلاباذي، (ص/ ٥١).

(٤) التعرُّف لمذهب أهل التصوُّف، أبو بكر الكلاباذي، (ص/ ٣٩). المِلَل والنِّحَل، أبو الفتح الشّهرستانيّ، (١/ ٨٩). نهاية العُقول في دراية الأصول، فخر الدّين الرازيّ، (٢/ ٣١٥).

(٥) التعرُّف لمذهب أهل التصوُّف، أبو بكر الكلاباذي، (ص/ ٥٧).

(٦) البحر المحيط في التفسير، أبو حيّان الأندلسيّ، (٧/ ١٠٦).

أَجمَعين[١]، أَيَّدَهُم بالمُعجِزاتِ الدّالَّةِ على صِدقِهِم، وَأَنزَلَ على بَعضِهم كُتُبًا.

وَأَنَّهُ يجبُ لِكُلٍّ مِنهُم الصِّدق والأَمانَة والفَطانَة والعِفَّة والتَّبلِيغ[٢]، وَيستَحِيلُ عليهم كُلُّ ما يُنَفِّرُ عن قَبولِ دَعوَتِهم، وَيَجُوزُ فِي حَقِّهم الأَعراضَ الَّتي لا تَقدَحُ في مَراتِبِهم[٣].

وَأَنَّ عذابَ القَبرِ ونعِيمَه وسُؤالَ المَلَكَينِ والقِيامةَ والبَعثَ والحَشرَ والحِسابَ والمِيزانَ والصِّراطَ والحَوضَ والشَّفاعَة حَقٌّ[٤].

وَأنَّ الجَنَّةَ والنّارَ مَخلُوقتانِ لا تَفنَيانِ ولا تَبِيدانِ، وأَنَّ العَذابَ والنَّعِيمَ في القَبرِ وَيوم القِيامَة وفِي الجَنَّة والنّارِ بالرُّوحِ والجَسَدِ[٥].

وَأَنَّ المُؤمِنِينِ يَرَونَ اللهَ يَومَ القِيامَةِ بلا كَيفٍ ولا مَكانٍ ولا جِهةٍ لا كَما يُرَى المَخلُوق[٦].

وأنَّ المَلائِكَةَ عبادٌ للهِ مُكرَمُونَ، ليسُوا ذُكُورًا ولا إناثًا[٧]، لا يأكُلون ولا يَشرَبونَ ولا يَنامُونَ ولا يَتناكحُونَ ولا يَتعبُونَ[٨]، لا يَعصُون اللهَ ما أمَرَهُم ويَفعلونَ ما يُؤمَرُون[٩].

---

(١) أصول الدِّين، أبو منصور البغدادي، (ص/١٧٧).

(٢) المُحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عَطِيّة الأندلسيّ، (١/ ٢١١).

(٣) التعرُّف لمذهب أهل التصوُّف، أبو بكر الكلاباذي، (ص/٦٩-٧٠).

(٤) الإقناع في مسائل الإجماع، أبو الحسَن القَطّان، (١/ ٥٠-٥٣).

(٥) الإقناع في مسائل الإجماع، أبو الحسَن القَطّان، (١/ ٥٢). أصول الدِّين، أبو منصور البغدادي، (ص/٢٦٣).

(٦) المنهاج في شرح صحيح مُسلِم بن الحَجّاج، محيي الدّين النوويّ، (٣/ ١٥). التعرُّف لمذهب أهل التصوُّف، أبو بكر الكلاباذي، (ص/٤٢).

(٧) قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ﴾ [سُورة الزُّخرُف: ١٩].

(٨) قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [سُورة الأنبياء: ٢٠].

(٩) قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [سُورة التَّحرِيم: ٦].

وأنّ الجِنَّ موجُودُونَ[١]، أَبُوهُم الأوّل إبلِيسُ، وهم مُكلَّفُونَ مُتَعَبَّدُونَ فمِنهُم الصّالِحُ ومِنهُم الطّالِحُ.

وأنَّ شَرِيعَة سَيّدنا محمّدٍ قد نَسَخَتْ ما خالَفها مِن الشَّرائِعِ أَجمَعِين[٢].

وأنَّ كَراماتِ الأولياءِ حَقٌّ[٣].

وأنَّ التَّوسُّلَ إلى اللهِ بالذَّواتِ الفاضِلَةِ والأعمالِ الصّالِحَةِ والتَّبَرُّكَ بآثارِ الأنبياءِ والصّالِحِينَ حَسَنٌ[٤].

وأنَّ شَدَّ الرِّحالِ بِقصدِ زيارةِ قَبرِ النَّبِيّ ﷺ وغيرِه مِن الأولياءِ والصّالِحِينَ قُربَةٌ إلى اللهِ[٥].

وأنَّ الأمواتَ يَنتَفِعُونَ بِدُعاءِ الأحياءِ لهُم وتَصدُّقِهم عنهم وقراءتِهم القُرءان عندَهم[٦].

وأنَّ التَّحذِيرَ مِن أهلِ البِدَعِ واجِب[٧].

وَأنّا لا نُكَفِّرُ أَحدًا مِن أَهلِ القِبلةِ بِذَنبٍ ما لَم يَستَحِلَّه.

وأنَّ المَعصِيَةَ وَلَو كَبِيرةً لا تُخرِج مُرتَكِبَها مِن الإيمان[٨].

وَأَنَّ اللهَ لا يَغفِرُ الكُفرَ لِمَن ماتَ عَلَيهِ وَيغفِرُ ما دُونَ ذَلكَ لِمَن يَشاء[٩].

---

(١) أبكار الأفكار في أصول الدّين، سيف الدّين الآمديّ، (٤/ ٣١).

(٢) رَوضة النّاظِر، ابن قُدامة المقدِسيّ، (١/ ٢٢٩).

(٣) التعرُّف لمذهب أهل التصوُّف، أبو بكر الكلاباذي، (ص/ ٧١). الفَرق بينَ الفِرَق، أبو منصور البغدادي، (ص/ ٣١٠).

(٤) شِفا السَّقام في زيارة خير الأنام ﷺ، تقيّ الدّين السُّبكيّ، (ص/ ١٢١).

(٥) شِفا السَّقام في زيارة خير الأنام ﷺ، تقيّ الدّين السُّبكيّ، (ص/ ١٢١).

(٦) الإمتاع بالأربعين المُتباينة السَّماع، ابن حجَر العسقلانيّ، (ص/ ٧٩).

(٧) قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [سُورة ءال عِمران: ١٠٤].

(٨) شرح رسالة القَيرَوانيّ، ابن ناجِي التَّنُوخيّ، (ص/ ٥٦).

(٩) قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [سُورة النِّساء: ٤٨].

وَأَنَّه قَد أُسرِي بِالنَّبِي وعُرِجَ بِشَخصِهِ فِي اليَقَظَةِ إِلَى حيثُ شاءَ اللهُ مِن العُلَى[١].

وأَنَّ المِيثاقَ الّذِي أَخذه اللهُ تعالى مِن ءادَم وَذُرِّيَّته حَقٌّ[٢].

وأَنَّ ظُهُورَ المَهدِيّ وَخُرُوجَ المَسِيحِ وَيأَجُوجَ وَمَأجُوجَ وَنُزُولَ عِيسَى ابن مَريمَ عليه السلام وطلوعَ الشَّمسِ مِن مغربِها وسائرَ ما أخبَر بِه النَّبِيّ عليه الصلاة والسلام مِن الغَيبِيّات كُلّ ذلك حقٌّ.

وأَنّ خَيرَ القُرُونِ قَرْن رَسولِ الله ﷺ وأصحابِه ثمّ الّذين يلُونَهم ثمّ الّذين يلُونَهم[٣]، وأَنَّ أَفضلَ الصَّحابَةِ والخُلَفاء الرّاشِدُونَ المَهدِيُّونَ[٤]، وأَنّا نَعتَرفُ بِفضلِ أَهلِ بَيتِ رَسولِ اللهِ ﷺ وأَزواجِه أُمَّهات المؤمِنِينَ.

وأَنَّه يَجبُ علَى النّاسِ نَصبُ إِمامٍ[٥] وَلَو مَفضُولًا، وأنّ طاعَةَ الإِمامِ العادِلِ واجِبةٌ[٦].

وأَنَّ إِمامَةَ أَبِي بَكرٍ وَعُمَرَ وَعُثمانَ وَعَلِيّ كانَت حَقَّة[٧] وأنّ عليًّا أَصابَ فِي قِتالِ أَصحابِ الجَمَلِ وأَهل صفِّين وأَهل النَّهرَوان[٨]، وأَنَّ عائِشَةَ مُبَرَّأَةٌ مِنَ الزِّنا.

وأَنَّ أَبا الحَسَنِ الأَشعَرِيَّ وأَبا مَنصُورٍ الماتُرِيدِيَّ كُلّ مِنهُما إِمام لأَهلِ السّنّةِ مُقدَّم.

---

(١) التبصير في الدّين، أبو المظفَّر الإسفراييني، (ص/١٧٧).

(٢) قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ شَهِدْنَآۛ﴾ [سُورة الأعراف: ١٧٢].

(٣) الإقناع في مسائل الإجماع، أبو الحسَن القَطّان، (١/٥٨).

(٤) المصدر السابق، (١/٥٩).

(٥) المنهاج في شرح صحيح مُسلِم بن الحَجّاج، محيي الدّين النوويّ، (١٢/٢٠٥).

(٦) الإقناع في مسائل الإجماع، أبو الحسَن القَطّان، (١/٦٠).

(٧) التبصير في الدّين، أبو المظفَّر الإسفراييني، (ص/١٧٨).

(٨) نقلَه عبد القاهِر الجُرجانيّ في كتابِه «الإمامة» وعنه القُرطبي. التّذكِرة بأحوال الموتَى وأمور الآخرة، شمس الدّين القُرطبيّ، (ص/١٠٨٩).

وأَنَّ طَريقَ الإِمامِ الجُنَيدِ البَغْدادِيّ طَريق قَويمٌ، وَأنَّ الشّافِعيَّ وَأَبا حَنِيفَةَ وَصاحِبَيهِ وَمالِكًا وأَحمدَ وَسُفيانَ وَسائِرَ أَئِمَّةِ الإِسلامِ أَئِمَّة هُدَى واختِلافهم رَحمَة بالأَنامِ.

وأَنَّ الصَّلاةَ تَجُوزُ خَلفَ علَى كلِّ بَرٍّ وفاجِرٍ مِن المُسلِمِينَ.

وَأَنَّ المَسحَ عَلَى الخُفَّينِ جائِزٌ فِي الحَضَرِ والسَّفَرِ.

وأَنَّ الحَجَّ والجِهادَ فَرْضانِ ماضِيانِ مَع أُولِي الأَمرِ مِن أَئِمَّةِ المُسلِمِينَ إِلى قِيامِ السّاعَةِ.

والحمدُ للهِ رَبِّ العالَمِين، وصلَّى اللهُ علَى سيِّدِنا محمّدٍ وعلَى ءالِه الطّاهِرِين وصَحابَتِه الطَيِّبِين، وسَلامُ اللهِ علَيهِم أجمَعِين.

الفهرس

التَّوطِئَة: ٣
نُبْذَة تعريفيَّة بالشّيخ الدُّكتور جَمِيل حَلِيم ٧
نَسَبُ الشّيخ الدُّكتور جَمِيل حَلِيم إِلَى رَسُولِ الله ﷺ ١٠
ترجمة الناظم رحمه الله ١١
الكلام على البسملة ١٦
من أسماء الله: الرحمن والرحيم ١٨
الحمد والشكر ومعانيهما ١٩
جوازُ إطلاقِ القديمِ على الله بمعنى أنَّه لا أَوَّلَ له ٢١
مِن أسماء الله تعالى «الأوّلُ» ٢٥
مِن أسماء الله تعالى «الآخِر» ٢٨
مِن أسماء الله تعالى «الباقِي» ٢٩
الله تعالى لا يطرأ عليه تغيُّر في ذاته ولا صفاته ٣٠
الصلاة والسلام على رسول الله ٣٣
ءال رسول الله محمَّد ﷺ ٣٩
صحابة رسول الله محمَّد ﷺ ٤١
أتباع صحابة رسول الله ﷺ ٤٣
الْمَيْز بين الاتِّباع والابتداع ٤٤
الْمَيْز بين العِلم والمعرِفة ٤٨
الْمَيْز بين المعرِفة والعِرْفان والتصديق ٥٠
حدُّ التكليف وحُكم من لم تبلغْهُ دعوة الإسلام ٥١
وجوبُ معرفة صفات الله على المكلف ٥٢
إثباتُ أزليّة صفات الله والردُّ على المعتزلة ٥٦
الوجود: صفة نفسيّة ٥٧
مذهب القائلين بوَحدة الوجود والاتِّحاد ٥٩
القِدَم: صفة سلبيّة ٦٠

مسألة استطرادية: اللُّزوم البيِّن واللُّزوم الخفيّ ٦٦
البقاء: صفة معنًى ٦٧
مسألة مهمّة في الكلام على صفة البقاء ٧٠
المخالفة للحوادث: صفة سلبيّة ٧٢
القيام بالنفس: صفة سلبيّة ٧٦
الوحدانيّة: صفة سلبيّة ٧٨
الحياة: صفة معنًى ٨٢
القُدرة: صفة معنًى ٨٥
مسألة التكوين عند الأشاعرة والماتريدية ٨٩
الإرادة: صفة معنًى ٩٢
مسألة خلْق أفعال العباد ٩٧
العِلم: صفة معنًى ١٠٥
السَّمْع: صفة معنًى ١١٠
البَصَر: صفة معنًى ١١٤
الكَلام: صفة معنًى ١١٨
مذهب أهل السُّنَّة في سماع موسى كلَام الله الذاتيّ ١٢٢
كلام الله والقرءان لهما إطلاقان ١٢٣
الصفات المعنويّة عند القائلين بأنَّها غيرُ صفات المعاني ١٢٦
مسائل تتعلَّق بصفات المعاني ١٢٨
ما يَجوز في حقِّ الله تعالَى ١٣٠
الوَاجِبُ فِي حَقِّ الرُّسُلِ وَالْمُسْتَحِيلُ وَالجَائِزُ ١٣٤
الفَرْق النُبُوّة والرِّسالة ١٣٤
ما يَجِب للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ١٣٦
ما يجوز في حقّ الأنبياء ١٤٢
خاتِمة فِي ذِكْر بعض ما يجوز على الأنبياء وما لا يجوز ١٤٨
عِصمة ملائكة الله الكرام ١٥٠
الأنبياء والرُّسُل عليهم الصلاة والسلام ١٥٤

الملائكة الكِرام ١٩٢
مسألة مُهِمّة تتعلَّق بسؤال المَلَكَين في القبر ١٩٨
الصُّحُفُ والكُتُبُ الْمُنَزَّلَةُ ٢٠٤
الإيمان بما جاء عن رسول الله ﷺ ٢٠٧
الإيمان باليوم الآخِر ٢٠٩
خاتِمة في سِيرة رسول الله ﷺ ٢١٣
اسم النبيّ محمَّد ﷺ ٢١٣
إرسال النبيّ محمَّد إلى النّاس كافّة ٢١٥
تفضيل النبيّ محمَّد على سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسَّلام ٢١٧
نَسَب النبيّ الشّريف ﷺ ٢٢٢
بيان أنّ والِدَي الرَّسُول محمَّد ناجِيان ٢٢٧
قِصّة رضَاعِه ﷺ ٢٢٨
خَبَر وِلادَتِه ﷺ بِمَكَّة ٢٣٠
خَبَر وَفاتِه ﷺ بالمدِينة المنوَّرة ٢٣٢
قصّة بدء نزول الوحي على النبيّ ﷺ ٢٣٣
كيفيّات نُزول الوحي على النبيّ ﷺ ٢٣٦
ذِكر وفاة النبيّ ﷺ ٢٣٧
أبناء الرسول ﷺ وءاله وصحبه ٢٤٠
أزواج رسول الله ﷺ وءاله ٢٤٥
أعمام النبي وعماته صلى الله عليه وعلى ءاله وصحبه وسلم ٢٥١
لا يُخَفَّف العَذابُ عن أبي لَهَب بعد دخول النّار ٢٥٤
الإسراء والمعراج ٢٦١
خاتمة ٢٧٠
متن عَقِيدة العوامّ ٢٧٣
القَلائِد فِيمَا أُجمِعَ علَيهِ مِن العَقائِد ٢٧٦
الفهرس ٢٨٦